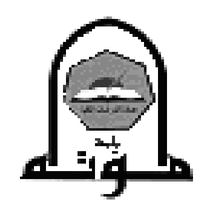


جامعة مؤتة
عمادة الدراسات العليا

الملك المعظّم عيسى الأيوبي
ودوره في مقاومة الغزو الصليبي

إعداد الطالب

حسين رجا اجميع الشقيرات

بإشراف

الأستاذ الدكتور محمود محمد الرويضي

أطروحة مقدمة إلى عمادة الدراسات العليا
استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراة
في التاريخ / قسم التاريخ

جامعه مؤتة 2014

الإهداء

إلى تلك الأرواح الطاهرة التي بذلت ما في وسعها، وكدّت وتعبت دون أن تنتظر الجزاء إلا من الله

إلى روح والدتي ووالدي.......................................

إلى رفيقة الدرب رمز العطاء ونبع الحنان.................. زوجتي

إلى قرّة عينيّ وراحة نفسي ولديَّ......................... هاشم ومحمّد

إلى زهرات قلبي المؤنسات الغاليات........................ زينة وإيلاف

وإلى كلّ الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة

حسين رجا اجميع الشقيرات

الشكر والتقدير

في مثل هذه اللحظات يتوقف القلم قبل أن يخط الحروف، ليجمعها في كلمات، فتتبعثر الحروف محاولا تجميعها في سطور وتزدحم الأفكار والأماني المفعمة بالحمد والشكر لله أولاً، ثمّ بالودّ والعرفان إلى الذي تعهّد الغرس بذرةً، ومنحها من وقته وجهده حتى آتى الغراس أُكُله، فصوّب وتابع وصحّح وعدّل، وأبى إلاّ أن يترك بصماته على الدراسة، إلى الأستاذ الدكتور محمود محمد الرويضي كلمة شكر وعرفان وتقدير واحترام، والشكر موصول للأساتذة الأجلاء أعضاء لجنة المناقشة، الأستاذ الدكتور أحمد محمد الجوارنة، والأستاذ الدكتور حسين فلاح الكساسبة، والأستاذ الدكتور محمد نايف العمايرة، على جهدهم ووقتهم وتفضلهم بمناقشة الأطروحة وتحملهم قراءة ما جاء فيها. والشكر والعرفان إلى أعضاء الهيئة التدريسية، والزملاء والزميلات في قسم التاريخ جامعة مؤته.

كما لا يفوتني أن أشكر الزملاء في مكتبة جامعة مؤتة ومكتبة الجامعة الأردنية على عظيم أخلاقهم وسعة صدورهم وتعاونهم في مراحل جمع معلومات الأطروحة، فلهم جزيل الشكر وعظيم الجزاء.

ولا يبقى لنا في نهاية المطاف إلا قليلاً من الذكريات وصور تجمعنا برفاق كانوا إلى جانبنا، فواجب علينا شكرهم ووداعهم ونحن نخطو خطواتنا الأولى في غمار الحياة.

ونخص بالشكر والعرفان كل من أشعل شمعة في دروب عملنا وأعطى من وقته وجهده، فالشكر للعائلة الكريمة ممثلة بزوجتي وأبنائي على تحملهم معي رحلة الدراسة وما رافقها.

حسين رجا اجميع الشقيرات

فهرس المحتويات

قائمة الاختصارات

الاختصارات بالعربية	المعنى الكامل
ت	توفي
ج	جزء
د.ت	دون تاريخ نشر
د.م	دون مكان نشر
د.ن	دون ناشر
ص	صفحة
ط	طبعة
ق	قسم
كم	كيلو متر
م	ميلادي
مج	مجلد
هـ	هجري

المعنى بالكامل	الاختصارات بالإنجليزية
Number	No
Page	P
Volume	Vol

الملخص

الملك المعظّم عيسى الأيوبي ودوره في مقاومة الغزو الصليبي

حسين رجا الشقيرات

جامعة مؤتة، 2014

إن اختيار الملك المعظم عيسى الأيوبي ودوره في مقاومة الغزو الصليبي موضوعاً للدراسة، جاء بدافع الرغبة في دراسة شخصيته، كون الدراسات الحديثة لم تنصف شخصيته ، وبخاصة إبراز دوره في مواجهة الصليبيين، وعلاقته بنظرائه من البيت الأيوبي وقوى الجوار. لا سيّما وأنّ هذا الدور كان دوراً أساسياً في موضوع الدراسة ، حيث إن الملك المعظّم عاصر عدداً من الحملات الصليبية على بلاد الشام ومصر، ولعب دوراً هاماً وبارزاً في الدفاع عن بلاد الشام ومصر ،أمام الخطر الصليبي وسير الأحداث في المنطقة.

وقد اعتمدت الدراسة على استقصاء النصوص من مصادرها التاريخية العربية والأجنبية، واستنطاقها والربط بينها، واستخلاص النتائج منها لبيان صورة واضحة لفترة حكم المعظم عيسى الأيوبي، ودوره في مقاومة الغزو الصليبي؛ لإعطاء القارئ فكرة كامله، وبشكل متسلسل ومترابط في إطار من الوحدة والتكامل.

وقد جاءت الدراسة كمحاولةٍ لرسم حدود مملكة المعظم عيسى الأيوبي جغرافياً وإدارياً خلال فترة الدراسة، وتوثيقها بالخرائط، وإبراز التاريخ السياسي والحضاري لمملكته، وربط المعلومة التاريخية الواردة في المصادر الأولية العربية مع واقع المعلومات الواردة في المصادر الأجنبية لإبراز صورة حضارية للقارئ، تكون أقرب للواقع عن دور الملك المعظم عيسى الأيوبي في رسم سياسة مملكته ومقاومته للغزو الصليبي.

وقد قسّمت الدراسة إلى أربعة فصول، خصّصَ الفصل الأول لسيرة الملك المعظم عيسى الأيوبي ونشأته، أمّا الفصل الثاني، فقد تناول مملكة الملك المعظم عيسى الأيوبي، من حيث حدودها وتنظيماتها الإدارية والعسكرية والعمرانية، وتناول الفصل الثالث علاقات الملك المعظم عيسى الأيوبي وتحالفاته السياسية، أمّا الفصل

الرابع، فقد تناول دور الملك المعظم عيسى الأيوبي في مقاومة الغزو الصليبي، وانتهت الدراسة بخاتمة تضمنت نتائج الدراسة، وأُرْفِقَ بالدراسة مجموعة من الملاحق (الخرائط والأشكال)، وقائمة بالمصادر والمراجع.

وقد تبيّن من خلال الدراسة أَنّ الملك المعظّم عيسى الأيوبي لعب دوراً كبيراً في مواجهة الصليبيين، وبخاصة من تواجدَ منهم في ساحل فلسطين، وقد نجح في التصدّي للحملة الصليبية الهنغاريّة، واستنهض ملوك البيت الأيوبي للوقوف في وجه الحملة الصليبية الخامسة، واتّخذ عدّة اجراءات لوقف المد الصليبي، فقاومَ نشاط الداويّة والاسبتاريّة، واقتضت الظروف السياسية والعسكرية إلى هدَم أسوار بيت المقدس وتخريب قلاعها، وسعى إلى توحيد الجبهة الشامية مع المصريّة، كما وقف موقفاً حازماً تجاه عروض الصلح المتكررة التي قدّمها أخوه الملك الكامل، فوقف موقف المعارض منها، وحاول جاهداً الوقوف ضد تقارب أخيه الملك الكامل مع الامبراطور فردريك الثاني، ذلك التقارب الذي أثمر بتسليم بيت المقدس للإمبراطور فردريك الثاني، بعد وفاة الملك المعظّم عيسى وغيابه عن الساحة السياسية.

Abstract

King Eissa Al-Ayoubi
and his role in resisting the crusader invasion

Hussein Raja Al.shogairat

Mu'tah University, 2014

King Eissa Al-Ayoubi and his role in the resistance to the Crusader invasion were chosen as the subject of this study which was motivated by the desire to study his character and the fact that recent studies were not fair at studying his character, and particularly highlighting his role in confronting the Crusaders, and his relationship with his counterparts from Al-Ayoubi House and the neighboring forces. Especially, since this role was an essential role in the subject of the study, where the king has experienced a number of crusades in the Levant and Egypt, and played an important role in the defense of the Levant and Egypt against the danger of the Crusader and the course of events in the region.

The study was based on surveying the texts from historical, arabic and foreign sources, linking them and drawing conclusions from them to demonstrate a clear image of the reign of the Eissa Al- Ayoubi and his role in resisting the Crusader invasion to give the reader a complete idea sequentially and interdependently within the framework of unity and integration.

The study was an attempt to draw the borders of the Kingdom of Eissa Al- Ayoubi geographically and administratively during the study period. And it was documented with maps . It also highlighted the political history and cultural heritage of his kingdom and linked historical information contained in the primary Arabic sources with the reality of information provided in foreign sources to highlight the civilized image to the reader, that is closer to the reality of the role of King Is Eissa Al-Ayoubi in the policy-making of his kingdom and his resistance to the invasion of the Crusader.

The study was divided into four chapters, the first chapter was devoted to the biography of King _ Eissa Al-Ayoubi and his inception, the second chapter dealt with the Kingdom of King _ Eissa Al-Ayoubi, in terms of its borders and administrative, military and urban organizations and the third chapter addressed the relations of King _ Eissa Al-Ayoubi and his political alliances, the fourth Chapter addressed the role of King _ Eissa Al-Ayoubi in resisting the crusader invasion, and the conclusion the study included the results of the study, and the study enclosed a set of appendices (maps and forms), and a list of sources and references.

During the study it was found that the King _ Eissa Al-Ayoubi played a major role in confronting the Crusaders, particularly those who existed in the coast of Palestine, succeeded in tackling the Hungarian

crusade campaign, and prompted the Ayoubi Kings to stand in the face of the Fifth Crusade, and took several procedures to stop the invasion of the Crusaders , He resisted the activity of Templar and Hospitallers. The political and military circumstances required the demolition of the walls of Jerusalem and sabotaging castles. He also sought to unify the Levantine and Egyptian fronts, as he stood a firm position towards repeated Offers for reconcile that were presented by his brother King Al-Kamil, and opposed them, and tried so hard to stand against convergence between his brother, King Al-Kamil and the Emperor Frederick II, which resulted in delivering the Holy House to Emperor Frederick II after the death of King Eissa and his absence from the political scene.

المقدمة

ركّزت الدراسات في جُلِّها على ملوك الدولة الأيوبية وسلاطينها ، أمثال السلطان صلاح الدين الأيوبي، والسلطان الملك العادل، والسلطان الملك الكامل وغيرهم ممن كان لهم الدور الأبرز في تاريخ الدولة الأيوبية، ومقاومة الغزو الصليبي، ولا شك أن لهؤلاء السلاطين والملوك مكانتهم ودورهم وأهميتهم في التاريخ الإسلامي. ودور الملك المعظم عيسى الأيوبي لا يقل أهميّة عن أدوار أولئك السلاطين والملوك، وهو واحد منهم.

وتكمن أهميّة هذه الدراسة في الكشف عن جوانب هامة من شخصية الملك المعظم عيسى الأيوبي وحدود مملكته، وعن طبيعة علاقاته مع ملوك البيت الأيوبي وسلاطينه ، كما تحاول الدراسة تتبع تحالفاته مع الأطراف التي تزامن حكمه مع وجودها على الساحة السياسية.

والدراسة معنية بالدرجة الأولى بدراسة دور الملك المعظم عيسى في مقاومة الغزو الصليبي لبلاد الشام، وتقديم صورة واضحة عن الحالة السياسية آنذاك، كما ستحاول الدراسة تسليط الضوء على علاقات الملك المعظم عيسى بالدولة العباسية والقوى المجاورة، في ضوء المصادر التاريخية العربية منها والأجنبية المترجمة.

وتهدف الدراسة إلى رسم حدود مملكة المعظم عيسى الأيوبي جغرافياً وإدارياً وتوثيقها بالخرائط، وإبراز التاريخ السياسي والحضاري للمملكة، من خلال ربط المعلومة التاريخية الواردة في المصادر الأولية العربية مع واقع المعلومات الواردة في المصادر الاجنبية، لإبراز صورة حضارية للقارئ، تكون أقرب للواقع عن دور المعظم عيسى في مقاومة الغزو الصليبي.

ويقوم المنهج المتّبع في هذه الدراسة على الإحاطة بالمصادر الأولية العربية والأجنبية والدراسات الحديثة حول الموضوع، واستقصاء النصوص من مصادرها التاريخية العربية والاجنبية واستنطاقها، واستنباط الحقائق التاريخية والربط بينها واستخلاص النتائج منها، لبيان صورة واضحة لفترة حكم المعظم عيسى الأيوبي ودوره في مقاومة الغزو الصليبي؛ لإعطاء القارئ فكرة كاملة وبشكل متسلسل ومترابط في إطار من الوحدة والتكامل عن فترة حكم الملك المعظّم عيسى الأيوبي.

جاءت هذه الدراسة في أربعة فصول، جاء الأوّل بعنوان: **الملك المعظّم عيسى نشأته وحياته**، ليتناول سيرة الملك المعظم عيسى الأيوبي، نسبه واسمه ولقبه وأولاده وصفاته ومذهبه وشيوخه، والبيئة التي ترعرع فيها، ودراسة شخصيته وحياته الاجتماعية والعلمية والثقافية والسياسية والدينية. أمّا الفصل الثاني، فقد جاء بعنوان: **مملكة الملك المعظّم عيسى الأيوبي**، بهدف بيان الأهمية السياسية والتطورات التاريخية والأحوال الإدارية في بلاد الشام أثناء حكمه، وبيان حدود مملكته ووسائل اهتمامه بها، وسياسته الداخلية ومنجزاته العمرانية. وجاء الفصل الثالث بعنوان: **علاقات الملك المعظّم عيسى وتحالفاته السياسية**، بهدف بيان أهمية تلك التحالفات مع القوى المحلية وقوى الجوار، ومحاولة لرسم صورة أقرب لواقع حياة المجتمع الإسلامي في بلاد الشام جراء الخلافات بين أفراد الأسرة الأيوبية.

وجاء الفصل الرابع بعنوان: **دور الملك المعظّم عيسى في مقاومة الغزو الصليبي**، بهدف الكشف عن جهوده في مواجهة الغزو الصليبي، وبخاصة الحملة الهنغارية والحملة الخامسة، ودوره في مفاوضات الحملة الصليبية السادسة، فضلاً عن حملاته على معاقل الصليبيين في بلاد الشام، وجهوده في استنهاض ملوك البيت الأيوبي، وتوحيد الجبهتين الشامية والمصرية في مواجهة ذلك الغزو. وتضمّنت الدراسة خاتمة، تناولت أبرز نتائج الدراسة، وعددا من الملاحق، وقائمة المصادر والمراجع.

وفي الختام أسأل الله تعالى أن يجعلها دراسة خالصة لوجهه الكريم، وأن ينفع بها القارئ العربي والمسلم، إنه سميع مجيب.

الفصل الأول
المعظّم عيسى نشأته وحياته

1.1 نسَبَهُ

ينتسب الملك المعظّم عيسى إلى الأسرة العادلية[1]، وهي من الأسر الأيوبية التي قامت في مصر والشام، وتعود في نشأتها إلى الملك العادل سيف الدين[2] والد الملك المعظّم عيسى. وينتسبون إلى جدهم الأكبر نجم الدين أيوب[3]، ويذكر ابن

---

(1) الأسرة العادلية: نسبة إلى العادل الكبير محمَّد بن أَيوب بن شاذي بن مروان السلطان الملك العادل سيف الدّين أَبو بكر، أشتهر بكنيته وملك من الكرج إلى قريب همذان والشام ومصر والجزيرة واليمن، وكان خليقاً بالملك حسن التدبير حليمًا صفوحاً مجاهدًا عفيفاً متصدقاً آمراً بالمعروف ناهياً عَن المنكر، أسس مملكةً واسعةً وتركها لأبنائه من بعدهِ. وهم الكامل، والأشرف، والمعظم عيسى، للمزيد من المعلومات حول الأسرة العادلية وجذورها انظر المخطط رقم (2) في قائمة الملاحق ؛ وانظر الصفدي: صلاح الدين خليل بن أيبك (ت717هـ/1317م)، الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، 1420هـ/ 2000م 29جزء، ج2، ص169. وسيشار إليه فيما بعد، الصفدي، الوافي.

(2) الملك العادل: سيف الدين أبو بكر محمد بن أيوب بن شاذي ابن مروان، وكنيته أشهر من اسمه، ولد سنة 540هـ/1145م وتوفي سنة 615هـ/1217م، انظر سبط ابن الجوزي: يوسف بن قزا وغلي(ت 654هـ/1256م)، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، مطبعة دار المعارف العثمانية، حيدر أباد، الهند، 1951،ج8، ق2، ص651. وسيشار إليه فيما بعد، سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، وللمزيد من المعلومات انظر المخطط رقم(2) في قائمة الملاحق.

(3) نجم الدين أيوب: أبو الشكر أيوب بن شاذي بن مروان الملقب الملك الأفضل نجم الدين والد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب والملك العادل، انظر ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي (ت 681هـ /1282م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان،7أجزاء، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت،ج1، ص 255. وسيشار إليه فيما بعد، ابن خلكان، وفيات الأعيان. وللمزيد من المعلومات انظر المخطط رقم(3) في قائمة الملاحق.

الأثير(ت630هـ/1232م) أن نسبهم يعود إلى الأكراد[1]، ويؤكد بعض ملوك بني أيوب بأنهم عرب نزلوا عند الأكراد وتزوجوا منهم[2]،منكرين نسبهم للأكراد[3]. وادّعى بعضهم النسب إلى بني أميّة[4]، وكان الملك المعز إسماعيل[5] يدّعي ذلك، وسمّى نفسه المعزّ لدين الله، وخطب لنفسه بالخلافة في اليمن[6]، وذلك في أيام عمّه الملك العادل الذي أنكر ذلك وقال:" لقد كذب إسماعيل، ما نحن من بني أميّة أصلاً"[7]، وهناك جماعة أخرى أرجعت نسبهم إلى بني مرّة بن عوف[8]. وأُحضر هذا النسب إلى الملك المعظّم عيسى[9]، وأسمعه إلى أبنائه وذلك سنة 619هـ[10].

غير أنّ الراجح أنهم لا ينتسبون إلى بني أميّة ،كما أكّد الملك العادل في ردّه على المعز إسماعيل. ويعدون أنفسهم عرباً نزلوا عند الأكراد، ويدافعون عن عروبتهم[11].

---

(4) ابن الأثير: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري عز الدين(ت 630هـ/1232م)، الكامل في التاريخ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ط1،12جزء، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1417هـ / 1997م، ج10، ص،425–426. وسيشار إليه فيما بعد، ابن الأثير، الكامل.

(2) ابن واصل: جمال الدين محمد بن سالم(ت 697هـ/1297م)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق حسنين محمد ربيع، وسعيد عبد الفتاح عاشور، 5أجزاء، ج2، ص3. وسيشار إليه فيما بعد، ابن واصل، مفرج الكروب.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج10، ص426.

(4) ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص3.

(5) المعز اسماعيل: الملك المعز اسماعيل بن سيف الاسلام ظهير الدين طغتكين بن أيوب، تولّى اليمن بعد أبيه سيف الاسلام، وقد خطب لنفسه بالخلافة باليمن أيام عمّه الملك العادل بن سيف الدين. ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص4.

(6) ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص4.

(7) المصدر نفسه، ج1، ص4.

(8) المصدر نفسه، ج1، ص4.

(9) المصدر نفسه، ج1، ج1، ص4.

(10) المصدر نفسه، ج1، ج1، ص4.

(11) ابن الأثير، الكامل، ج10، ص426.

2.1 اسمُه ومولده ونشأته ولقبه ووفاته:

الملك المعظّم شرف الدين عيسى، ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب بن شاذي بن مروان[1]، ولد في 5 رجب من سنة 576هـ/1180م[2]، ويجعل الصفدي (ت717هـ/1317م) مكان ولادته في دمشق[3]، بينما يجعل الذهبي (ت748هـ/1347م) ولادته في القاهرة[4]. والرّاجح أن ولادته كانت في دمشق استناداً لتواجد والده العادل هناك، وترجيحاً لرواية سبط ابن الجوزي القريب من الأسرة العادلية آنذاك.

نشأ المعظّم عيسى في كنف والده الملك العادل[5]، وأمّه التركيّة[6]، وكان لتلك التنشئةَ الدور الأكبر في صقل شخصيته ا[7]، فقرْبُهُ من والدِه أكسبهُ الكثيرَ من صفات والده العادل[8]، كالحزمِ، والمكرِ، وسدادِ الرأيِ، والصبرِ، واليقظةِ، والبذلِ، والحلمِ، حتى أنه كانَ يسمعُ ما يكره، ويتغاضى عنه كأنه لم يسمعهُ[9].

وكان والده كثير الأولاد، حيث بلغ تعدادهم ستة عشر أخاً من الذكور سوى البنات[10]، ولم يُعرف عن ملوكِ بني أيوب أحدٌ أكثرَ حباً لأبنائهِ من العادل[11]، وقد اختصّ المعظّم عيسى بجانبٍ كبيرٍ من ذلك الحب، حيث قرّبهُ وجعله نائباً له على

---

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان،ج3، ص 494.

(2) سبط ابن الجوزي، مرآة،ج8، ق2، ص644.

(3) الصفدي، الوافي،ج2، ص170.

(4) الذهبي: شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز(ت 748هـ /1347م)،العبر في خبر من غبر، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، 4 أجزاء،ج3، ص194. وسيشار إليه فيما بعد، الذهبي،العبر.

(5) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 645.

(6) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص207.

(7) المصدر نفسه ، ج3، ص270.

(8) المصدر نفسه، ج3، ص271.

(9) المصدر نفسه، ج3، ص271.

(10) المصدر نفسه، ج3، ص272.

(11) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 650.

دمشق[1]. وقد شاع في تلك الفترة الألقاب التي حملها ملوك وسلاطين الدولة الأيوبية. ومنها لقب "المعظّم" الذي حمله الملك المعظّم عيسى وعُرف به[2].

ويؤرخُ سبط ابن الجوزي لتاريخ وفاته، فيذكر أنّها كانت في ثالثِ ساعةٍ من نهارِ الجمعةِ أول يومٍ من ذي الحجة من سنة 624هـ/ 1227م، في قلعة دمشق ودفنَ فيها[3]. وكان عمره سبعا وأربعين سنة[4]، وقد ملَكَ دمشق مستقلاً بها مدّةَ تسعَ تسعَ سنينٍ وخمسة شهور وثلاثةٌ وعشرين يوماً[5]، ابتداءً من اليوم التالي لوفاة والده الملك العادل في السابع من جُمَادَى الْآخِرَة سنة 615هـ / 1217م، ولغاية الأوّل من ذي الحجة سنة 624هـ/ 1227م[6].

3.1 أولاد المعظّم عيسى:

ذكر سبط ابن الجوزي أن للمعظّم عيسى ثلاثة من الأولاد الذكور، وهم الملك الناصر داوود وعبد العزيز ويقال له المغيث، وعبد الملك ويقال له القاهر، وللمعظّم من البنات تسع عشرة بنتاً[7].

وأسهب ابن واصل(ت697هـ/1297م) في ذكر أولاد المعظّم عيسى، حيث يروي أنه وُلدَ لهُ أولادٌ كُثُرْ مات بعضهم في حياته، وخَلَفَهُ أربعةٌ من الذكور مات أحدهم صغيراً بعده بقليل، أما الثلاثة الباقون، فيتفق ابن واصل بذكرِهم مع ما أوردَهُ سبط ابن الجوزي(ت 654هـ/1256م) عنهم، مع زيادةٍ في ذكرِ الألقابِ، وبيانِ أمهاتهم، فأكبَرَهم النّاصر صلاح الدين أبو المظفّر داود وكان يلقب بالملك الحاكم،

---

(1) سبط ابن الجوزي، مرآة ،ج8، ق2، ص 650.

(2) المصدر نفسه،ج8، ق2، ص644؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان،ج3، ص 494؛ الصفدي، الصفدي، الوافي،ج2، ص169.

(3) سبط ابن الجوزي، مرآة،ج8، ق2، ص 645.

(4) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص208.

(5) المصدر نفسه، ج4، ص208.

(6) الصفدي، الوافي، ج2، ص 171.

(7) ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص650.

وأمّهُ تركية عاشت بعد وفاة ولدها النّاصر بمدة طويلة وعُمِيَتْ في آخر عمرها، حفظت لابنها الكرك[1]، لما حاصر الملك الكامل دمشق سنة 626هـ/1229م[2]، والملك المغيث شهاب الدين عبد العزيز، وأمّه تركية، وهو أخ الناصر داود لأمّه كان جميل الصورة فيه شبه كبير من والده المعظّم عيسى، والملك القاهر بهاء الدين عبد الملك وأمه روميّة، وقد توفي بدمشق سنة 676هـ/1277م، وقد خلّف المعظّم عدة بنات، إحداهن زوّجها للسلطان جلال الدين بن خوارزم شاه[3]، ولم يتفق زفافها إليه أو دخوله بها[4]

---

(1) الكرك: اسم لقلعة حصينة جدّاً في طرف الشام من نواحي البلقاء في جبالها بين أيله وبحر القلزم وبيت المقدس وهي على سن جبل عال تحيط بها أودية إلا من جهة الربض، والكرك حاليا تقع إلى الجنوب من عمان على بعد 139كم تقع ضمن نواحي البلقاء في طرف الشام، وقصبتها تنقلت بين مآب وزغر؛ انظر البكري: أبو عبيد عبد الله الأندلسي (ت 487هـ / 1094م)، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ط3،4 أجزاء،ج4، ص1169، عالم الكتب، بيروت،1983م. وسيشار إليه فيما بعد، البكري، معجم ما استعجم؛ الحموي، معجم،ج4، ص453؛ الذيب، منير، معجم أسماء المدن والقرى في بلاد الشام الجنوبية(سورية–الأردن) دارسة لغوية تاريخية إحصائية جغرافية، دار العرّاب للدراسات والنشر والترجمة، ودار نور للدراسات والنشر والترجمة، دمشق،2011م، ص 286. وسيشار إليه فيما بعد الذيب، معجم الأسماء والمدن والقرى؛ خريسات، محمد عبد القادر، تاريخ الأردن منذ الفتح الإسلامي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، منشورات لجنة تاريخ الأردن، عمان،1992، ص53، وسيشار إليه فيما بعد، خريسات، تاريخ الأردن.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب،ج4، ص252.

(3) جلال الدين منكبرتي بن علاء الدين تكش خوارزم شاه، ظهر أمره بعد مسير التتر إلى همذان ووفاة والده سنة 621هـ/ 1224م، وقد حاول جلال الدين السيطرة على أملاك الخلافة العباسية ومهاجمتها والتوسع على حسابها. انظر ابن الأثير، الكامل،ج12، ص371؛ أبو شامة: شهاب الدين محمد عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المقدسي الشافعي(ت665هـ/1226م)، تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، تحقيق عزت العطار الحسيني، ط2، دار الجيل، بيروت، 1974، ص142. وسيشار اليه فيما بعد، أبو شامة، الذيل.

(4) ابن واصل، مفرج الكروب،ج4، ص219.

4.1 صفاته

جاءت المصادر الأوليّة مليئةً بالصّفات التي تمتّع بها المعظّم عيسى، فقد وصفه ابـن خلكـان(ت 681هـ /1282م) بالشـجاعةِ والإقـدامِ والحـزمِ فـي الأمـورِ، مهيـب الجانبِ، كريم النفسِ(1). وعدّهُ اليافعي(ت768هـ/1366م) من النجباء الأذكياء(2)، وقد تجسّدت هذه الصفات بحسنِ إدراكهِ للأمورِ وتدبيرها للوصولِ إلى مقصَدِهِ، فقد ورد عن كاتبهِ ووزيرهِ ابن عنين(3) أنهُ أصيبَ بمرضٍ منعَهُ من متابعة عملِهِ، فكتبَ للمعظّمِ عيسى قائلاً:

أُنْظُرْ إلَيّ بِعَيْنِ مَولىً لَمْ يَزَلِ. ..مَولَى النّدَى وَتَلافٍ قَبْلَ إتْلافِ

فَأنَا الّذِي أحْتَاجُ مَا تَحْتَاجُهُ.........فَاغْنَم ثَوابِيَ وَثَنَائِيَ الْوَافِيْ

فـأدرك المعظّـم عيسـى وضـعَ ابـنُ عنـين، فوَصَـلَهُ بنفسـهِ وأكرَمَـهُ بثلاثمائـةِ دينـار(4). وعُرف عنـه اللّـين وجمـال الصـحبة وإكـرام الأصـدقاء وإنصـافهم(5). وكـان

---

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، ص494.

(2) اليافعي: أبو محمد عفيف الدين عبد الله بن أسعد بن علي (ت 768هـ/1366م) مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، تحقيق خليل المنصور، ط1، 7 أجزاء، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1417هـ / 1997م،ج4، ص47. وسيشار إليه فيما بعد، اليافعي، مرآة الجنان.

(3) ابن عنين: أبو المحاسن محمد بن نهر الدين بن الحسين بن عنين الزرعي، من حوران توفيَ سنة 630هـ/1232م، كان كاتباً عند المعظّم عيسى، ثم وَليَ الوزارة آخر أيام المعظّم سنة 623هـ/ 1226م، وبقي وزيراً للنّاصر داوود ابن المعظّم عيسى، انظر سبط ابن الجوزي، مرآة،ج8، ق2، ص 645؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص240؛ الصفدي، الوافي،ج5، ص83؛ ابن تغري بردي: يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي أبو المحاسن (ت 874هـ/1469م)،النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة،16جزء، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر، ج6، ص 295. وسيشار إليه فيما بعد، ابن تغري بردي، النجوم.

(4) أبو شامة، الذيل، ص152؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان،ج3، ص 494؛ اليافعي، مرآة الجنان، ج4، ص47.

(5) أبو شامة، الذيل، ص152.

جباراً متسامحاً ليّناً[1]. وقد تجسّدَت هذه الصفات بحُسنِ تدبيرِهِ وتعامُلِهِ معَ قاطعِ الطريق قنديل[2] ورجالهِ. الذينَ نشروا الرعبَ في المناطقِ الواقعة بين بيسان[3] وأريحا[4]، حيث انتهى أمرهم بقبضِ المعظّم عيسى عليهم في بيسان، أثناءَ ذهابه مع

---

(1) المقريزي: أحمد بن علي بن عبد القادر أبو العباس تقي الدين (ت 845هـ/1441م)، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ط1،8 أجزاء، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، 1418هـ / 1997م،ج1،ص343. وسيشار إليه فيما بعد المقريزي، السلوك.

(2) قنديل: عُرفَ كقاطع طريق، استأثر بالأغوار من بيسان وشكّل عصابة من مائة شخص، وأخذ يضايق الناس ويهدد القوافل في تلك المنطقة، قبض عليه المعظّم عيسى وتاب وحسنت سيرته، وشارك في قتال الصليبيين. أبو شامة، الذيل، ص152.

(3) بيسان: تقع باتجاه الجنوب من طبرية على بعد 38 كم مقابل صفورية، ضمن أراضي الغور من جند الأردن، غربي نهر الأردن وتبعد عنه 6كم، وتمتاز بيسان بخصوبة تربتها وبساتينها، وتنتشر في ربوعها أشجار النخيل، وهي سقيثوبولس إحدى المدن الرومانية العشر، ولها قلعة صغيرة من بناء الفرنج يحيط بها الماء من سائر جهاتها، ويُعبر إليها على جسر. الزمخشري: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد (ت 538 هـ/1134 م)، الجبال والأمكنة والمياه، تحقيق أحمد عبد التواب عوض، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1999 م، ص61. وسيشار إليه فيما بعد، الزمخشري، الجبال والأمكنة؛ وانظر الحموي: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الرومي (ت: 626هـ/ 1228 م)، معجم البلدان، ط2،7اجزاء، دار صادر، بيروت،1995م،ج1، ص165. وسيشار إليه فيما بعد، الحموي، معجم؛ وانظر جونز،أ. هـ. م، مدن بلاد الشام حين كانت ولاية رومانية، ترجمة إحسان عباس، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان،1987، ص 66. وسيشار إليه فيما بعد، جونز، مدن بلاد الشام.

(4) أريحا: مدينة في الغور من أرض الأردن بالشام، وكانت تمثل قصبة كورة جبال الغور، وهي من أجمل بقاع الغور، وتنمو حولها أشجار النخيل، وقد حظيت أريحا بزيارة الرّحالة الروسي دانيال الراهب الذي وصفها بقوله: "أريحا مدينة واسعة، تتسم الأرض حولها بالخصوبة والإنتاج. انظر الراهب، دانيال، رحلة الحاج الروسي دانيال الراهب في الديار المقدسة 1107/1106، تحقيق سعيد البيشاوي وداود أبو هدبة، عمان، 1992، ص 71. وسيشار إليه فيما بعد، الراهب، رحلة؛ الحموي، معجم،ج1، ص527.

رجاله من دمشق إلى القدس، فساقهم إلى القدسِ. وأمرَ بشنقِ زعيمهم قنديلْ[1]. غير أنّ قنديل طلب العفو من المعظّم ووعده بأن يجتهد في قتال الفرنج إلى جانبه، فعطف عليه المعظّم وأطلق سراحه، فنزل قنديل إلى الغور، وأقام به وحافظ على أمن الطريق وحفظ الأموال[2]، وقصدَ الفرنج ونازلهم في حصن الطّور[3] واستبسل في قتالهم حتى استشهد، وكان قد أظهر شجاعة في قتالهم[4]،وأثبت فيها صدق وعده الذي قطعه على نفسه للمعظّم جراءَ العفو والتسامح الذي لقيه منهُ.

وامتازَ المعظّم عيسى بالتواضع، فلم يكن يهتم بما يشغل الملوك من أبهة المُلك والتعظيم والمدح، وكان يَنهى نوّابه على إمرة الحج الشامي عن مزاحمة الملوك في نصب أعلامهم على جبل عرفات. ويأمرهم بوضعه بجانب المِحمَل[5] وتحت الجبل[6]، وكان يأنف ركوب السناجق السلطانية[7]، بينما يركب وعلى رأسه كلوتة

---

(1) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج 8، ق2، ص651.

(2) المصدر نفسه ، ج 8، ق2، ص651.

(3) حصن الطور: يقع بالقرب من عكّا، ويعد ابرز الحصون والقلاع التي بنيت في عهد المعظّم عيسى، وكان قد باشر بناءها أثناء تولّيه نيابة دمشق عن والده، وقد كلّف بناء الحصن أموالاً طائلةً، وقد اضطرّ المعظّم عيسى إلى هدمه خوفاً من سيطرة الفرنج عليه، انظر الزمخشري، الجبال والأمكنة، ص181؛ المقريزي، السلوك، ق1، ج1، ص 24.

(4) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج 8، ق2، ص651. للمزيد من المعلومات حول مصور بلدان الجزيرة الشامية انظر المخطط رقم(4) في قائمة الملاحق.

(5) المِحمَل: آلة كالمحفّة إلا أنه يحمل على أعلى ظهر الجمل بخلاف المحفّة فإنها تحمل بين جملين أو بغلين، انظر القلقشندي: احمد بن علي بن احمد الفزاري (ت 821هـ/1418م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء،5 جزاء، دار الكتب العلمية، بيروت،ج2، ص145. وسيشار إليه فيما بعد، القلقشندي، صبح الأعشى.

(6) ابو شامة، الذيل، ص155.

(7) السناجق: المفرد منها سنجق، وهو لفظ تركي يطلق على الرمح، حيث كانت العادة يركب السلطان في المواكب زمن السّلم والسناجق رايات صفر صغار، وأوّل من حمل السنجق على رأسه من الملوك في ركوبه الأمير غازي بن زنكي، وهو أخو السلطان نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام، انظر القلقشندي، صبح الأعشى،ج4، ص7.

صفراء[1] بلا شاش[2].

وكان المعظّم عيسى يتجول في الأسواق دون أن يمارس عادة طرق الأيدي[3] التي جرى عليها ملوك عصرهِ، حتى أصبح يضرب به المثل في عدم التكلف بفعل شيء ما فقيل: فعله بالمعظمي[4]. ويذكر ابن واصل(ت697هـ/1297م) عن تواضع المعظّم عيسى عندما شاهده "ببيت المقدس في ثلاث وعشرين وستمائة، والرجال والنساء والصبيان بالجامع الأقصى يزاحمونه ولا يردّهم أحد عنه"، ويضيف "أنّ هذا المسلك لم يسلكه أحد من أهل بيته ولا غيرهم، ولما كثُر منه ذلك أصبح يضرب به المثل"[5].

وبلغت جرأة المعظّم عيسى وإقدامه أن دخلَ متخفياً بزي بائع زيتٍ إلى مدينة عكا، وهي في يد الفرنج لكشف أحوالها، وأقام فيها عدة أيام ورهن خاتمه عند أحد تجارها، ولما عادَ إلى دمشق بعث إلى ملك الفرنج يخبره بما حصل ويطالبهُ بفك رهن خاتمه، فلما علِمَ ملك عكا ثارَ وغضب[6].

---

(1) كلوتة: جمعها كلوتات وهي غطاء للرأس يلبس وحده أو بعمامة استحدثها بمصر السلاطين الأيّوبيين وكانت ملوك بني أيّوب يلبسون كلوتة صفراء بغير عمامة ولذلك تراهم يطلقون على أرباب الأقلام المتعمّمين مقابل أن الجند كانوا بغير عمائم، انظر القلقشندي، صبح الأعشى،ج1،ص474.

(2) ابو شامة، الذيل، ص152.

(3) طرق الأيدي: وهي عادة جرى عليها ملوك بني أيوب، تقوم على التصفيق أثناء المرور بالأسواق لتفقدها، انظر سبط ابن الجوزي، مرآة، ج 8،ق2، ص651.

(4) أبو الفدا: الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل بن عمر صاحب حماة(ت732هـ/1331م) المختصرفي أخبار البشر، مجلدان، دار الكتاب اللبناني، بيروت،1960، م2، ص36. وسيشار إليه فيما بعد، أبو الفدا، مختصر.

(5) ابن واصل، مفرج الكروب،ج4، ص211.

(6) ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري الدمشقي(ت 774 هـ/1372م) البداية والنهاية، 15جزء، دارالفكر،1407هـ/1986م،ج13، ص121. وسيشار إليه فيما بعد، ابن كثير، البداية والنهاية. للمزيد من المعلومات حول مصور بلدان الجزيرة الشامية انظر المخطط رقم(4) في قائمة الملاحق.

وكان المعظّم عيسى محباً لأخوته، ويدَاري أخويه الملك الكامل[1]، والملك الأشرف[2]، وكان يأمر أئمة المساجد بالخطبة والدعاء لأخيه الملك الكامل على منابر بلاده، ويمنعهم من ذكر اسمه معه[3]. وضَرب السّكة باسم الملك الكامل، وعلى الرغم من قلة عدد عساكر المعظّم غير أن إخوته كانوا يهابونه لميل العسكر إليه ومحبتهم له.[4]

وأشارت بعض المصادر إلى أن المعظم عيسى كان يشرب الخمر، ويحاول إيجاد فتوى لذلك، فقد طالب القاضي ابن فلوس[5] بإيجاد فتوى لإباحة شرب الخمر المصنوع من التمر والرمان، وكان يبذل الكثير لمن لا يشرب الخمر حتى يشربها[6].

يشربها[6].

والروايةُ فيها مبالغةٌ في صحة خبرها، فشرب الخمر هنا ممكن، لكن أن يبذلَ المعظّم العطاء حتى تُشرب الخمر، فهذا من غير المعقول.

---

(1) الكامل: أبو المعالي محمد بن أبي بكر الملقب الملك الكامل ناصر الدين صاحب الديار المصرية. خطب له أخوته وأهل بيته في بلادهم، وضربوا السّكة باسمه؛ وكان محبوباً إلى الناس مسعوداً مؤيداً في الحروب، انظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص89؛ ابن كثير، البداية والنهاية ،ج13، ص121.

(2) الأشرف: أبو الفتح موسى ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب، الملقب الملك الأشرف مظفر الدين؛ أول شيء ملكه من البلاد مدينة الرّها، سيّره إليها والده من الديار المصرية في سنة ثمان وتسعين وخمسمائة، ثم أضيفت إليه حرّان، انظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5،، ص330.

(3) ابن واصل، مفرج الكروب،ج4، ص211.

(4) ابن واصل، مفرج الكروب،ج4، ص211.

(5) ابن فلوس: إسماعيل بن إبراهيم القاضي شرف الدين الشيباني الدمشقي الفقيه الحنبلي كان شيخاً حنفياً تولّى نيابة القضاء في دمشق توفي سنة627هـ،انظر الصفدي، الوافي،ج9، ص70.

(6) المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي (ت845هـ/1441م):كتاب المقفّى الكبير، تصنيف محمد اليعلاوي، ط1، دار الغرب الإسلامي،، بيروت، لبنان،1991، ص736. وسيشار إليه فيما بعد، المقريزي، المقفى.

ويرى الذهبي(ت 748هـ /1347م) أن شخصية المعظّم فيها خير وشر كثير سامحه الله"[1]. وما ورد عن المعظّم عيسى حول شربه للخمر وتشجيعه لشربها لا يتسقُ مع ما أورده ابن واصل(ت697هـ/1297م) عن سيرته، حيث ذكر أنه "كان عالماً فاضلاً متفنناً في الفقه، حسن القراءة، جيد الأداء حافظاً للقراءات العشر وطرقها[2].

وهنا تجدر الإشارة إلى أن هناك مصادرا أظهرت صفات سلبية لدى المعظّم، ومن ذلك ما أورده سبط ابن الجوزي(ت654هـ/1256م)، حيث أنكر على المعظّم اعتماده على النساء كجواسيس لنقل أخبار الصليبيين، وجاء هذا الإنكار ،لأنه مترافق مع إغداق المال الكثير على تلك النساء ،حيث عد سبط ابن الجوزي ذلك بمنزلة الإسراف في بيوت الأموال[3]، وقد علل المعظم عمله هذا بقوله: "أنا أفدي المسلمين بالشيء اليسير وأحفظ الخطير بالحقير"[4].

كما أنكر سبط ابن الجوزي أيضاً على المعظّم إعادة الضرائب، وفتح حوانيت الشّرب، والسّماح للعامة بشرب الخمر، بعد وفاة أبيه العادل، فبرّر المعظّم عيسى ذلك بضرورة سد حاجات الدولة الإسلامية من الأموال لتتمكن من القيام بواجباتها في التصدي للفرنج[5].

وتبرير المعظم عيسى هذا لا يعفيه من مسؤوليته تجاه دينه، إذ أن في ذلك تعدي على قواعد الشريعة الإسلامية، وفي ذلك إباحة لما حرم الله بحجة جمع المال لمواجهة الفرنج.

ويتفق النويري(ت733هـ/1332م) مع سبط ابن الجوزي، حيث يروي" ولمّا مات السلطان الملك العادل، أقرّ ولده- الملك المعظم- أحوال دمشق، على ما هي

---

(1) الذهبي، العبر،ج3، ص195.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب،ج4،ص210-212.

(3) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص570.

(4) المصدر نفسه،ج8، ق2، ص647.

(5) المصدر نفسه،ج8، ق2، ص597.

عليه في أيّام والده، بقية جمادى الآخرة من سنة 616هـ. فلما استهل شهر رجب، أعاد المكوس[1] وأطلق الخمور والمنكرات، وما كان والده السلطان قد أبطله. فقيل له في ذلك، فاعتذر بقلة الأموال وقتال الفرنج"[2].

ويُظهِرُ النويري(ت733هـ/1332م) البطش عند المعظّم، وذلك في معرض حديثه عن تخريب القدس، حيث يروي ما نصّه" كان ابتداء الخراب بالقدس في بكرة يوم الأحد سابع المحرم، سنة ست عشرة وستمائة. وسبب ذلك أن الملك المعظّم لمّا توجّه إلى أبيه الملك العادل، بلغهُ أنّ طائفة من الفرنج قد عزموا على قصد القدس. فاتفق مع جماعة من الأمراء على إخرابه. وقال: قد خلا الشّام من العساكر، فلو أخذه الفرنج حكموا على دمشق وبلاد الشام. فأمر بإخرابه. وكان بالقدس الملك العزيز عثمان[3]، وعز الدين أيبك[4].

وقد لا يمثّل هذا الأمر بطش المعظّم عيسى كما تصفَهُ المصادر، لأنّ رؤيتهُ وتخطيطهُ العسكري كان يتطلّب منه اتخاذ مثل هذا الإجراء، تحسّباً لأي غزو للفرنج

---

(1) المكوس: ضريبة كانت تفرض على التجارة، والمَكس الضريبة يَأْخُذهَا المكّاس مِمَّن يدْخل الْبَلَد من التُّجَّار، انظر إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، دار الدعوة، ج2، ص881. وسيشار إليه فيما بعد، مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط.

(2) النويري: أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين (ت 733هـ/1332م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط1، 33 جزء، 1423هـ،ج29، ص86. وسيشار إليه فيما بعد، النويري، نهاية الأرب.

(3) الملك العزيز عثمان: العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان ابن صلاح الدين الأيوبي كان نائباً عن والده في مصر، أنظر المقريزي، السلوك، ق1،ج1،ص 114؛ وانظر ابن إياس: محمد بن أحمد(ت930هـ/1523م)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،1983، ق1، ج1، ص250. وسيشار إليه فيما بعد، ابن إياس، بدائع الزهور.

(4) عز الدين أيبك: مملوك الملك المعظم عيسى، اقطعه صرخد وبقي فيها حتى انتزعها منه الملك الصالح نجم الدين أيوب، حيث اعتقله ونقله للقاهرة وبقي هناك حتى وفاته عام646هـ/1228م، انظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص235- 236.

قد تكون نتيجتهُ الاستيلاء على القدس، واتخاذها نقطةَ انطلاقٍ على بلادهِ في دمشق وشرق الأردن، هذا فضلاً عن أن رؤيتهُ العسكرية في تهديم أسوار مدينة القدس وحصونها يمنحهُ فرصة سهولة استردادها، إذا ما تم الاستيلاء عليها من قبَلِ الفرنج.

غير أنّ العامةَ لا يدركونَ ما يصبو إليه المعظّم في تخطيطه العسكري، وينظرون للأمرِ من الناحيةِ الدينيةِ، حيثُ تُمثّل القدس رمزاً للأمةِ الإسلامية النابعةِ من مكانتها الدينيةِ، ولذلك بالغت المصادر في ردة الفعلِ عند العامةِ على الإجراء الذي اتخذهُ المعظّم، فوصفَ النويري (ت733هـ/1332م) الأمر بقوله: "ووقع في البلد ضجة عظيمة. وخرج الناس أجمع، حتى البنات المخدّرات والعجائز والشيوخ وغيرهم، إلى الصخرة والأقصى، فقطعوا شعورهم ومزقوا ثيابهم. وخرجوا على وجوههم وتركوا أموالهم. وامتلأت بهم الطرقات، فمنهم من توجّه إلى الديار المصرية، ومنهم من توجّه إلى الكرك، وبعضهم إلى دمشق. وصارت البنات المخدّرات يمزقن ثيابهن، ويلففنها على أرجلهن من الحفا، ومات خلق كثير من الجوع والعطش. ونهب ما كان لهم بالقدس، حتى بِيعَ قنطار الزّيت بالقدس بعشرة دراهم، ورطل النحاس بنصف درهم. وأكثر الشعراء القول في ذلك، فقال بعض أهل العلم- يشير إلى الملك المعظّم- من أبيات:

فِيْ رَجَبٍ حَلّلَ الحِمْيَا. ..وأَخْرَبَ القُدْسَ فِيْ المُحَرّمِ!" [1]

ولا تخلو صفات المعظم عيسى من البطش بمعارضيه والخارجين على سلطته، فقد أمرَ نائبهُ على دمشق بالقبضِ على ابن الكعكي[2] وأتباعهُ، لأنهم أثاروا الفوضى والفساد بين الناس ونهبوا بساتينهم، وبعثوا إلى الملك الصالح إسماعيل[3]

---

(1) النويري، نهاية الأرب، ج29، ص93-94.

(2) ابن الكعكي: كان له جماعة وأتباع وكانوا ينزلون على الناس في البساتين، ويقتلون وينهبون، والمعظم وقتها بالكرك، فكتب لنائبه بدمشق فصلبهما حتى ماتا. النويري، نهاية الأرب، ج29، ص132.

(3) الصالح اسماعيل: الملك الصالح اسماعيل بن العادل وأخو المعظّم، كان على بُصرى أوصى الملك الأشرف له بحكم دمشق بعد وفاته، فحكمها حتى عام 643هـ/1244م، انظر ابن واصل، مفرج الكروب، ج5، ص348-350.

يخبرونه بأنّهم قادرون على أخذ دمشق وتسليمها له، وكان المعظّم وقتها في الكرك، فبعث الملك الصالح إلى المعظّم يخبره بأمرهم، فقبضَ عليهم نائب المعظّم على دمشق وصلبهم منكّسين في العشر الأواخر من شهر رمضان، فصُلبوا أياماً لا يجسر أحدٌ أن يطعمهم أو يسقيهم حتى ماتوا[1].

تبدو صفات المعظّم عيسى خليطاً من المتناقضات، فتارةً تقدّمه المصادر على أنّه ورعٌ تقيٌ مجاهدٌ حافظٌ لكتاب الله على القراءات العشر، وتارةً أخرى تقدمه المصادر على أنه شارب للخمر مشجعاً على شربها، فارضًا للضرائب منفقاً لمال خزينة الدولة بشكل جعل مقرّبيه ينتقدونه على طريقة الإنفاق، بل وينتقدون تبريراته لسبب الإنفاق، ولعلّ مواقف المعظّم عيسى اعتمدت على ظروف الدولة، وعلى الأحداث التي مرت بها، فأعطى لنفسه الحق في تصرّفاته وتبريرها ،حتى ولو كانت على حساب الدّيْن بحسبِ قناعاتهِ هو وتقديرهِ للأمور.

5.1 شيوخه

كان المعظّم عيسى يمثّل النتاج الفكري للحقبة التي عاش فيها، إذ استمدّ ثقافته بشكل أساس من شيوخه الذين تربّى وتأدّب عليهم ، فكان كغيره من أبناء الملوك في الحرصِ على أخذِ العلم، وأبرز الشيوخ الّذين تربّى على أيديهم الشيخ تاج الدين أبو اليمن زيد بن الحسن الكندي[2]، وقد أخذ عنه المعظّم النحو والأدب ، كما قرأ على يديه كتاب سيبويه[3]، وذكَرَ ابن واصل(ت697هـ/1297م)، أنّه وقفَ على

---

(1) النويري، نهاية الأرب، ج29، ص132.

(2) تاج الدين الكندي: ولد الكندي سنة 520هـ/1127م وقد أكمل القراءات العشر بالعاشرة من عمره، وقد سكن دمشق وقصده طلبة العلم وأولاد الملوك، كان حنبلياً ثم غيّر مذهبه إلى الحنفية، وتقدم في هذا وتوسع فيه، انظر أبو شامة، الذيل،ص95؛ الصفدي، الوافي،ج3، ص52.

(3) كتاب سيبويه: أحد أهم مؤلفات اللغوي البصري سيبويه، ويعد أول كتاب منهجي ينسّق ويدوّن قواعد اللغة العربية. أُلِّفَ الكتاب في القرن الثاني للهجرة الموافق للثامن من الميلاد. سمي بالكتاب لأن مؤلفه تركه دون عنوان. ومن المقطوع تاريخياً أنّ سيبويه لم يسمّه باسم

نسخةٍ من كتاب سيبويه، وعليها خط الملك المعظّم[1]، وهذا يعكس صورة الملك المعظّم عيسى كحاكمٍ مستنير، بالنظر إلى حجم ثقافته وسعة اطّلاعهِ وحبّه للعلم والعلماء، وحرصه على مجالستهم والاستماع لهم.

ودَرس المعظّم عيسى الفقه على المذهب الحنبلي على الشيخ والإمام جمال الدين الحصري[2]، وكان للحصري أثرٌ واضحٌ في ثقافةِ المعظّم[3]، وقد تردّد المعظّم الى الشيخين الكندي والحصري في معظم الأوقات، حتى كان يأتيهما ماشياً[4].

ودَرس الحديث إسناداً ومتناً ومعانيَ على الشيخ الحافظ عز الدين محمد بن عبد الغني المقدسي[5] ،وقد صاحبه المعظم، وسمع من قراءاته الكثير، وأخذ عنه الخط وجالسه بحلقاتِ علمِهِ في دمشق[6]، ومن شيوخه عمر بن طبرزد[7] وأبو علي حنبل البغدادي[8].

معين، أنظر الفيروزآبادى، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب(ت817هـ/1318م)، البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، جزء = واحد،ج1، ص221، رقم الترجمة 256، 1421هـ/ 2000م. وسيشار إليه فيما بعد، الفيروزآبادى، البلغة.

(1) ابن واصل، مفرج الكروب،ج4، ص210.

(2) جمال الدين الحصري: أحمد بن عبد السيد البخاري الحنفي (ت636هـ/1238م)، تفقّه على مذهب الإمام أبي حنيفة ببخارى، وهو أحد المتقدّمين في معرفة مذهب أبي حنيفة، انظر ابن كثير، البداية والنهاية،ج14، ص4.

(3) المصدر نفسه ،ج14، ص4.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج10، ص425.

(5) عزالدين المقدسي: ولد سنة 566هـ/1170م وسكن دمشق، كان حافظاً للحديث، حسن الخط، سمع المعظّم منه الحديث اسناداً ومتناً ومعانيَ، انظر أبو شامة، الذيل،ص99.

(6) أبو شامة، الذيل، ص100.

(7) عمر بن طبرزد: عمر بن محمد بن معمر بن يحي المعروف بأبي حفص طبرزد البغدادي الدارقزي ولد 515هـ/1121م وتوفي 607هـ/ 1211م وله أثرٌ في ثقافة المعظم انظر، ابن كثير، البداية والنهايةج13،ص61.

(8) ابو علي حنبل البغدادي: أبو عبدالله ابن الفرج، المكبّر لجامع الرصافة، سمع المسند من ابن الحصين، أنظر أبو شامة، الذيل،ص62.

وقد أبرزت المصادر الأولية ثقافة المعظّم عيسى الدينية والأدبية، والقارئ لسيرتهِ لا يمكن له إغفال ثقافته في الحُكمِ والسياسةِ، والرّاجح أنها نتاج خبرةٍ تولّدت لديه، من خلال ممارسته للحكم نيابةً عن والده الملك العادل، المتمرّس في السياسة والحكم، غير أنّ المعظّم لم يتبع نهج والده في حقلي السياسة والحكم، كما سيظهرُ في الدراسة.

وقد ذكَر ابن واصل (ت697هـ/1297م) نصاً أشارَ فيه إلى ثقافة المعظّم عيسى الدينية والأدبية، حيث قال:" ولمّا قدِمَ الملك المعظّم –رحمه الله– القدسَ الشريف سنة ثلاث وعشرين وستمائة، جلسَ خارج الصخرةِ الشريفة، واستدعَى جماعةَ الفقهاءِ واستدعى والدي– رحمه الله– وباحثهم في مسائل لغويةٍ وفقهيةٍ، ومما سألَ عنهُ المعظّم يومئذٍ أنّه كيفَ وردَ في القراءاتِ السّت، أعني ما عدا قراءة أبي عمرو بن العلاءِ "إنّ هذانِ لسَاحِرانْ"[1] وهذهِ القِراءَةُ هيَ المطَابقةُ لخطّ مصحف الإمامِ، ومن شأَنِ إنَّ أنْ يَنْتَصِبَ ما بعدَهَا، فقال بعضهم: إنّ هَا هُنَا بِمعنَى نَعَمْ كما فِي قولِ الشّاعر:

وَيَقُلْنَ شَيْبٌ قَدْ عَلَاكَ وَقَدْ كَبُرْتَ فَقُلْتُ إِنّهُ

أَيْ نَعَمْ، فأَجابَ هذا القائِل بَعْضَهُمْ: إنّ هذا القولُ يُعكّرُ عليهِ ورودَ اللاّمِ في الخبرِ، فإنّه لا يُقال "نَعَمْ زَيْدٌ لَقائِمٌ "،فَقَالَ السلطانُ– رحمَهُ الله– "لا يُعَكّرُ عليهِ، بلْ جازَ أنْ تأتِي هذه اللّام رعايةً للفظِ إنّ فإنّه يَقتضِي جوازُ وقوعِ اللاّمِ في الخَبرِ، ورعايةَ اللّفظِ واعتبارهِ قد جاءَ كثيراً، يقولون يا زيدُ الظريفَ، فيراعونَ اللّفظَ، ويحملونَ عليهِ، وإنْ كان زيدٌ منصوباً في التقديرِ، فاستَحسَنَ الجماعةُ هذا الجوابَ منَ السلطانِ وأطْنَبوا في الثناءِ عليهِ[2]. وإن صحّت هذه الرواية يكون الملك المعظّم عيسى ذا ثقافة ومعرفةٍ واسعتين في اللغة العربية، ولعلّ أهمية ذلك تبرز باعتبار أنّ لغتهُ الأم هي الكردية وليست العربية.

وقد أثنت المصادر على المعظّم عيسى اهتمامه بالعلم والعلماء والفقهاء والأدباء، حتى أصبح مقصداً لهم ومقرّ دار، ولم يمنعهُ الغزوَ من القيام بمهامّه

---

(1) سورة طه، آية 63.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص213.

تجاهم، فَحقّ لابن الأثير أن يقول: ":" ونفق العلم في سوقهِ وقصدهُ العلماء من الآفاق فأكرمهم وأجرى عليهم الجرايات الوافرة وقرّبهم، وكان يستفيد منهم ويفيدهم".[1]

أما أبو شامة، وهو شاهد عيان فيقول في المعظّم: "وتفرّد الملك المعظّم من بين الملوك بالجمع بين مواظبة الغزو، والاشتغال بأنواع العلوم، والحجّ إلى الحرمين بنفسه"[2].

6.1 ثقافته الدينية

حفظ المعظم عيسى القرآن الكريم وبرع في الفقه[3]، وشرح الجامع الكبير في عدة مجلدات، وسمع مسند ابن حنبل بدمشق، وأمَرَ بترتيبهِ[4]، وسمعَ سيرة ابن هشام بمصر[5]، واشتغل في الفقه على مذهب أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه[6]، وبرعَ في اللغة والنحو[7]. وكان محفوظه مفصّل الزمخشري، وكان يَصِلُ من يحفظهُ بثلاثين دينارا[8]، وأمرَ أن يُجمعَ له كتاب في اللغة يشتمل على صحاح الجوهري والجمهرة لابن دريد والتهذيب للأزهري[9]، وكان يحب العلماء والفقهاءِ ويكرِمَهم[10]،

(1) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص374.

(2) أبو شامة، الذيل، ص110؛ وانظر حلمي، أحمد محمد، مصر والشام والصليبيون، ط2، القاهرة،، 1402هـ/1982م، ص195، وسيشار اليه فيما بعد حلمي، مصر والشام.

(3) الذهبي، العبر،ج3،ص194.

(4) المصدر نفسه، ج3، ص194.

(5) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص73.

(6) الحنبلي: عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري (ت1089هـ/1679م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق محمود الأرناؤوط، وخرّج أحاديثه، عبد القادر الأرناؤوط، ط1،11 جزء، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، 1406هـ/ 1986م،ج7: ص104.وسيشار إليه فيما بعد، الحنبلي، شذرات الذهب.

(7) الصفدي، الوافي،ج15، ص33.

(8) ابن الأثير، الكامل، ج10، ص 425،426.

(9) المصدر نفسه،ج10، ص426.

(10) المصدر نفسه، ج9، ص374.

ويحرص على حضور دروسهم ومجالستهم[1]، واصبح لاتّساع ثقافته يحاضر الفقهاء الفقهاء والعلماء ويباحثهم في أدق تفاصيل العلوم[2]، وقد بدا المعظّم متأثراً في مذهب أبي حنيفة بشكلٍ واضح[3]، وكان يجتهد في متابعة الخير[4] ويقول: أنا على على عقيدة الطحاوي[5] وأمرَ عند وفاته ألا يكفّن إلا في البياض، وأن يلتحد له وأن يدفن في الصحراء ولا يُبنى عليه[6].

7.1 ثقافته الأدبية

أخذ الأدب جزءاً كبيراً من اهتمامات المعظّم، وشغل حيزاً كبيراً في حياته، ولعلّ تاج الدين الكندي من أبرز شيوخه في الأدب[7]، فقد قرأَ المعظّم عيسى عَلَيْهِ سِيبَوَيْهٍ سِيبَوَيْهٍ متناً وَشَرحاً[8]، والحماسة والإيضاح، وكَانَ يَأْتِي من القلعة ماشياً إِلَى درب الْعَجم[9].

---

(1) الحنبلي، شذرات الذهب،ج7، ص105.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص374.

(3) الحنبلي، شذرات الذهب، ج7، ص 104.

(4) المصدر نفسه،ج7، ص 105.

(5) الطحاوي: أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك الأزدي الطحاوي، الفقيه الحنفي، انتهت إليه رياسة أصحاب أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه بمصر ولد سنة تسع وعشرين ومائتين وتوفي سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة ونسبته إلى طَحَا، بفتح الطاء والحاء المهملتين، وبعدهما ألف، وهي قرية بصعيد مصر، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص71

(6) ابن الأثير، الكامل،ج10، ص425.

(7) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص645؛ ابن واصل، مفرج الكروب،ج4، ص 210؛ ابن تغري بردي، النجوم،ج6، ص 21.

(8) الصفدي، الوافي، ج15،ص33؛ ابن تغري بردي، النجوم،ج6، ص211.

(9) درب العجم: وتسمى كذلك درب الأعجام وهي مسلك في دمشق تقع إلى الشرق من باب الجامع الأموي من الجهة الشرقية، انظر ابن شداد: عز الدين أبو عبدالله محمد بن علي بن

والمجلّد تَحت إبطه[1].

وقد بيّن ابن واصل اهتمام المعظّم عيسى بكتاب سيبويه، حيث ذكر أنه وقف على نسخة منه، وعليها خط الملك المعظّم في عدة مواضع أظنّها ستة، يقول في بعضها: أتممت هذا الكتاب مطالعةً ومراجعةً وأنا بمنازل مدينة ياسوف[2]، وفي بعضها يقول: أتممته مطالعة ومراجعة وأنا بنابلس"[3]. وقرأ المعظّم الشرح الكبير لكتاب سيبويه للسيرافي[4]. وقرأ الحجّة في القراءات لأبي علىّ الفارسي والحماسة[5].

ابراهيم الحلبي (ت684هـ/1234م) الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تاريخ لبنان والأردن وفلسطين، تحقيق سامي الدهان، 2 جزء، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، = دمشق، 1962م،،ج2، ص295. وسيشار إليه فيما بعد، ابن شداد، الأعلاق الخطيرة؛ جونز، مدن بلاد الشام، ص87.

(1) الصفدي، الوافي،ج15، ص33.

(2) ياسوف: بالسين المهملة، وبعد الواو فاء، قرية بنابلس من فلسطين توصف بكثرة الرّمان.،انظر الحموي، معجم، ج5، ص425؛ الدباغ، مصطفى مراد، بلادنا فلسطين،10 اجزاء، دار الهدى، حيفا،1991م، ج3، ص22. وسيشار إليه فيما بعد الدباغ، بلادنا فلسطين

(3) ابن واصل، مفرج الكروب،ج4،ص 210.

(4) السيرافي: أبو سعيد الحسن بن عبد الله المرزبان السيرافي النحوي المعروف بالقاضي سكن بغداد وتولّى القضاء بها نيابةً عن أبي محمد ابن معروف، وكان من أعلم الناس بنحو البصريين، وشرح كتاب سيبويه فأجاد فيه، وله كتاب " الفات الوصل والقطع "، وكتاب " أخبار النحويين البصريين "، وكتاب " الوقف والابتداء "، وكتاب " صنعة الشعر والبلاغة "، و" شرح مقصورة ابن دريد "، وقرأ القرآن الكريم على أبي بكر ابن مجاهد، واللغة على ابن دريد، والنحو على أبي بكر ابن السراج النحوي، انظر ابن خلكان، وفيات، ج2، ص78؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج6،ص267.

(5) أبو علي الفارسي: أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار بن محمد بن سليمان بن أبان الفارسي النحوي؛ ولد بمدينة فسا واشتغل ببغداد، ودخل إليها سنة سبع وثلاثمائة، وكان إمام وقته في علم النحو، توفي سنة 377هـ/987م، انظر ابن خلكان، وفيات،ج2، ص 80؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص12؛ ابن تغري بردي، النجوم،ج6، ص267.

كما قرأ عليه الإيضاح حفظاً[1]، ولم يقف المعظّم عند الاهتمام بالأدب فحسب، بل تعدى اهتمامه إلى التصنيف بالعروض، واشتغل بالنحو حتى تميّز في هذا المجال[2]، وقد تعدّى اهتمامه بالشعر قراءةً إلى تذوقه ونظمه، وله ديوان شعري يحمل اسمه[3]، غير أنّ ما يؤخذ عليه في هذا الجانب أنه عديم الالتفات الى وزن الشعر[4]، حيث يقول في ذلك سبط ابن الجوزي "كان لا يقيم وزناً للشعر في بعض الأوقات، فكنت أقول له: فيك ضربٌ من النبوة، وما علمناه الشعر".[5] ومن شعره قوله حينما أهدى له بهاء الدين ابن القيسراني[6] بعض ثمار قيساريّة[7] التي حارب فيها جندهُ جند الصليبيين وانتصروا عليهم، حيث كتب إليه بهاء الدين:

---

(1) ابن واصل، مفرج الكروب،ج4، ص 210.

(2) السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين (ت 911هـ/1505م) حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، 2 جزء، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر 1387 هـ /1967م، ج1،ص465، وسيشار إليه فيما بعد، السيوطي، حسن المحاضرة.

(3) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص645؛ النويري، نهاية الأرب،ج29، ص144. ورد خبر وجود ديوان شعر للمعظم عيسى في أكثر من مصدر، وكذلك تمت الإشارة إليه في بعض المراجع على أنه مطبوع وصادر عن دار السعادة بالقاهرة غير انني لم أوفّق في العثور على هذا الديوان.

(4) سبط ابن الجوزي، مرآة،ج8، ق2، ص645؛ النويري، نهاية الأرب،ج29، ص144.

(5) سبط ابن الجوزي، مرآة،ج8، ق2، ص645.

(6) القيسراني: محمد بن خالد بن نصر بن داغر بن عبد الرحمن بن المهاجر بن خالد بن الوليد المخزومي، الخالدي الحلبي الملقب بهاء الدين القيسراني، المعروف بابن القيسراني، انظر ابن خلكان، وفيات الأعيان،ج4، ص458.

(7) قيسارية: بالفتح ثم السكون، وسين مهملة، وبعد الألف راء ثم ياء مشددة: بلد على ساحل بحر الشام تعدّ في أعمال فلسطين بينها وبين طبرية ثلاثة أيام، وكانت قديماً من أعيان أمهات المدن واسعة، الرّقعة طيبة البقعة كثيرة الخير والأهل، وأصبحت في زمن ياقوت أشبه بالقرى منها بالمدن، وهي بلدة كبيرة تقع بين حيفا ويافا لها ربض عامر وحصن منيع حسن على ساحل بحر الشام، أنظر الحموي: معجم، ج4، ص421؛ وانظر الادريسي: محمد بن

يَا أيّها المَلكُ المُعظّمُ والّذِي أَضْحَتْ لَهُ الدّنيَا تَزُفُ عَرُوسَا

أولَيْتَنِي نِعَمَاً إذَا اظْهَرْتَها للنّاسِ اظهَرَ حَاسِدُوهَا البُوْسَا

فكتب اليه المعظّم:

يَا مَنْ تَفرّدَ بالفضَائِلِ دَائِباً ابداً يؤسّسُ مَجْدَهَا تأسِيسَا

لا زِلْتُ فِي دَرَجِ المَكَارِمِ رَاقِيَاً تَعْلُو وَرَبْعِكَ بِالثّنَا مَحْرُوسَا(1)

ومن أشعاره وقد مرض بالحمّى قوله:

زَارَتْ مُمَحّصَةَ الذّنُوبِ وَوَدّعتْ. ..تَبّاً لَهَا مِنْ زائِرٍ وَمُوَدّعِ

بَاتَتْ معانِقَتِي كأنّي حُبّهَا. ..وَمَقِيلُهَا وَمَبِيتُهَا فِي أضْلُعِي

قَالَتْ وَقَد عَزَمَتْ عَلَى تِرْحَالُها. ..مَاذَا تُرِيدُ؟ فَقُلتُ: ألاَ تَرجَعِي(2)

وله أيضا شعر في موت والده الملك العادل سنة 615هـ/1217م يقول فيه:

يَقُولُ أُنَاسٌ يَعْلَمُونَ فَضَائِلِي وَعِظَمَ ارتِيَاحِي للْمَكَارِمِ والمَجْدُ

ألا تَحْضُرَ المَرحُومَ فِي حَالِ دَفْنِهِ فَقُلْتُ وَلِي قَلْبٌ يُفَتّتُ بِالوَجْدِ

خَشِيتُ ارَى المَلِكَ والإسْلاَمَ والعُلَى وَبَذْلَ النّدَى وَالحُلمَ يُودَعُ فِي اللّحْدِ(3)

ومما يدلّ على مكانة الأدب عند المعظّم عيسى، أنّه كان عنده جماعةٌ من الفضلاء لا يفارقونه لا في سفر ولا في حضر، ومنهم فخر القضاة نصر بن براقة المصري، وكان بارعاً في فنون الأدب والنّظم والرسائل، ومنهم شرف الدين ياسين بن عنين الدمشقي كاتب الإنشاء وأصله من حوران وله النظم البديع، الذي لا يجاريه فيه أحد، وكان قد ولّاه الملك المعظم نظَر الدواوين بدمشق، وعلت مرتبته جداً عنده، ولما تقدّم به السن كتب للمعظّم يستعفِيَهُ من النّظر في الدواوين فقال:

أقِلْنِي عَثَارَى واحتَسِبْهَا صَنِيعَةً يَكُونُ بِرُحْمَاهَا لَكَ اللهُ جَازِيَا

محمد بن عبد الله بن إدريس (ت560هـ/1164م) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت، 1989 م،ج1، ص365. وسيشار إليه فيما بعد، الادريسي، نزهة المشتاق.

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص217،218؛ ويقول ابن خلكان:" وسمعت أشعارا منسوبة اليه ولم استثبتها أو أثبت شيئا منها" وفيات الأعيان،ج3، ص495.

(2) الحنبلي، شذرات،ج5، ص115.

(3) المقريزي، المقفى، ج8، ص739.

كَفَى حُزْنَاً انْ لَستُ تَرْضَى ولَا أرَى   فَتَىً رَاضِيَاً عَنّي ولَا اللهُ راضِيَا

وَلسْتُ أرْجِي بَعدَ سَبعِينَ حُجّةٍ   حَيَاةً وَقَد لَاقَيتُ مِنْهَا الدّوَاهِيَا

وَلا بُدّ أنْ القَى الرّدَى مِنْ مُصَمّمٍ   وَكَمْ يَتَوقَّى مَنْ تَخَطَّى الأفَاعِيَا[1]

ومنهم جمال الدين بن شيث[2] كاتب الإنشاء، وكان جيد الترسّل فاضلاً متأدباً، وكان مع ذلك مغرما بعلم الصّنعة(الكيمياء). وكان شرف الدين بن عنين كثير الهجاء، وكان الملك المعظّم يعجبه هجاؤه ويُضحكه[3]. فقال شرف الدين يوماً أبياتاً وهو في المعسكر المعظّمي، يُعرّض بجمال الدين كاتب الإنشاء وجماعة من أصحاب الملك المعظّم، ويذكر غرام جمال الدين بعلم الكيمياء[4]، وهجا مع ذلك نفسه فقال:

أنَا وابْنَ شِيثٍ فِي الخِيَامِ   وابْنَ النّفِيسِ وَذَا المُلّقِ الصّوفِي

لَا نَيْلُنَا يُرجَى ولَا اضْيَافُنَا   تُقْرَى ولَا نُرْجَى لِدَفْعِ مِخْوَفِ

ولما بلغ ذلك جمال الدين بن شيث، غضب وشكا ذلك للملك المعظّم فأحضر المعظّم ابن عنين، وأمرهُ ألا يعود للتعرّض لجمال الدين[5]، فقال: السمع والطاعة ثم أنشد قائلا:

كَذِبٌ كُلّ مَا ادّعَيتُ وَزُورُ   أنَا وَحْدِي زِيَادَةٌ فِي الخِيَامِ

---

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص218.

(2) جمال الدين بن شيث: عبد الرحمن بن علي بن الحسين بن شيث جمال الدين الأموي القرشي الأسناني القوصي، نسبة إلى أسنانة التي ولد فيها سنة 557هـ،أما وفاته فكانت سنة625هـ، تولى ديوان الإنشاء للمعظم عيسى، وكانت علاقته بالمعظّم عيسى حسنة وبينهما ودٌ ومداعبة، كما كان بارعاً في الإدارة وله كتاب بعنوان معالم الكتابة ومغانم الإصابة.، انظر أبو شامة، الذيل، ج2، ص375؛الصفدي، الوافي،ج8، ص375؛ النعيمي: عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي (ت 978هـ/ 1182م)، الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق إبراهيم شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، 1410هـ / 1990م،ج2، ص240. وسيشار إليه فيما بعد، النعيمي، الدارس.

(3) النعيمي، الدارس،ج2، ص240.

(4) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص218.

(5) المصدر نفسه ، ج4، ص218.

فأتى هذا الاعتذار بما هو أعظم من الأوّل، وأضحكَ الملك المعظّم وأعجبهُ[1]، وهذا يدلّ على شغفِ المعظّم عيسى بمجالس الأدب وحب المنادمة والندماء، وحب تجاذب أطراف الحديث مع الأدباء والشعراء[2].

8.1 مذهب المعظم عيسى

لا يُمكن الحديث عن ثقافة المعظم عيسى بِمعزلٍ عن مذهبه الذي كان محور ثقافته الدينية والفقهية، سيّما وأنّ المعظّم شديد التعصب لمذهب أبي حنيفة[3]، وقد بلغ المعظّم عيسى درجة كبيرة في الفقه الحنفي، حتّى أنّه ألّف كتاباً يرد فيه على ما ورد في كتاب تاريخ بغداد للشيخ الحافظ أبي بكر أحمد بن ثابت[4] من مَطاعِن على الإمام أبي حنيفة، وسمّى ذلك الكتاب "السهم المصيب في الرد على الخطيب"[5].

وقد امتدح ابن واصل الكِتاب هذا بقوله: "وأجاب الملك المعظّم في هذا الكتاب عن كل مَطعن بأحسنِ جواب، وذكر فيه مباحث جليلة دقيقة في الفقه والنحو، ووقفت على هذا الكتاب بالقدس الشّريف، وطالعته جميعه ووجدته في غاية الحسن، ثم ذكر في آخره مطاعن على الخطيب صاحب تاريخ بغداد، وروى أشعاراً غزلية طعن بسببها في عدالته، وقرر بها جرحه".[6]

---

(1) النعيمي، الدارس،ج2، ص240.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص218.

(3) المقريزي، المقفى ج1، ق1، ص224؛ الحنبلي، شذرات، ج5، ص115.

(4) الحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي بن ثابت البغدادي، المعروف بالخطيب، صاحب تاريخ بغداد وغيره من المصنفات، كان من الحقّاظ المتقنين العلماء المتبحّرين، ولو لم يكن له سوى التاريخ لكفاه،، وصنّف قريباً من مائة مصنّف، وفضله أشهر من أن يوصف وأخذ الفقه عن أبي الحسن المحاملي والقاضي أبي الطيب الطبري وغيرهما، وكان فقيهاً فغلب عليه الحديث والتاريخ توفي سنة 463هـ/1170م، انظر ابن خلكان، وفيات، ج1، ص92؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص218.

(5) ابن واصل، مفرج الكروب،ج4،ص212؛ المقريزي، السلوك،ج1،،ص216.

(6) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص 212.

وكان المعظّم عيسى ينكر بعنف خطأ المخطئين في المذهب الحنفي، لا سيّما إذا كانوا من العلماء، ومن هذا القبيل إنكاره على قاضي القضاة جمال الدين المصري[1] حُكماً حَكمَ به أغضبَ المعظّم، فقرر المعظم أنْ يُلْبسَ القاضي لباساً معيّناً فيه إهانةً له. ويُظهره على أنّه لا يصلح للعلم"[2].

أما في مجال الحديث، فقد أمرَ المعظّم عيسى بترتيب مسند أحمد بن حنبل على الأبواب، وردِّ كل حديث إلى الباب الذي يقتضيه. [3]

ومن مآثرِ المعظّم وأعماله لمذهبِهِ، أنّه بنى قبةً بالحرمِ الشريف، ووقف عليها وقفاً جليلاً، على أن يُشتغل في تلك القبة بالقراءات السّبع"، وشَرطَ ألا يصرف من وقفها شيئا إلّا للحنفيةِ فقط".[4] وقد وَلّى التدريس فيها للشيخ شمس الدين بن رزين البعلبكي[5].

---

(1) جمال الدين المصري: هو جمال الدين عبد الرحيم بن علي بن اسحق المصري القرشي، شغَل وظيفة كاتب للإنشاء بديوان مصر أيام الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين، وبعد ذلك توجه إلى دمشق وتسلّم وظيفة كاتب للإنشاء عند الملك المعظم عيسى، ثم تولى الوزارة للمعظم عيسى بعد ذلك، انظر ابن الشعار: كمال الدين أبو البركات المبارك بن الشعار = الموصلي(ت 654هـ/ 1257م) قلائد الجمان في فرائد شعر هذا الزمان، تحقيق نوري حمودي القيسي ومحمد نايف الديلمي، ط1، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، العراق، 1992، ج3، ص 325. وسيشار إليه فيما بعد، ابن الشعار، قلائد الجمان؛ وانظر ابن واصل، مفرج الكروب،ج4، ص211.

(2) ابن الشعار، قلائد الجمان،ج6، ص206.

(3) المصدر نفسه، ج6، ص206.

(4) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص؛ 647ابن واصل، مفرج الكروب،ج4، ص211؛ المقريزي، المقفى، ج 8، ص730.

(5) ابن الياس البعلبكي: محمد بن داود بن الياس أَبو عبد الله البعلبكي، المدعو شمس الدّين سمع الكثير من الشيخ الموفق وطبقته والشيخ تاج الدين الكندي وابن الزبيدي وحنبل وغيرهم وسمع عليهم ما لا يحصى وكان فيه ديانة وتحرِ في الشهادات والأقوال كثير الأَمانة والعدالة والعبادة، وهو من تلاميذ الشيخ تاج الدين الكندي. انظر الصفدي، الوافي، ج3، ص52.

ولم يقتصر تبنّي المذهب الحنفي على المعظّم عيسى فحسب، بل تبعه في ذلك أولادهُ[1]، وما يؤكّدُ تعصّبَ المعظّم لمذهبِ أبي حنيفة جوابَهُ عندما ناقشهُ العادل وسأله: "كيف اخترت مذهب أبي حنيفة وأهلك كلهم شافعية[2]؟! فكان ردّهُ سريعا لأبيه وعلى سبيل المداعبة: يا خوند[3] ألا ترضون أن يكون فيكم واحدٌ مسلم"[4]. وقد بلغ المعظّم عيسى في تعصبه لمذهبه الحنفي مبلغاً عظيماً، إذ وصل الأمرُ بهِ إلى عزلِ خطيب القدس لأنه شافعي المذهبْ، وعيّنَ مكانهُ حنفي المذهبْ[5].وأمرَ المؤذّنين ألّا يرفعوا أصواتهم في التكبير إلا خلفَ الإمام الحنفي الذي عيّنهُ. [6]

وجاءَ اهتمام المعظّم عيسى بالمذهب الحنفي عندما أمر بجمع مذهب أبي حنيفة في عشرةِ مجلدات وأطلق عليه اسم "التذكرة" وكان يَحملهُ معه أينما ذهب،

---

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، ص494؛ أبو الفداء، مختصر، م2، ص36؛ الحنبلي، شذرات،ج5، ص115.

(2) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص647؛ ابن واصل، مفرج الكروب،ج4، ص211؛ المقريزي، المقفى، ج 8، ص730.

(3) خوند: كلمة فارسية تعني سيد أو أمير أو مسؤول، انظر الدسوقي، ابراهيم، المعجم الفارسي الكبير، 3 أجزاء، بيت المغرب، القاهرة 1940/1941م، ج1، ص110. وسيشار إليه فيما بعد، الدسوقي، المعجم الفارسي؛ وانظر حسان حلّاق، وعبّاس صبّاغ، المعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية ذات الأصول العربية والفارسية والتركية، المصطلحات الإدارية والعسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والعائلية، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان،1999، ص 86. وسيشار إليه فيما بعد حلّاق وصبّاغ، المعجم الجامع

(4) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص211؛ الداواداري: أبي بكر بن عبدالله بن أيبك(ت736هـ/1335م)، كنز الدرر وجامع الغرر،9 أجزاء، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة،1391هـ/ 1997م،ج7، ص288. وسيشار إليه فيما بعد الدواداري، كنز الدرر؛ المقريزي، المقفى،ج8، ص730.

(5) المقريزي، المقفى،ج8، ص730.

(6) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص647؛ ابن واصل، مفرج الكروب،ج4، ص211؛ المقريزي، المقفى،ج 8، ص730.

فكان يطالعه ويكتب على كل مجلّد " أنهاه عيسى بن أبي بكر بن أيوب"[1]. وفي هذا الشأن يسأله سبط ابن الجوزي:" إنّ هذا الشيء ممكن أخذهُ عليك، لأن الحفظ يحتاج الى تفرغ، وأنت دائماً مشغول بتدبير أمور المملكة، فكيف لك حفظ هذه المجلدات؟! وهنا يأتي جواب المعظّم له: بأنّه لا يهتم بالحفظِ الحرفي للمواضيع بل يكفيهِ منها معانيها، ويبلغ الأمر بسبط ابن الجوزي أن يتحدّى المعظّم في قدرتهِ على الإجابةِ عن المسائلِ التي تحويها تلك المجلداتْ[2].

وعندما حجّ الملك المعظّم عيسى من دمشق، حجّ معه عدّة أمراء من أعيان دمشق، على مذهب أبى حنيفة واستمرّ على المذهب، وكلّمهُ والدهُ الملك العادل في العودةِ إلى مذهب الشافعيّ فلم يَقبلْ[3]، وقد أحيا في هذا الحج السنة وأحرمَ قارناً[4]،وباتَ بمنى ليلةِ عرفات، وصلّى بها الصلوات الخمسْ، ثم سار إلى عرفة، وقضى نُسكهُ كما أمرَ الله[5]، وذكرَ سبط ابن الجوزي في حجّ المعظّم عيسى أنهُ رأى "كَتِفَهُ بعد ما عاد، وقد أكلته الشمس وانكشطَ وفتحَ فقلت: ما هذا؟ قال: ما غطيت رأسي ولا كتفي منذ ثلاثة عشر يوماً".[6] وكان المعظّم كثيراً ما يردّد ويقول:" إنّ اعتقادي في الأُصول ما سطّرهُ أبو جعفر الطحاوي"[7].

---

(1) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص647؛ ابن واصل، مفرج الكروب،ج4، ص211؛ المقريزي، المقفى، ج 8، ص730.

(2) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص648.

(3) ابن تغري بردي، النجوم،ج6، ص 211.

(4) الحج القارن: يقصد به نيّة المسلم للحج والعمرة معا، والأحناف يفضلون الحج قارنا، انظر الزميلي، وهبة، الفقه الإسلامي وأدلته، دار الفكر، دمشق،1984، ص134وسيشار اليه فيما بعد الزميلي، الفقه الإسلامي.

(5) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص570؛ أبوشامة، الذيل، ص87.

(6) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص570.

(7) ابن الأثير،الكامل،ج2، ص472؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان،ج1، ص71؛ الذهبي، العبر، ج12، ص121.

وعلى الرغم من تعصّب المعظّم عيسى لمذهبِ أبي حنيفة إلا أنّه كان يُظهر التسامح حيالَ من يختلف معه، ويبدو ذلك واضحاً فيما أوردَهُ ابن واصل على لسان والده قائلاً:" سأل المعظّم عيسى والدي يوماً "أكان لمدينة المعرّةِ سور؟" فقال والدي:" نعم وإنّما الفرنج لما ملكوا المعرّة ثم استنقذها منهم اتابك زنكي الشهيد بن آق سنقر هدم سورها"، ثم ذكر له والدي واقعة جميلة فعلها أتابك- رحمه الله- مع المعريّين، وهي أنهم طلبوا أن يردّ عليهم أملاكهم التي بأيديهم قبل أن يملكها الفرنج، فرسَمَ بردّها إليهم، فقال الفقهاءُ إنّ من مذهبِ أبي حنيفة- رحمه الله- أنّ الكفارَ إذا أخذوا من المسلمين بلدةً وفيها أملاك للمسلمين ملكوها، فإذا فتح المسلمون تلك البلدة كانت تلك الأملاك لبيت المال، وحسّنوا لأتابك الاستيلاء على تلك الأملاك، وألا يردّها إلى مُلّاكِها لأنه حنفي المذهب، فقال أتابك:" لا والله، بل نردّها عليهم، إذا كنّا نأخذُ أملَاكهم، والفرنج يأخذون أملاكهم، فأيّ فرق بينَنَا وبين الفرنجْ"[1].

إنّ مذهب الملك المعظّم عيسى، صَبغ ثقافته الدينية، وكان لشيوخ المعظّم نفسه الأثر البالغ في اعتناقهِ للمذهب الحنفي، سيّما وأنّ اولئك الشيوخ من الأحناف، ولعلّ المعظّم نفسه أيضاً قد وجدَ في هذا المذهب مَداخلَ يَستطيعُ معها إباحةَ بعض الأمور والقضايا التي ترفضها المذاهب الأخرى.

9.1 ما قيل في المعظم من شعر ونثر

ساقت المصادر التاريخية والأدبية الكثير من الشواهد الشعرية، والقصائد التي نظمها الشعراء في مدح المعظّم عيسى، فقد نُظِمَت في مدحهِ قصيدة جاءَ في مطلَعِها:

حَمَى مِنْ أَوهَامِ الزّمَانِ عَلاَمَةً عَزِيزٌ إذَا مَا الدّهْرُ كَرّ جَفَاهُ[2]

فتعجّبَ المعظّم من قولِ كَرّ جَفَاهُ، وتزامنت هذهِ القصيدةُ مع توجّه المعظّم الى أخيه الكامل سنة سبع أو تسع وستمائة. وقيل في المعظّم قصيدة نَظمَها الشّاعر البدر بن

(1) ابن واصل، مفرج الكروب،ج4، ص214؛ وانظر سبط ابن الجوزي، مرآة،ج8، ق2، ص645.

(2) المصدر نفسه ،ج8، ق2، ص645.

المسجف[1]، حينما طالبه صاحب دار الزكاة بضريبة يدفعها على قماش كان معه، فكتب للمعظّم قائلا:

أيَا مَلِكَاً أَبَادَ عِدَاهُ قَهراً وَاحيَا كُلّ مَنْقَبَةٍ وَفَضْلٍ

وَمَنْ هُوَ كَالمَسِيحِ اسْمَاً وفِعلًا وَنَصباً لْلحَيَاةِ وَجَزْمَ فِعْلٍ

يُكَلّفُنِي البَهَاءَ زَكَاةَ مَالٍ حُرامٌ كُلّهُ مِنْ غَيرِ حِلٍ[2]

ولما توفي الملك المعظّم رثته الشعراء، فقد رثاهُ شرف الدين ابن عنين في قصيدةٍ طويلةٍ منها:

يَا دَهرَ وَيحَكَ مَا عَدَا مِمّا بَدا ارْسَلَتَ سَهمَ الحَادِثَاتِ فَأَقْصَدَا

اغْمَدتَ سَيفَاً مُرْهفَاً شَفَرْاتُهُ قَدْ كَانَ في ذاتِ الإلهِ مُجَرّدَا

فَافْعَلْ بُجُهدِكَ مَا تَشَاءُ فَإنّنِي بَعدَ المُعظّمِ لَا أُبَالِي بِالرّدَى

مَا خِلتَهُ يَفْنَى وأبْقَى بَعدَهُ يَا بُؤسَ عَيشِي مَا أَمَرَّ وأنْكَدَا

لَهفِي عَلَى بَدرٍ تَغَيَّبَ فِي ثَرَى رِمْسٌ وَبحْرٌ فِي ضَرِيحِ أَلْحَدَا

ابْقَيتَ لِي يَا دَهْرَ بَعدَ فُرَاقِهِ كَبِداً مُقَرّحَةً وَجِفْنَاً ارْمَدَا

وَجَوَى يُؤَجّجُ بَينَ أَثْنَاءِ الحَشَا نَاراً تَزَايَدُ بِالدّموعِ تَوَقُّدَا

لَو كانَ خُلُقٌ بِالمَكارِمِ والتُّقَى يَبقَى لَكُنتَ مَعَ الزَّمَانِ مُخَلَّدَا

أَو كَانَ شَقُّ الجَيبِ يُنقِذُ مَنْ رَدَى شَقَّتْ عَليكَ بَنُو ابِيكَ الأَكْبُدَا[3]

---

(1) البدر بن المسجّف: عبد الرحمن بن بدر بن الحسن ابن المفرج بن بكار، رشيد الدين النابلسي الشاعر المجيد؛ مدح الناصر وأولاده، وأولاد العادل، وهو عم الحافظ شرف الدين يوسف بن الحسن النابلسي. اتصل في آخر عمرهِ بالملك المعظم شرف الدين عيسى صاحب دمشق ولم يزل منقطعاً إليه إلى أن توفي، انظر الكتبي: محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاكر بن هارون بن شاكر صلاح الدين (ت 764هـ/1362م)، فوات الوفيات، = تحقيق إحسان عباس، ط1، 4 أجزاء، دار صادر، بيروت، 1974،ج2، ص275، رقم الترجمة 253. وسيشار إليه فيما بعد، الكتبي، فوات.

(2) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص645.

(3) ابن واصل، مفرج الكروب،ج4، ص220.

امّـا النّثـر الـذي قيـلَ فـي المعظّـم، فقـد ذكـر سـبط ابـن الجـوزي قـولَ الملـك الظـاهر[1] فـي المعظّم عيسى سنة 612هـ "هو واسطة العقد، وعين القلادة، ولـولا همته وأنه مشغول بجهاد الأعداء، لما قرّ لي في حلب قرار"[2].

وكان يقول الملك الكامل في المعظّم " وهل أنبت الشّعر من رؤوسنا إلا الملك المعظم"[3]، وأشار الكامل إلى دور المعظم في نوبة ابن المشطوب[4] بقوله " ومن حفظ البلاد وأحياني بعد الموت غيره[5].

(1) أبو الفتح أبو منصور غازي ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، الملقب الملك الظاهر غياث الدين صاحب حلب، كان ملكاً مهيباً حازماً متيقظاً كثير الاطّلاع على أحوال رعيته وأخبار الملوك، عالي الهمة حسن التدبير والسياسة باسط العدل محباً للعلماء مجيزاً للشعراء، انظر ابن خلكان، وفيات، ج4، ص6.

(2) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص650.

(3) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص650.

(4) هو أحمد بن علي بن أبي الهيجاء بن عبدالله بن أبي الخليل بن مرزبان، وكنيته أبو العباس وأبي المحاسن، أما لقبه فهو عماد الدين، كما لقّبَ بنعمة واشتهر بلقب ابن المشطوب لشطب كان في وجه والدِه، الذي عرفه ملوك بني أيوب باسم الأمير سيف الدين أبي الحسن المشطوب وسيأتي الحديث عن عصيان ابن المشطوب لاحقاً، أنظر ابن الأثير، الكامل، ج10، ص376؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص180 وانظر الرويضي، محمود محمد، عماد الدين أحمد بن المشطوب وأثر حركات عصيانهِ على سلاطين بني أيوب وملوكهم(590هـ- 619هـ/ 1193م-1222م)، بحث منشور، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، 1430هـ/2009م، ص66. وسيشار إليه فيما بعد، الرويضي، عماد الدين. وسيتم تناول مؤامرة ابن المشطوب في الفصل الثالث من الدراسة.

(5) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق 2، ص650.

الفصل الثاني

مملكة الملك المعظم عيسى

1.2 ولاية المعظّم عيسى على نيابة دمشق وصلاحياته

بعد استيلاء الملك العادل على الديار المصرية والشام(1)، وانتزاع الكثير من المناطق التي كانت بأيدي أبناء صلاح الدين، وبعد أن استقرت البلاد للملك العادل أدرك أن الدولة الأيوبية لا يمكن لها الاستمرار والحفاظ على ممتلكاتها في كل من مصر والشام، إلا إذا تم تقسيم هذه الممتلكات إلى ممالك، وتعيين نوّاب يتبعون إدارياً لرأس السلطة أو للملك العادل شخصياً(2)، ولما نجح الملك العادل في تنصيب نفسه سلطاناً في سنة 597هـ/ 1201م(3)، أدرك أيضاً أنّ أولاده، هم الأشخاص

(1) أبو شامة، الذيل، ص111؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان،ج2، ص207؛ الصفدي، الوافي،ج2، ص235؛ وانظر الحنبلي: أحمد بن ابراهيم(ت876هـ/1471م)، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق ناظم رشيد، ص200. وسيشار إليه فيما بعد، الحنبلي، شفاء. وللمزيد من المعلومات حول مصور بلدان الشام والجزيرة الشامية انظر المخطط رقم (4) في قائمة الملاحق.

(2) أبو الفدا، مختصر، م2، ص119؛ وانظر الحايك، منذر، العصر الأيوبي قرن من الصراعات الداخلية، تقديم سهيل زكار، دار صفحات للدراسات والنشر، سوريا، دمشق، 2011، ص 156. وسيشار إليه فيما بعد، الحايك، العصر الأيوبي. للمزيد من المعلومات حول مناطق نفوذ الملك العادل انظر المخطط رقم (4) في قائمة الملاحق.

(3) أبو الفدا، مختصر، م2، ص119.

الصالحون لمهمة النيابة عنه في مناطق نفوذه[1]، ولعلّ الملك العادل أراد بهذا الإجراء أن يُبقي أولادهُ تحت سيطرته.

ولا يسمح موضوع البحث لنقاشِ وجهةِ نَظرِ الملك العادل في تقسيم مملكته على أولاده، ولكن لا بد من الإشارةِ إلى أن الملك العادل، قد سار على خطى أخيه صلاح الدين في تقسيم مملكته على أولاده، ويمكن القول: إنّ العادل وقع في نفسِ الخطأ الذي وقع فيه صلاح الدين بعد أن استنسخ تجربته في ذلك التقسيم، ولعلّ سير الأحداث التاريخية فيما بعد يدعم ذلك.

وعليه ففي سنة 597هـ/ 1201م وبعد فشل حصار الملك الأفضل[2] والملك الظاهر غازي[3] لدمشق، قرر الملك العادل تقسيم البلاد على أولاده، فأعطى الملك الكامل[4] الديار المصرية، وعيّنَه نائباً له فيها، كما أعطى الملك الأشرف موسى[5]

---

(1) المصدر نفسه، م2، ص119.

(2) الأفضل: أبو الحسن علي، الملقب الملك الأفضل نور الدين، ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب (556-622هـ/1170-1225م)، انظر ترجمته في، سبط ابن الجوزي، مرآة، ج 8، ق2، ص436؛ أبو شامة، الذيل، ص 145؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، ص95؛ المقريزي، السلوك،ج1، ص216؛ الحنبلي، شفاء، ص256.

(3) الملك الظاهر، غياث الدين غازي بن صلاح الدين يوسف بن أيوب 568-613هـ/1173/ 1216م، انظر ترجمته في، أبو شامة، الذيل، ص94؛ الداواداري، كنز الدرر،ج7، ص148؛ ابن كثير، البداية والنهاية،ج13، ص71؛ الحنبلي، شفاء، ص 252؛ الحنبلي، شذرات، ج5، ص55.

(4) الكامل: محمد بن العادل، انظر ترجمته في، الحموي: أبو الفضائل محمد بن علي بن نظيف الحموي(639هـ/1241م)، التاريخ المنصوري، تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان، تحقيق أبو العبد دودو، مطبعة الحجاز، دمشق، 1981، ص24. وسيشار إليه فيما بعد، الحموي، التاريخ المنصوري؛ الحنبلي، شفاء، ص 299؛ أبو شامة، الذيل، ص186؛ الداواداري، كنز الدرر،ج7، ص 326 ؛ابن تغري بردي،النجوم،ج6، ص301؛ النعيمي، الدارس،ج2، ص277.

(5) الأشرف موسى: انظر ترجمته في ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص330؛ الحنبلي، شفاء، ص290.

البلاد الشرقية، أي بلاد الجزيرة الواقعة شرق نهر الفرات، أما الملك المعظّم عيسى، فقد كان من نصيبه دمشق، حيث تم تنصيبه نائباً عن والده فيها، كما أعطيت ميافارقين[1] إلى الأوحد[2]، وبذلك يكون الملك العادل قد جرّد أبناء صلاح الدين من معظم ممتلكاتهم، إذ لم يبق بحوزتهم من المناطق الهامّة سوى حلب التي لم تكن تشكل خطراً على العادل وأولاده[3]، وذلك لأن ولايتها آلت إلى الملك العزيز غياث الدين محمد فيما بعد، وهذا هو ابن إحدى بنات الملك العادل، حيث كان لا يتجاوز الثلاث سنوات من عمره[4]، بمعنى أنّ السيطرة عملياً على حلب كانت للعادل وأبنائه.

إنّ بحثَ موضوع نيابة المعظّم عيسى على دمشق، ومدى الصلاحيات المفوضة إليه بأنواعها السياسية والعسكرية والإدارية، لممارسة سلطته على دمشق، تحتاج إلى التعريفِ بنظرية النيابة التي سادت وانتشرت في فترة الحكم الأيوبي، للحُكمِ على ممارسة المعظّم عيسى لصلاحياته كنائب أم لا.

---

(1) مَيّافارِقين: أشهر مدينة بديار بكر، قالوا: سميت بميّا بنت لأنها أول من بناها، وفارقين هو الخلاف بالفارسية يقال له بارجين، لأنّها كانت أحسنت خندقها فسميت بذلك، الحموي، معجم،ج5، ص235-236؛ أبو حجر، أمنة ابراهيم، موسوعة المدن العربية، دار أسامة، عمان، 2003، ص 312، وسيشار إليه فيما بعد، أبو حجر، الموسوعة.

(2) الملك الأوحد: نجم الدين أيوب بن العادل، انظر ترجمته في، سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 561؛ الذهبي، العبر،ج5، ص31؛ وانظر ابن الفرات: ناصر الدين محمد بن = عبد الرحيم(ت 807هـ/1405م)، تاريخ ابن الفرات، تحقيق حسن محمد الشماع، دار الطباعة الحديثة، البصرة، العراق، 1970، م1،ج5، ص105. وسيشار إليه فيما بعد، ابن الفرات، تاريخه.

(3) الحموي، التاريخ المنصوري، ص 31.

(4) المصدر نفسه، ص 84.

كان النائب في فترة الحكم الأيوبي بمنزلة سلطان مصَغّر، حيث كان له الحق المطلق في التصرف في كل الأمور، كالجيش والمال وما يخص الدولة[1]، وإليه يَرجعُ جميع ذوي الوظائف في نيابته، إذ لا يتصرّفون إلا بأمره، فهو صاحب الحق في التعيين بالوظائف واستخدام الجند. أما فيما يتعلق بالوظائف الكبيرة فكان يستشير السلطان، وقليلاً ما كان يُرفضُ طلبهُ[2].

وقد مارس المعظّم عيسى صلاحياته النيابية كاملةً تحت سيطرة والده الملك العادل مباشرة[3]، إذ لم يتمتع باستقلال كامل في نيابته، ولعلّ ذلك يعود إلى الظروف المحيطة بالدولة الأيوبية آنذاك، حيث لم تكن الأوضاع مستقرة، فهناك الحصارات المتكررة على دمشق من أبناء صلاح الدين بقصد استرجاعها، إلى جانب التحرّشات الصليبية المتكررة لدمشق، كلّ هذه الظروف لعبت دوراً في عدم تمتّع المعظّم عيسى بصلاحياته وممارسته لها أثناء نيابته على دمشق، وقد كان الملك العادل يقيم لفترات طويلة في دمشق، ويمارس الصلاحيات بنفسه، ويتخذ القرارات بنفسه ملغياً بذلك دور النائب بوجوده هو شخصياً، وعليه فقد كان المعظّم يمارس صلاحيات محدودة ضمن سلطة اسمية في دمشق[4].

وهناك العديد من الشواهد التي تدلل بصورة قاطعة على حكم العادل المباشر لدمشق أثناء نيابة المعظّم عيسى فيها، إذ إنّ الرّجال الذين تولّوا السلطة أو المناصب في دمشق آنذاك كانوا يعيّنون من الملك العادل نفسه، ويرجعون إليه في

---

(1) العمري: شهاب الدين أحمد بن فضل الله(ت749هـ/1348م)، مسالك الأبصار وممالك الأمصار، تحقيق أيمن فؤاد السيد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، جزء مصر والشام، ج2، ص54. وسيشار إليه فيما بعد، العمري، المسالك والممالك.

(2) المصدر نفسه،ج2، ص54.

(3) الحموي، التاريخ المنصوري، ص 31؛ وانظر Humphreys, R. Stephen. From Saladin to Mongols, The Ayyubids of Damascus,1193- 1260p.p145.

(4) الحموي، التاريخ المنصوري، ص 31؛ وانظر Humphreys, From Saladin to Mongols. p.p145.

كل الأمور[1]. فمثلاً لم يكن المعظّم راضياً عن تعيين المبارز المعتمد إبراهيم[2] والياً على دمشق، وعلى الرغم من أن رفض المعظّم عيسى للمعتمد كان لأسباب شخصية، غير أنّ تعيينه على دمشق يكشف مدى سطوة العادل آنذاك.

وقد أثبتت مجريات الأحداث بعد وفاة الملك العادل عدم رضا المعظّم عيسى عن ولاية المعتمد، حيث قام بعزله بعد وفاة والده العادل. وهذا يشير إلى أنّ المعظّم لم يستطع رفض قرار والده في حينهِ، وأنّه لم يستطع التحرر من سيطرة والدهِ على القرار في دمشق إلا بوفاة والدهِ[3].

وثمة دليل آخر على ثانوية دور المعظّم على دمشق بوجود والده العادل، وهو عدم وجود نقوش على الأماكن التي تم بناؤها في هذه الفترة (597هـ- 615هـ/ 1201- 1218م)، تحمل اسم المعظّم وحده، بل هناك نقش على قلعة دمشق يحمل اسم المعظّم إلى جانب اسم والده العادل[4].

ولم تكن مسألة التصرف بملكية الإمارات والمدن والحصون من صلاحيات المعظّم، بل كانت من صلاحيات الملك العادل نفسه، ففي سنة 611هـ/1214م

---

(1) الحموي، التاريخ المنصوري، ص31؛ وانظر Humphreys, From Saladin to Mongols. p.p151.

(2) المبارز المعتمد: إبراهيم بن موسى الأمير مبارز الدين العادلي والي دمشق، ولد بالموصل وقدم الشام وخدم نائبها وتنقلت به الأحوال، ثم ولّاه العادل بعض أعمال دمشق فأحسن السيرة، ثم ولّاهُ ولاية دمشق وطالت ولايته في دمشق وأعمالها، انظر الصفدي، الوافي،ج6، ص 150.

(3) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة،ج2، ص58.

(4) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة،ج2، ص58؛ وانظر Humphreys, From Saladin to Mongols,p.p151.

توفي صاحب صرخد[1]، وآلت الأمور فيها لأبنائه من بعده، ولم يستطع المعظّم الاستيلاء عليها وضمّها لمملكته إلا بمرسوم من والدِه الملك العادل[2].

يعد الملك المعظّم عيسى من أهم شخصيات الفترة الأيوبية الثانية التي امتدت من وفاة صلاح الدين حتى وفاة الملك الكامل (636هـ/ 1239م)، وقد تميّزت شخصية المعظم عيسى بالثقافة الدينية العالية، إلى جانب الثقافة الأدبية الفريدة التي طَبعت تلك الشخصية، وقد انفردت شخصية المعظم عيسى عن غيرها من سلاطين الدولة الأيوبية وملوكها بإتّباعه المذهب الحنفي، مخالفاً بذلك أولئك السلاطين والملوك الذين كانوا كلّهم على المذهب الشافعي.

وقد كان للظروف التي طرأت على الدولة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي سنة 589هـ/1193م دور كبير في ظهور شخصية الملك المعظّم عيسى على الساحة السياسية، وقد لعبت عدة عوامل في ظهور شخصية المعظّم، لعلّ من أهمها الصراع الذي نشب بين أبناء صلاح الدين على عرش أبيهم، وظهور شخصية الملك العادل والد المعظّم عيسى ودورها في ذلك الصراع، كلّ هذه العوامل كان لها دور في نزع الحكم من أبناء صلاح الدين، واستقراره في بيت الملك العادل وأبنائه، الكامل، والمعظم، والأشرف. وعبر تلك المحطات من تاريخ الدولة الأيوبية الثانية كان للمعظّم عيسى دور بارزٌ في تدعيم سلطة والده الملك العادل، وقد برز ذلك الدور واضحاً في فترة نيابتهِ عن والده في دمشق، وعلى الرغم من محدودية صلاحيات المعظّم في إدارة ولايته أثناء وجود والده الملك العادل على رأس السلطة المركزية ،غير أنّهُ برز دوره بشكل واضح بعد وفاة والده الملك العادل.

---

(1) صَرْخد: بالفتح ثمّ السكون، والخاء معجمة، والدال مهملة: بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق، وهي قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة، الحموي، معجم، ج3، ص401؛ جونز، مدن بلاد الشام، ص210.

(2) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة،ج2، ص60. وللمزيد من المعلومات حول مصور بلدان الشام والجزيرة الشامية انظر المخطط رقم (4) في قائمة الملاحق.

2.2 استقلال الملك المعظم بالحكم في دمشق

بدأ الملك المعظّم عيسى حكمه مستقلاً في مملكته في 8 جمادى الثانية من سنة 615هـ/ 1218م[1]، وذلك في أعقاب وفاة والده الملك العادل[2]، حيث توفي العادل في 7 من جمادى الثانية لسنة 615هـ الموافق 31من آب لسنة 1218م[3]، وكانت وفاته في قرية عالقين[4] بالقرب من دمشق[5]. حيث بلغه خبر نزول الصليبيين في دمياط[6].

وكان العادل مقيماً آنذاك في مرج الصفر[7]، فلما سمع بخبر نزولهم قام بتجهيز عساكره ووجّهها نحو الدّيار المصرية[1]، وخرج من مرج الصفر مسرعاً إلى دمشق، ولمّا وصل عالقين، اشتدّ عليه المرض ومات فيها[2].

---

(1) الصفدي، الوافي، ج2، ص 171. وللمزيد من المعلومات حول مصور بلدان الشام والجزيرة الشامية انظر المخطط رقم (4) في قائمة الملاحق.

(2) ابن الفرات، تاريخه، م5، ج1، ص240.

(3) المصدر نفسه، م5، ج1، ص 241.

(4) عالقين: قرية بظاهر دمشق تقع على مسافة 30 كم الى الجنوب منها، وتتبع إدارياً في الوقت الحاضر إلى محافظة درعا، الحموي، ج2، ص322 ؛ وانظر جونز، مدن بلاد الشام، ص72.

(5) ابن العميد: جرجس بن العميد بن إلياس ابن أبي الطيب النصراني(ت 672هـ / 1273م)، أخبار الأيوبيين، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، د.ت. ص130. وسيشار إليه فيما بعد، ابن العميد، أخبار الأيوبيين؛ وانظر ابن الفرات، تاريخه، م5،ج1، ص240؛ المقريزي، السلوك، ق1، ج1، ص190.

(6) دمياط: مدينة قديمة بين تنّيس ومصر على زاوية بين البحر الأبيض المتوسط والنيل، وهي ثغر من ثغور الإسلام، وتعد من أجمل مدن مصر، حيث تتميز بسواحلها الطويلة المطلة

= على النهر والبحر وهوائها العذب وطقسها المعتدل، الحموي، معجم،ج2، ص472؛ ابو حجر، الموسوعة، ص210.

(7) مرج الصفر: موقع بين دمشق والجولان، سميت بهذا الاسم لكثرة الأزهار والنباتات الزهرية فيها، وهناك من يفسر سبب التسمية بكثرة الربيع، فقد كانت البلدة خضراء طبيعية، بسبب النهر الصغير الجاري فيها آنذاك، الحموي، معجم البلدان، مادة مرج الصفر؛ جونز، مدن بلاد الشام، ص 112.

وكان كريم الدين الخلّاطي[3] هو أوّل من سمع بوفاة الملك العادل، فقام بإرسال خبر الوفاة إلى الملك المعظّم عيسى من خلال الحمام الزاجل، وكان المعظّم آنذاك في نابلس، ولما وصل الخبر إليه توجّه من نابلس إلى عالقين، وهناك التقى بالخلّاطي، واتفقا على أن يبقيا أمر وفاة العادل سراً بينهما، وأن يُعلنا للنّاس عن رغبة الملك العادل بالرّحيل إلى دمشق[4]، ولا يُعرَف هدف الملك المعظّم من إبقاء وفاة الملك العادل سراً، لكن المرجّح رغبته في إيجاد الوقت الكافي للاستئثار بممتلكات العادل وأمواله دون إخوته، ومما يؤيد ذلك ما ذهبَ إليه ابن الفرات (ت807هـ/ 1405م) في تاريخه، حيث يَذكر استيلاء الملك المعظّم عيسى على جميع ما كان مع العادل من الأموال والجواهر النفيسة والذخائر والعِدَدِ والخيول[5]، وكان مجموع ما أخذه سبعمائة ألف دينار مصري نقداً، كانت بحوزة العادل أثناء وجوده في عالقين[6]. والإجراءات اللّاحقة التي اتخذها المعظّم تثبت ما ذهب إليه ابن الفرات في تاريخه، حيث حملَ المعظّم عيسى جثمان والده الملك العادل إلى دمشق في محفةٍ[7]، وكان معه خادم يرفع أطراف تلك المحفةِ ويشيع في النّاس بأنّ العادل مريض، حتى دخلوا به دمشق والناس يُسلّمونَ على الخادم وهو يُومئِ إلى

---

(1) ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص130؛ وانظر ابن الفرات، تاريخه، م5، ج1، ص240

(2) ابن الفرات، تاريخه، م5، ج1، ص240.

(3) الخلّاطي: الأمير كريم الدين الخلّاطي وهو أديب لطيف ذو مروءةٍ، خدم الأشرف والمعظّم والكامل، كان أميراً على الناس في الشّام، مات بدمشق ودفن بقاسيون سنة 631هـ/1234م،انظر سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص596؛ وانظر ابن تغري بردي، النجوم، ج6، ص286.

(4) أبو شامة، الذيل، ص110 ؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص275.

(5) ابن الفرات، تاريخه، م5،ج1، ص241.

(6) أبو الفدا، مختصر، م2، ص16؛ وانظر المقريزي، السلوك، ق1،ج1، ص190.

(7) المَحفّة: هي محمل له أربعة أطراف، طرفان في الأمام وطرفان في الخلف، ويغطّى بالحرير والجوخ ويوضع على دابتين ،كالبغل أو الحمار، والراكب فيه يشعر وكأنه في سريره، وكان من عادة الملوك اصطحاب المحفة معهم في أسفارهم. انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج2، ص130.

ناحية العادل وَيردّ عليهم السّلام، ثم دخلوا بالجثمان قلعة دمشق، وبقي خبر وفاته طي الكتمان[1]، لأنّه كان ما يزال للعادل أموالٌ كثيرة في الكرك، فبقي خبر وفاتهِ سرّاً، حتى استطاع المعظّم عيسى أن يستوليَ عليها[2].

وبعد تلك الإجراءات السابقة، أعلنَ المعظّم وفاة والده الملك العادل[3]، وأحضر وأحضر رجال دولته وخاصّته، وجلس للعزاء ثلاثة أيام، وكتب إلى سائر الملوك يخبرهم خبر وفاة والده[4].

غيّرت وفاة الملك العادل مجريات الأحداث في تلك الفترة، فعلى صعيد الجبهة المصرية أثّرَت وفاتهُ في العمليات العسكرية للملك الكامل ضد الصليبيين، الذين هاجموا دمياط وحاصروها، وتعطّلت الإمدادات العسكرية التي كان من المفترض أن يتلقّاها الملك الكامل من دمشق، وتأخرت العمليات العسكرية في مصر ضد الصليبيين لعدم وصول تلك الإمدادات[5].

كما أن وفاة الملك العادل أثّرَت في وحدة الممالك الأيوبية،[6] حيث بدأت هذه الممالك تستقل عن بعضها البعض، ومن ذلك استقلال الملك الكامل في مصر، حيث عدّ نفسه ولياً للعهد بعد والده الملك العادل، وهو صاحب السِّكة والخطبةِ في جميع الممالك الأيوبية، حيث جرت العادة عند الأيوبيين أنّ لصاحبِ الدّيار المصرية السلطة عليهم ولو اسمياً.

---

(1) سبط ابن الجوزي،ج8، ق2، ص595؛ وانظر أبو شامة، الذيل، ص112؛ الصفدي، الوافي، ج2، ص235.

(2) ابن الفرات، تاريخه، م5، ج1، ص241.

(3) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص595.

(4) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص275.

(5) رنسيمان، ستيفن، الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، ط3، القاهرة،1999، ج3، ص 277. وسيشار إليه فيما بعد رنسيمان، الحروب الصليبية.

(6) رنسيمان، الحروب الصليبية ، ج3، ص 277.

أمـا الملـك المعظّـم عيسـى، فقـد اسـتقلَّ بمملكتـه فـي دمشـق والقـدس والكـرك والسـواحل حتـى العريش فـي مصـر[1]. فـي حين اسـتقلّ الملـك الأشـرف فـي خـلَّاط[2] وحرَّان[3] والرّها[4] والجزيرة[5].

وهكذا كـان لوفـاة العـادل دورٌ مـؤثِّرٌ فـي وحـدة الممالـك الأيوبيـة، لا يقـل أهميـةً عـن دورهِ فـي حياتـه، حيث ميَّـزَ بـين أبنائـهِ، حينمـا قسَّـمَ علـيهم مملكتـه، ففـي الوقـت الـذي أعطـى فيـه النصـيب الأكبـر مـن مملكتـه للمعظّـم والكامـل والأشـرف، خصـص بعـض المنـاطق الصـغيرة لبـاقي أبنائـهِ وأبنـاء أخيـه صـلاح الـدين، وكانـت تتبـع بشـكل عملـي لإحـدى الممالـك الكبيـرة السـابقة[6]، فقـد أعطـى ولـده الملـك الفـائز [7] الأعمـال

---

(1) ابن الفرات، تاريخه، م5،ج1، ص240.

(2) خلاط: بكسر أوله، وآخره طاء مهملة: البلدة العامرة المشهورة ذات الخيرات الواسعة والثمار اليانعة، وهي قصبة أرمينية الوسطى، فيها الفواكه الكثيرة والمياه الغزيرة، وببردها في الشتاء يضرب المثل، ولها البحيرة التي ليس لها في الدنيا نظير. انظر البكري، معجم ما استعجم، ج3، ص17؛ الحموي، معجم،ج2، ص380.

(3) حرّان: مدينة مشهورة من ديار بكر وهي قصبتها، تلي مدينة الرّقة من حيث المساحة، بنيت على نهر البليخ وبالقرب من منبعه، وتمتاز بتربتها الحمراء ونزاهتها، ويتبع لها عدد من القرى والضياع، ومساحات واسعة من الأراضي الزراعية غير المرويّة، لكنها تعاني من نقص المياه. الحموي، معجم،ج2، ص236؛ ابن شداد، الأعلاق، ج3، ق1، ص40؛ الذيب، معجم الأسماء والمدن والقرى، ص320.

(4) الرُّها: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام بينهما ستة فراسخ، مدينة سريانية تاريخية في الجزيرة الفراتية، كانت عاصمة إمارة الرها، وتمتاز بمساحتها الواسعة وديارها العامرة، وسورها المبني من الحجارة تدخله مياه الأنهار وتخرج منه. انظر الحموي، معجم، ج2، ص 106؛ الرويضي: محمود محمد، إمارة الرها الصليبية(490هـ-546هـ/1097م-1151م)، ط1،الأردن، عمان، وزارة الثقافة، 1423هـ/2002م، ص95. وسيشار إليه فيما بعد الرويضي، إمارة الرها.

(5) ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص130.

(6) ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص130.

(7) الفائز: إبراهيم بن محمد بن أَيوب بن شادي الملك الفائز ابن العادل بعثه أَخوه الملك الكامل الكامل إِلى الشرق، يستنجد بأَخيه الملك الأَشرف موسى، فأدركه أَجله بسنجار، ويقال إِنه

القوصيَّة، وأعطى ابن أخيه الملك الأفضل الفيّوم وأعمالها، وهذه المناطق كانت تتبع عملياً للملك الكامل وهو مسؤولٌ عنها[1]، وأعطى ابن أخيه العزيز عثمان بانياس وتبنين وأعمال نوَى، في حين أعطى الملك الصالح إسماعيل قلعة بُصرى والسّواد[2]، وهذه المناطق تتبع إلى مملكة المعظّم عيسى، وهم في خدمته[3]. وقد شمل هذا الاستقلال نواحي الممالك الثلاث كافةً، حيث عدت كل مملكة نفسها مستقلة ذاتياً عن الأخرى، ولها سيادتها الخاصة، وقد قاد ذلك إلى التناحر بين هذه الممالك والصراع فيما بينها لاحقاً، وذلك للحفاظ على هذا الاستقلال، على الرغم من اعتراف الأشرف والمعظّم بسلطة الملك الكامل فيما بعد.

3.2 حدود مملكته

وقد امتدت حدود مملكة المعظّم عيسى من حمص شمالاً إلى العريش جنوباً، وضمّت الكرك، وبلاد السّاحل وبلاد الغور وأرض فلسطين والقدس والشوبك، وصرخد، واتخذ من دمشق عاصمةً لها[4].

4.2 اهتمام المعظّم عيسى بمملكته

حرص المعظّم عيسى على نشر الأمن في البلاد التي تتبع لمملكته إدارياً، ولم يترك أي جزء من مناطق مملكته إلا ووجَّهَ اليه عنايته واهتمامه، من حيث سلامة الطرق وأمانها، خاصة بين الشّام ومصر، فكان المعظّم يتنقل بين أجزاء مملكته، فينتقل من دمشق إلى القدس عن طريق الأغوار، مروراً بحوران، ثم بمنطقة الأردن

سمّ وكانت وفاته سنة 617هـ/1220م، وكان قد حالف ابن المشطوب على الكامل لما ملك الفرنج دمياط، ويقول الصفدي :لولا أَن أخاهما المعظم أمسك ابْن المشطوب ونفاه إِلى الشرق لتم لهما ما أرادا، انظر الصفدي، الوافي،ج6، ص82.

(1) ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص131.

(2) المصدر نفسه، ص131.

(3) المصدر نفسه، ص131.

(4) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص596؛ ابن شداد، الأعلاق الخطيرة،ج3، ص84. المقريزي، السلوك، ج1، ص168.

شمالاً حيث إربد، ثم ينزل إلى القصير وبيسان، ويسير مع وادي الأردن جنوباً حتى أريحا، ثم القدس[1].

وكان من عادته أن يبيت ليلةً واحدةً وهو في طريقه من دمشق إلى القدس، ولعلّ ما يدفعه لذلك حرصه على تفقد أحوال مملكته، ومراقبة الأمن في مسالكها وطرقها[2].

وقد قدَّمت المصادر كثيراً من الأخبار حول حرص المعظّم على سلامة مملكته وأمنها ، فقد ذكر سبط ابن الجوزي(ت654هـ/1256م) على لسان المعظّم في مواجهتِهِ لقاطعِ الطريق قنديل وعصابتِهِ، حيث يقول المعظّم: " فوقفت وصحتُ فيه ولَكْ أنت قنديل؟ قال: نعم، وبيده قوس لو ضرب بسهمه الجبل لنفذَ منه، فكتَّفَهُ وهرب أصحاب قنديل، ثم ما لبث المعظّم أن استعمل قنديل لحماية الطرق وحراسة الأمن وقتال الصليبيين في قلعة الطور "[3].

إنّ هذه الرواية التي قدّمها سبط ابن الجوزي تشير إلى اهتمام المعظّم عيسى بأمن مملكته وتأمين مسالكها وطرقها، والضرب على يد كل خارجٍ عن القانون، ومعاقبة كل قاطع طريق وسارق، وهي تؤكّد من ناحية أخرى سطوة المعظّم وسيطرته على أركان مملكته وحدودها.

واهتم المعظّم عيسى داخل مملكته بشكل خاص براحة الحجاج الشاميين وأمْنِهم أثناء مرورهم في أرض إمارته، حيث عمل على توفير كل وسائل الراحة والاطمئنان لهم[4]. وأعدّ لهم دور الضيافة عند رواحهم وغدوهم من مكة وإليها، وأوقف لذلك أوقافاً خاصة في الساحل، وكذلك نظّم الطريق الذي يسلكه الحجاج إلى الحجاز، وقام بغرس الأشجار من باب الجابية بدمشق وحتى مكة[5]، وحفر البرك والمصانع

---

(1) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص430. وللمزيد من المعلومات حول مصور بلدان الشام والجزيرة الشامية انظر المخطط رقم (4) في قائمة الملاحق.

(2) المصدر نفسه، ج8، ق2، ص430.

(3) المصدر نفسه، ج8، ق2، ص430.

(4) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص429؛ وانظر النعيمي، الدارس، ج1، ص 584.

(5) النعيمي، الدارس، ج1، ص 584.

لخدمة الحجاج. وقد عزم على بناء دور في كل منزلة ينزلها الحجاج[1]، وتماشياً مع سياسته أقام عددا من القلاع والحصون، وذلك على طول الطريق المسلوكة إلى الدّيار المقدسة لحفظ القوافل السائرة فيها وحراستها. [2]

وقد اهتم المعظّم عيسى بالمزارات في مؤتة[3] جنوبي الأردن، فأمر ببناء المساجد هناك، وهيأ للزّوار والقادمين وسائل الراحة فيها، وبنى لهم دور الضيافة مدة إقامتهم هناك وأوقف لذلك الأوقاف اللّازمة[4].

وخصّ مدينة عجلون بعنايةٍ خاصة واهتمام بالغ، وقد كانت هذه المدينة إقطاعاً للأمير عز الدين أسامة[5]، أحد كبار الأمراء الصلاحية، وهي مبنية على جبل عوف[6] الذي كان ينزله قوم من بني عوف، وهم من جرم من قضاعة، فنُسب الجبل

---

(1) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص429؛ وانظر الفاسي: محمد بن أحمد بن علي، تقي الدين، أبو الطيب المكي الحسني(ت822هـ/1419م)، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، ط1، 2جزء، دار الكتب العلمية،1421هـ/2000م،ج2، ص282. وسيشار إليه فيما بعد الفاسي، شفاء الغرام.

(2) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص429؛ وانظر النعيمي، الدارس، ج1، ص 584.

(3) مؤتة: قرية من قرى البلقاء في حدود الشام، وقيل: موتة من قرى البلقاء في حدود الشام، وقيل: موتة من مشارف الشام وبها كانت تطبع السيوف وإليها تنسب المشرفية من السيوف، الحموي، معجم، ج5، ص220؛ الذيب، معجم الأسماء والمدن والقرى، ص311.

(4) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص429 ؛ وانظر النعيمي، الدارس، ج1، ص 584.

(5) عز الدين أسامة: قائد عسكري من الأمراء الصلاحية، تولى أمر بيروت وعجلون وكوكب الهوا وبيسان، وبعد وفاة صلاح الدين الأيوبي أقحم نفسه في خلافات ملوك بني أيوب، فكان متذبذب الولاء بين الأمراء العادلية والصلاحية، وقد تنقل بين مصر والشام، وانتهى الأمر به بقبض المعظّم عيسى عليه عام 607هـ/ 1210م، فجرّده من إقطاعه في عجلون وكوكب الهوا وبيسان، ولم يكتف المعظم بذلك ،بل سجنه في قلعة الكرك وبقي فيها حتى وفاته،

= الحموي، التاريخ المنصوري، ص67-68؛ أبو شامة، الذيل،ج4، ص155؛ابن الفرات، تاريخه، م5، ج1، ص108.

(6) جبل عوف: ويسكنه قوم من بني عوف فسمي بهم، وتتمثل حدوده من القبلة وادي الزّرقاء الفاصل بين بلد عجلون وبين بلد الصلت(السلط)، فكلٌّ ما هو في قبليه فمن عمل الصلت،

الجبل إليهم، وكان بينهم صراع ومنافسة، وقد تشعّبَت قبائلهم ولم يدخلوا تحت طاعة أحد[1]، ولما بنى عز الدين أسامة قلعة عجلون حاولوا منعه وقاوموه، لكنه أقنعهم بالحيلة واللّين والسياسة أنّ القلعة لحمايتهم من الصليبيين، ثم ما لبث عز الدين أسامة أن أخضع بني عوف لطاعته[2]، ولم يزل حصن عجلون بيده حتى سنة 608هـ/ 1211م[3]. غيرَ أنّ الملك العادل اتَّهمَ عز الدين أسامة بالخيانة، ونَسب إليه مكاتبات مع الملك الظاهر غازي صاحب حلب[4]، فلما سمع عز الدين بذلك تحصَّنَ في عجلون واستعصمَ فيها، فانزعج العادل لذلك، وقال لأبنائه " من ساقَ خلفهُ فله أمواله وقلاعهُ"[5]، فقال المعظّم أنا أفعل ذلك، وركب من دمياط في غرةِ رجب وكان بصحبته سبط ابن الجوزي المؤرخ المعروف، وقد أسرع المعظّم عيسى ومعه ثمانية من مماليكه الذين يعتمد عليهم، فاقتفوا أثرَ عز الدين أسامة[6].

وكل ما هو من شماليه من عمل عجلون. ابن شداد، الأعلاق الخطيرة،ج2،ق2، ص89-92؛ الذيب، معجم الأسماء والمدن والقرى، ص310.

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص86.

(2) المصدر نفسه ، ج4، ص86.

(3) ذكر بعض المؤرخين أنّ امرَ الطّاعة هذا كان سنة 609هـ/1212م.انظر ابن الأثير، الكامل،ج12، ص300؛ والداواداري، كنز الدرر، ج7،ص 172؛ وابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص63؛ وابن شداد، الأعلاق الخطيرة،ج3، ص161؛ وابن تغري بردي، النجوم،ج6، ص205. امّا سبط بن الجوزي فيذكر أن أمر الطّاعة هذا كان في سنة 608هـ وهو يستشهد بهذا التاريخ لأنّه كان مع المعظّم عند خروجه من مصر، حيث شارك في ذلك وقد وافقه ابن واصل فيما ذهب إليه. انظر سبط بن الجوزي، مرآة، ج8،ق2، ص367،366؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص209/ 210.

(4) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص366؛ النويري، نهاية الأرب،ج27، ص178. وللمزيد من المعلومات حول مصور بلدان الشام والجزيرة الشامية انظر المخطط رقم (4) في قائمة الملاحق.

(5) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص366؛ النويري، نهاية الأرب،ج27، ص178.

(6) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص366؛ النويري، نهاية الأرب، ج27، ص178.

استخدم المعظّم عيسى كل الوسائل للحفاظ على استقرار مملكته وهدوئها ، فاستخدم العيون والأتباع، ووزّعهم في كل أنحاء مملكته، حتى نجح في القبض على عز الدين أسامة، وأودَعهُ في كنيسة صهيون الواقعة خارج مدينة بيت المقدس[1].

وامتاز المعظّم عيسى بحذره الشديد من خصومه وأعدائه بهدف حفظ أمن مملكته واستقرارها ، فقد كان حذراً من غلمان عز الدين أسامة وخوفهِ من أن يصادفوه أثناء تَتبّعهِ لأسامة، وفي ذلك يقول المعظم:" ما كنت خائفاً إلّا أن يصادفني في الطريق غلمان عز الدين فيقتلوني"[2]. ولذلك كان المعظّم حَذِراً في توقيت القبض على أسامة، إذ لم يقبض عليه إلّا بعد أن تفرّق عنه رجاله ومماليكه[3].

وانتهج المعظّم في حفظ أمن مملكته المكر والدهاء والحزم، وجسّد مكره ودهاءه في أنّه أرسل طعاماً وشراباً لعز الدين أسامة بعد أن قبض عليه، وأخذ يتودّدْ إليه ويلاطفه قائلا له:" أنت شيخ كبير وبك مرض النقرس، ولا تصلح لك القلاع والحصون، وطلب منه أن يُسلّم له قلعة عجلون وكوكب الهوا، مقابل أن يبقي له على أموالهِ ومماليكهِ، وأن يقضي بقية حياته معهم كالوالد بينهم، لكنّ أسامة امتنع وشتم المعظّم وأغلظ له القول"[4]. ولما يئس من قبول عز الدين أسامة لعروضه عليهِ، استولى على دارهِ بدمشق وحمّامهِ داخل باب السلامة[5]، فكان قيمة ما استولى استولى عليه المعظّم ألف ألف دينار[6].

---

(1) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص63؛ اما النويري فيقول انها ضيعة بالقدس. انظر النويري، نهاية الأرب، ج27، ص189. وللمزيد من المعلومات حول مصور بلدان الشام والجزيرة الشامية انظر المخطط رقم (4) في قائمة الملاحق.

(2) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص366؛ النويري، نهاية الأرب، ج27، ص178؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص63.

(3) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص366؛ النويري، نهاية الأرب، ج27، ص178؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص63.

(4) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص366

(5) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص366؛ ابن كثير، البداية والنهاية،ج13، ص63.

(6) سبط ابن الجوزي، مرآة،ج8، ق2، ص366؛ النويري، نهاية الأرب، ج27، ص192.

أما حصن كوكب الهوا فقد حاصرهُ المعظّم وانتزعه من نوّاب عز الدين أسامة، وأمرَ بهدمه بعد أن نقل جميع ما فيه من ذخائر [1] إلى حصن الطّور الذي بناه سنة 607هـ/1210م[2]، وأبقى المعظّم على قلعة عجلون ولم يخرِّبها[3]، وهذه الإجراءات التي سلكها المعظّم عيسى تشير إلى حزمه وعلو همّتهِ في الحفاظ على أمن مملكته واستقرارها ، وقد امتدّ اهتمام المعظّم عيسى الى كل أنحاء مملكته، فقد اهتمّ بمنطقة الأغوار، حيث لقيت اهتماماً كبيراً منهُ[4]، وجعل منها مكاناً يقضي فيه وقت شتائه تجنباً لبرد دمشق القارس[5]، سيّما وأنّ منطقة الأغوار تمتاز بانخفاضها عن مستوى سطح البحر، وبارتفاع درجة حرارتها صيفا، واعتدالها شتاء.

امّا الكرك، فقد كان لها مكانة خاصة في نفس المعظّم، إذ كان يتردد عليها كثيراً، وقد اكتسبت تلك المكانة في نفس المعظّم، لأنّها كانت مخزناً لسلاحه وحصناً يحفظه ويحفظ أمواله وأهله[6].واتسمت جميع حصونه وقلاعه بهذه الصفة ،فكانت مخازناً لسلاحه وذخيرته يطلبها وقت حاجته لها[7].

لقد ساعد المعظّم في حفظ أمن مملكته واستقرار حدودها عوامل عدّة، وأهمها سكان مملكته[8]، فقد شكّلوا أبرز عوامل الاستقرار في المملكة، وقدّموا خدمات جليلة للمعظّم عيسى[1] على اختلاف طوائفهم وعقائدهم، مدفوعين بحبهم للمساعدة ضد الغزاة الصليبيين[2]، فقد اعتمد المعظّم عيسى على عدد من النساء الساقطات

---

(1) سبط ابن الجوزي، مرآة،ج8، ق2، ص366.

(2) المقريزي، السلوك،ج1، ق1، ص24.

(3) الداواداري، كنز الدرر، ج7، ص172.

(4) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص172.

(5) المصدر نفسه، ج4، ص172.

(6) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 387.

(7) المصدر نفسه، ج8، ق2، ص 387.

(8) المصدر نفسه، ج8، ق2، ص 387؛ وانظر غوانمة: يوسف حسن درويش، إمارة الكرك الأيوبية، بحث في العلاقات بين صلاح الدين وأرناط ودور الكرك في الصراع الصليبي في = الأراضي المقدسة، الأردن، بلدية الكرك، 1400هـ/1980م، ص186-187. وسيشار إليه فيما بعد، غوانمة، إمارة الكرك.

في عكّا[3]، وكانت نوافذ بيوتهن تقابل جبل الكرمل المطل على عكّا، فكان إذا خرج الصليبيون وعزموا مهاجمة المسلمين في ديارهم، تفتح المرأة نافذتها وتشعل بها شموعاً، فكان عدد الشموع المشتعلة يدلّ على عدد الفرسان، فإذا كانت شمعة واحدة دلّت على مائة فارس، وإن كان العدد مائتين أوقدت شمعتين وهكذا، أمّا حول وجهتهم المقصودة، فإن كانوا يريدون حوران أو ناحية دمشق أو نابلس، فتشير النساء برايةٍ إلى تلك الناحية، وكان الذين يتسلّمون هذه الإشارات في جبل الكرمل يرسلونها بواسطة النّيران المتعارف عليها، حتى تصل إلى المعظّم نفسه سواء أكان في نابلس أم في دمشق.[4]

لقد استعان المعظّم عيسى بالنصارى لدفع خطر الصليبيين، فقد استعان بأحد رجال الدين من متنصّرة العرب الحريصين على مقاومة الغزاة الصليبيين، والذين بذلوا كل ما أمكنهم من خدمات لإخوانهم في العروبة[5]، فذكر سبط ابن الجوزي أن سعد الدين مسعود، والي الشوبك وردَ إليه كتاب من الملك المعظّم عيسى، يطلب فيه أن ينفي راهباً كان يقيم منفرداً في صومعته هناك، فقام الوالي بنفيه استجابةً لأوامر المعظّم عيسى، فغادر الراهب الشوبك إلى جهة غير معلومة، وبعد عام كامل عاد الراهب إلى الشوبك، ومعه كتابٌ من المعظّم عيسى يطلب إلى الوالي فيه أن يعيده إلى مكانه، ويأمر في الكتاب بإحسان معاملة الراهب وإكرامه ويوصي به خيرا[6].

---

(1) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2،ص 387؛ غوانمة، إمارة الكرك، ص187؛ وانظر الخريسات: حنان أحمد محمود، السياسة الأيوبية تجاه الصليبيين(589هـ-648هـ/1193م-1250م)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة مؤتة، 2004، ص40. وسيشار إليه فيما بعد، الخريسات، السياسة الأيوبية.

(2) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 387؛ غوانمة، إمارة الكرك، ص187.

(3) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 387.

(4) المصدر نفسه، ج8، ق2، ص 387.

(5) المصدر نفسه، ج8، ق2، ص 387؛ غوانمة، إمارة الكرك، ص187

(6) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 387.

لقد أثار تصرف الملك المعظم فضول والي الشوبك سعد الدين، وأراد أن يعرف قصة هذا الراهب الذي نُفيَ أولاً ثم أُكرمَ ثانياً، فأرسل في طلب الراهب وسأله عن أمره، فقال له: إنّ المعظّم قد بعثه إلى البحر كي يكشف له أخبار الإمبراطور فردريك الثاني[1].

قام الرّاهب بالمهمة التي أُسنِدَت إليه خيرَ قيام، وأَتى بأخبار الإمبراطور وتحالفهِ مع الملك الكامل ملك مصر ضد أخيه الملك المعظّم عيسى، وقد تظاهر المعظّم بنفي ذلك الراهب إبعاداً للشّك من حولهِ، وعندما عاد الرّاهب إلى دمشق منحهُ المعظّم أرضاً في الشوبك، يعيش منها وأعطاه مائة دينار أخرى[2]. وتعاون الراهب إنّما يوضّح صورة من صور تعاون العرب النصارى مع إخوانهم المسلمين في رحلةِ نضالهم الطويلة ضدّ الصليبيين.

وقد اهتمّ المعظّم بالعلم والعلماء في مملكته، حيث رتّبَ لهم العطاء، فأصبح مقصدهم، وممن قصدهُ العالم والمؤرخ سبط بن الجوزي[3] مؤلف تاريخ مرآة

---

(1) فردريك الثاني Frederick II : إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة، كانت البابوية قد ضغطت عليه للقيام بحملة لاسترجاع الأراضي المقدسة، فتحايل على البابوية للتنصل من قيادة تلك الحملة، وقد أصبح فيما بعد الحامي الشرعي لبيت المقدس وذلك بعد زواجه من بنت ملك بيت المقدس، وقد استنجد الملك الكامل به في أعقاب خلافه مع شقيقه المعظم عيسى، فوجد فردريك فرصته للتحرر من ضغوط البابوية عليه، فقاد حملة إلى الشرق عرفت بالحملة الصليبية السادسة وذلك عام 626هـ/ 1226م. انظر الحموي، التاريخ المنصوري، ص 190؛ رنسيمان، الحروب الصليبية، ج3، ص147.

(2) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص418.

(3) سبط بن الجوزي: يوسف قز اوغلي بن حسام الدين عبدالله كان يكنى بأبي المظفّر ويلقب بشمس الدين التركي نسبة الى الترك البغدادي، ولد ونشا في بغداد، فاكتسب بذلك اسمها، كما لقّب بالدمشقي، وقد اقترن اسمه باسم جده لأمه ابن الجوزي، الذي تمتع بمنزلة عالية عند خلفاء بني العباس، وقد عاصر ابن الجوزي المعظّم عيسى وأرَّخَ له. اليافعي، مرآة

= الجنان، ج4، ص105؛ الحنبلي، شذرات ج5، ص 267؛ وانظر القطامين عليا، سبط ابن الجوزي مؤرخاً للحروب الصليبية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة مؤتة، 2008، ص3. وسيشار إليه فيما بعد، القطامين، سبط ابن الجوزي.

الزمان[1]، كما كان للمعظم عيسى طبيب خاص به عُرف بأبي الفضل بن أبي سليمان، وقد كان طبيباً مشهوراً في صناعة الطب، وعالماً متميزاً في المعالجة والمداواة[2].

5.2 السياسة الداخلية للملك المعظّم عيسى

أظهر المعظّم عيسى قدرة على سياسة الدولة في وقت مبكر، وقد ظهرت السمات الرئيسة لسياسته الداخلية مباشرة، حيث فرض الضرائب، وأعادَ العمل بها بعد أن ألغَاها والده، وسمح للخمر والقيان في دمشق، وبرّر سياسته هذه أمام سبط ابن الجوزي(ت654هـ/1256م)،عندما سأله عن ذلك وأنكره عليه، إلى حاجة الدولة للمال وضرورة زيادة دخلها، من أجل القدرة على الوقوف في وجه الصليبيين[3].

والواضح أن الفقهاء لم يتفقوا مع سياسة الملك المعظّم عيسى هذه، حيث أنكر الشيخ فخر الدين أبو منصور بن عبد الرحمن الدمشقي ابن عساكر [4] إعادة العمل بالخمور، ولم يتقبّل تسويغ المعظّم لإعادة الخمر. وقد بقي في نفس المعظّم عيسى شيء تجاه هذا الشيخ، فقامَ بعزلهِ عن المدرسة التقوية[1] والمدرسة الناصرية[2]. ولم يبق تحت يده سوى المدرسة الجاروخية[3] التي فاقت مصروفاتها ايراداتها[4].

---

(1) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص373.

(2) أبو الفضل بن أبي سليمان: ولد سنة 560هـ/1165م وتوفي سنة 644هـ/1246م، وخدم الملك المعظم، وبعد وفاة المعظم خدم أخاه الملك الكامل وتوفي بالديار المصرية. انظر ابن ابي أصيبعة: موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة السعدي الخزرجي (ت668هـ/1269م)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، 2جزء، المطبعة الوهبية، القاهرة، 1882م، ص123. وسيشار إليه فيما بعد ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء.

(3) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص597؛ وانظر أبو شامة، الذيل، ص113؛ ابن كثير، البداية والنهاية، م7، ج13، ص88.

(4) ابن عساكر: أبو منصور بن عبد الرحمن بن محمد المعروف بفخر الدين، وهو ابن اخ الإمام الحافظ أبي القاسم ابن عساكر صاحب تاريخ دمشق، كان إماما في علمه ودينه،

= درس بالقدس ودمشق، وله العديد من الفتاوي، كما صنف في الفقه. انظر اليافعي، مرآة الجنان، ج4، ص45.

والخلاف بين المعظّم عيسى والفقهاء يؤكّد أنّ العلاقة بين الطرفين لم تكن على وفاق، وأنّ سياسة المعظّم عيسى كانت تقوم على عقاب من يخالفهُ من الفقهاء.

أما علاقة المعظّم عيسى مع رجال الدولة الذين ورِثَهُم عن فترة حكم والده الملك العادل، فقد كانت تقوم على التوتر والصدام بين الطرفين، فقد حدَثَ الصدام الأوّل مع القاضي زكي الدين الدمشقي(5)، ثم مع والي دمشق إبراهيم بن موسى الأمير مبارز الدين العادلي المعروف بالمعتمد(6).

---

(1) المدرسة التقوية: تعد من أَجَلِّ مدارس دمشق، تقع داخل باب الفراديس شمالي الجامع شرقي الظاهرية والاقباليتين بناها الملك المظفّر تقي سنة 574هـ/1178م. النعيمي، الدارس، ج1، ص 162.

(2) المدرسة الناصرية: تقع داخل باب الفراديس شمالي الجامع الأموي وإلى الشمال الشرقي من القيمريّة الصغرى والمقدّميّة الجوّانيّة، أنشاءها الملك الناصر. انظر النعيمي، الدارس، ج1، ص 350.

(3) المدرسة الجاروخية: تقع داخل بابي الفرج والفراديس، وهي لصيقة مدرسة الإقبالية الحنفية، إلى الشمال من الجامع الأموي، وبالقرب من المدرسة الظاهرية الجوانيّة، بناها جاروخ التركماني الملقب بسيف الدين. النعيمي، الدارس، ج1، ص169.

(4) ابو شامة، الذيل، ص135؛ وانظر ابن كثير، البداية والنهاية، م7،ج13، ص109؛ النعيمي، الدارس، ج1، ص169.

(5) حسين بن يحيى القاضي زكي ابن محيى الدّين، كان فاضلا نبيلا وإماما مفتياً، مات شاباً عن سبعة وعشرين عاماً، سنة 669هـ/1270م. الصفدي، الوافي، ج9، ص65؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج6، ص127؛ النعيمي، الدارس،ج1، ص55.

(6) ولد في الموصل، وجاء إلى الشام لخدمة فرخ شاه بن شاهنشاه، وكان هذا والياً على دمشق، وقد استقل إبراهيم بولاية دمشق سنة 602هـ/ 1206م، وقد حَسُنت سياسته مع الرعية،

= فكان عفيفاً، فانتشر الأمان في دمشق أيام ولايته، ونَظُفت من الشر والخمر. سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص640 ؛الصفدي، الوافي، ج6، ص150؛ ابن كثير، البداية والنهاية، م7، ج13، ص90.

وكان القاضي زكي الدين صاحب حشمة، وسطوةٍ، وهيبةٍ، ووقار زمن الملك العادل(1)، وقد نصب الملك المعظّم عيسى له العداء لسببين: أوّلهما يرجع الى سنة 616هـ/ 1219م، حيث طلبت ست الشام(2)عمّة الملك المعظّم عيسى، من القاضي زكي الدين أثناء مرضها أن يكتب لها وصيَّتها، فذهب القاضي إلى ست الشام ومعه شهود وكتب الوصية، فأغضبَ هذا التصرف الملك المعظّم عيسى، حيث اعترض قائلا: " يذهب إلى عمّتي دون إذني"(3)!؟ وظلّ في نفس المعظّم شيء تجاه القاضي(4)، أما ثانيهما فيعود إلى طلب القاضي زكي الدين من الجابي سالم بن عبد عبد الرزاق الخطيب(5) حساب ما جباهُ من العزيزيّة، وقد أغلظَ القاضي للجابي في الكلام وأمرَ بضربهِ، فَحُمِلَ الجابي وضُرِبَ بين يدي القاضي، فأعطت هذه الحادثة للملك المعظّم عيسى الحجّة لعقاب القاضي زكي الدين، فبعث إليه وهو في مجلس حكمهِ ببقجةٍ فيها كلوتة صفراء وقباء أحمر، وكان هذا لباس الجند وقتها، وأمرَ المعظّم عيسى القاضي بلبسهما أمام الملأ، وكان يَقصدُ إهانته والتقليل من شأنه، وإشعاره بأنّه لا يصلح له لباس أهل العلم، وأنه لا يصلح إلا أن يكون جندياً لا

(1) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 645 ؛ الصفدي، الوافي، ج6، ص400؛ ابن كثير، البداية والنهاية، م7، ج13، ص90؛ الحنبلي، شذرات الذهب، ج5، ص80.

(2) سِتّ الشام خاتون أُخت الملك العادل، كانت سيّدة الملكات في عصرها، كثيرة البرّ والصدقات، وكان بابها ملجأ كلّ قاصد، توفّيت سنة 616هـ/1219م، ودفنت بالمدرسة البرّانية. الصفدي، الوافي، ج15، ص71. للمزيد من المعلومات حول الأسرة العادلية في مصر والشام انظر المخطط رقم (2) في قائمة الملاحق.

(3) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 645 ؛الصفدي، الوافي، ج6، ص400؛ ابن كثير، البداية والنهاية، م7، ج13، ص90.

(4) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 645 ؛الصفدي، الوافي، ج6، ص400؛ ابن كثير، البداية والنهاية، م7، ج13، ص90.

(5) الشيخ ابو الرجاء سالم بن عبد الرزاق بن يحيى الخطيب توفي عام 643هـ/1245م وعاش وعاش 74 سنة. الصفدي، الوافي، ج17، ص227.

غيـر [1]،فـاغتَمّ القاضـي زكـي الـدين وحـزِنَ حزنـاً شـديداً حتـى مـات سـنة 617هـ/1220م[2].

أدّى تصرف المعظّم عيسى مع القاضي زكي الدين إلى استياء عامة الناس[3]، ونظَمَ الشاعر ابن عنين شِعراً في تصرفه، ولمّا سمع المعظّم عيسى بالشعر بعث لابن عنين فصوص نرد وزجاجةِ خمر– وكان ابن عنين وقتها منقطعاً في الجامع الأموي– فقال لـه رسول المعظّم: سبّح بهذه الفصوص وافطر على هذا المشروب، فكتبَ ابن عنين للمعظّم:

يَا أَيُّهَا المَلِكُ المُعَظَّمَ سُنَّةً   أَحْدَثْتَهَا تَبْقَى عَلَى الآبَادِ

تَجْرِي الْمُلُوكُ عَلَى طَرِيْقِكَ بَعْدَهَا   خَلْعُ الْقضَاةِ وَتُحْفَةُ الزُّهَادِ[4]

أما الصدام الآخر فكان مع والي دمشق، إبراهيم بن موسى المعروف بالمعتمد، وكان بينه وبين المعظّم عيسى عداءٌ منذ أيّام الملك العادل[5]، سيّما وأنّ المعتمد كان كـان يراقـب المعظّـم عيسـى بـأمر مـن العـادل نفسـه[6]، فكـان المعتمـد يبعـث بغلمانـهِ لمراقبة المعظّم ليلاً وهو شاب[7]، ويبعث بتقاريره عن المعظّم لوالده الملك العادل[8]، العادل[8]، فلمّا مات العادل أظهر المعظّم عيسى عداءَه للمعتمد، فعزله من ولاية

---

(1) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 641؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص170؛ الصفدي، الوافي، ج6، ص400.

(2) الذهبي، العبر، ج5، ص65.

(3) المصدر نفسه، ج5، ص67.

(4) الصفدي، الوافي، ج16، ص400؛ ابن كثير، البداية والنهاية، م7،ج13، ص90.

(5) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص640؛ الصفدي، الوافي،ج6، ص150؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج6، ص248.

(6) الصفدي، الوافي، ج16، ص150.

(7) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ص640؛ الصفدي، الوافي،ج6، ص150؛ ابن تغري بردي، بردي، النجوم، ج6، ص248.

(8) أبو شامة، الذيل، ص151.

دمشق وحبسه وشدد عليه سجنه وذلك سنة 617هـ/ 1220م[1] وأبقاه في سجنه حتى مات عن

عمر يناهز الثمانين عاما[2]. وَولَّى العزيز خليل[3] والياً مكانه.

ويعد الملك المعظّم عيسى من أهم ملوك بني أيوب في الجيل الثاني من دولتهم، خلال الفترة الممتدة من 600- 624هـ/ 1204- 1227م، حيثُ حكَم مملكة دمشق وأعمالها، وكانت تعتبر من أهم الممالك الأيوبية، ولا تقل أهميةً عن الدّيار المصرية مركز سلطة ملوك بني أيوب[4].

وقد تمتَّع الملك المعظّم عيسى بنفوذ خاص داخل مملكته، فكان له قاعدة شعبية واسعة تؤيد سياسته ونفوذه، وقد شملت هذه القاعدة كافة أطياف الناس فكان من ذلك الأمراء والعامة، ويُعبِّر الحموي(ت650هـ /1250م) عن شدة حب الناس للملك المعظّم، فيذكر أنّ "الملك المعظّم عيسى مرض مرضته التي بلغ الموت فيها سنة 623هـ/ 1226م، ولما تحسّنت حالته عمل الناس الهناء وزيَّنوا البلد أحسن زينة بالمغاني وغيرهن، ودام الناس على ذلك ليلاً ونهاراً لمدة عشرة أيام، ووردت عليه الرسل بالهناء من البلاد كافة"[5].

كان الملك المعظّم عيسى يسعى بسياسته إلى استبدال رجال دولة والده برجالٍ من صنيعهِ، يدينون بالولاء والطّاعة له، ولعلّ ذلك ما يفسر سبب صدامه مع رجال دولة أبيه في بدايات تسلُّمهِ للسّلطةِ، وكان يسعى بسياسته إلى الاستقرار في مملكته، وهذا ما شهدته مملكته، حتى غدا الهدوء والاستقرار سمةً طبعت حكم المعظّم عيسى

---

(1) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ص640؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج6، ص248.

(2) الصفدي، الوافي، ج16، ص150.

(3) ابن تغري بردي، النجوم، ج6، ص245.

(4) الحموي، التاريخ المنصوري، ص120؛ وانظر آدم متز، الحضارة العربية الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة عبدالهادي أبو ريدة، القاهرة، بيت المغرب، 1940/1941، ص 380. وسيشار إليه فيما بعد. متز، الحضارة العربية.

(5) الحموي، التاريخ المنصوري، ص120.

6.2 النظام الإداري في مملكة المعظّم عيسى

أبقت الدولـة الأيوبيـة وعبـر مراحـل عمرهـا المختلفـة علـى النّظـام الإداري الـذي وضعه السلطان صلاح الدين الأيوبي، حيث صنّفت تلك الدولة نظامها الإداري إلى ثلاثة أصناف ووزّعت الموظّفين على تلك الأصناف، فكان منهم **أرباب السيوف، وأرباب القلم، وأرباب العلم**، وقد شمل كل صنف من هذه الأصناف أقسامًا وفروعاً أخرى اضطلعت بمهام وشروط خاصة[1].

وقد سارت الدولة الأيوبية وفقا لهذا الترتيب الإداري بعد وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبي، وعندما قسّم العادل مملكته على أبنائه لم يخرج عن هذا الترتيب، وإن بقيَ هو السلطان الأوّل وصاحب السلطة والكلمة الأولى في مملكته، وقد لعب أبناؤه دورَ النوّاب له إذا جاز التعبير، مع خضوعهم لنفس الترتيب الإداري الموجود في مصر مركز السلطة الأيوبية آنذاك[2].

وبوفاة الملك العادل، استقلّ أبناؤه كُلٌ في مملكته فانعكس هذا الاستقلال سلباً على الناحية السياسة والإدارية في الممالك كلّها، وظهر الانقسام جلياً بعد أن كانت شؤون الإدارة تتبع المركز في مصر في كل شيء، ولم يعد للدولة الأيوبية ديوان واحد للإنشاء، بل أصبح لكلّ مملكة ديوان إنشاء خاص بها، وهكذا باقي التقسيمات الإدارية[3].

أمّا فيما يخص النّظام الإداري الذي اتّبعه الملك المعظّم عيسى في إدارة مملكة دمشق وأعمالها، فقد اعتمد على نفس الترتيب الإداري للسلطان صلاح الدين، فقسَّمَ الوظائف في عهده إلى ثلاثة أقسام شملت: الوظائف العسكرية وتتبع أرباب

---

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص5؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص191.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص5؛ متز، الحضارة العربية، ص 85.

(3) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص5 ؛ صفوان طه حسن، تاريخ الأيوبيين والمماليك، ط1، دار الفكر، الأردن، عمان، 1431هـ/ 2010م، ص 98. وسيشار إليه فيما بعد، حسن، تاريخ الأيوبيين.

السيوف[1]. والوظائف الديوانية وتتبع أرباب القلم[2]، والوظائف الدينية وتتبع أرباب العلم[3].

وشملت هذه التراتيب الإداريّة كل ولايات مملكة المعظّم عيسى[4]، فقد قسّم مملكة دمشق إلى وحدات إدارية وفق حجم ما يتبع لها من مؤسسات إدارية، ورغم التفاوت في التنظيم، إلّا أنّ جميع الوحدات الإدارية كانت تتبع المركز في دمشق، لأنّها في الأساس جزء من مملكة المعظّم عيسى في دمشق[5] وابرزها:-

1.6.2 أرباب السيوف: ويتبع هذا التقسيم الإداري الوظائف التالية:-

1.1.6.2 الولاة: ويتمّ تعيينهم من قِبَلِ الملك الأيوبي نفسه[6]، وقد يتم تعيينهم أيضاً من قِبَلِ السلطان الأيوبي بعد فتحه لمنطقة ما أو قلعة معيّنة، ويسبق قرار تعيين الوالي عَرضهِ على الملك، حيث يقوم قاضي العسكر[7] بقراءة قرار التعيين على الوالي، بعد مصادقة الملك عليه، ثم يتعهد الوالي المعيَّن بالولاء للملك والإخلاص له، ويتم منحه إقطاع خاص به كوالي للمنطقة أو القلعة[8].

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص190.

(2) المصدر نفسه ، ج4، ص195.

(3) المصدر نفسه، ج4، ص191.

(4) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص191؛ وانظر الصائغ، ذكرى، عصر الملك الكامل الأيوبي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الموصل، 1409هـ/ 1980م، ص173. وسيشار إليه فيما بعد، ذكرى، عصر الملك الكامل.

(5) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص190. وللمزيد من المعلومات حول مصور بلدان الشام والجزيرة الشامية انظر المخطط رقم (4) في قائمة الملاحق.

(6) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص5.

(7) قاضي العسكر: وظيفة جليلة قديمة كانت في زمن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، أيوب، وكان قاضي عسكره يحضر بدار العدل مع القضاة، ويسافر مع السلطان إذا سافر؛ وهم ثلاثة نفر :شافعيّ، وحنفيّ، ومالكيّ، وليس للحنابلة منهم حظ، وجلوسهم في دار العدل دون القضاة الأربعة. انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص34.

(8) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص201.

وتبرز مهام الوالي في حفظ الأمن وتفقّد الغِلال والميرة[1]، وأحوال الرعية والإشراف على إقطاعه باستمرار، وتنفيذ أوامر السلطان، وسيرة والي دمشق المبارز المعتمد إبراهيم زمن الملك العادل[2]، تقدّم صورةً واضحةً عن مهام الوالي، فقد كان الوالي يقيم الحد الشرعي على المخالفين للشرع، والمتعاطين للخمر، والمتاجرين بها، وقد ذكر سبط ابن الجوزي(ت654هـ/1256م) رواية على لسان المعتمد إبراهيم تشير إلى ذلك حيث يقول:" وحَكَى لِي قال: لمَّا حرَّم الملك العادل الخمر وكنتُ يوماً ببابِ الفَرج، فإذا برجلٍ في رَقَبتهِ طبلٌ وهو يتمايل تَحتهُ، فقلت: أمسِكُوه وَشُقُّوا الطَّبل، فَشقُّوه، وإذا بِداخِلهِ رِكوَةُ خَمرٍ، فَبدَرتُهَا وضَربتَهُ الحَدْ، فقلتُ له: ومِن أينَ عَلِمتْ؟. قال: رأيتُ رِجَليهِ تَلْعَب فَعَلِمتُ أنّه حَاملٌ شيئاً ثقيلاً"[3].

أمّا سكن الوالي أو مقرّهُ فعادةً ما يكون في القلعةِ للسيطرةِ على المدينة كاملةً[4]. وأبرز ولاة المعظّم إبّان فترة نيابته واستقلاله في مملكة دمشق هم:-

1. الأمير عز الدين بن يغمور، تَولّى أمرَ القدس بأمرٍ من الملك المعظّم عيسى خلال الفترة الواقعة ما بين 610هـ- 616هـ/ 1213م- 1219م، وأبرز إنجازاته تجديد الرواق الشمالي للصخرة المشرّفة[5].
2. الوالي حُسام الدِّين سعيد قيماز بن عبدالله المعظَّمِي، تولى ولاية القدس بتكليفٍ من المعظّم عيسى، خلال الفترة الواقعة 604هـ- 610هـ/ 1207- 1223م، وقد عُرف بالزّهد والتدين[6].

---

(1) ابن شداد: بهاء الدين يوسف بن رافع(ت632هـ/1236م)، سيرة صلاح الدين، المسماة النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1979، ص 190. وسيشار إليه فيما بعد، ابن شداد، النوادر السلطانية.

(2) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص635.

(3) المصدر نفسه ، ج8، ق2، ص640.

(4) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص64؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص220.

(5) أبو شامة، الذيل، ص88؛ مقبولة خليل، مدينة القدس في العهد الأيوبي، الجامعة الأردنية، الأردنية، عمان، 1991م، ص70. وسيشار إليه فيما بعد، مقبولة خليل، مدينة القدس.

(6) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص540؛ أبو شامة، الذيل، ص95؛ مقبولة خليل، مدينة القدس، ص68.

3. الوالي العزيز خليل الذي عيّنه المعظّم عيسى بعد أن قام بعزل المبارز المعتمد إبراهيم من ولاية دمشق، خلال الفترة الواقعة 617-619هـ/ 1220-1222م[1].
4. الأمير رشيد الدين بن عبدالله المعظَّمِي، كان والياً على الخليل، تولَّى بناءَ المنارةِ بمقام النبي يونس عليه السّلام وذلك سنة 623هـ/ 1226م[2].

2.1.6.2 صاحب ديوان الجيش" كاتب الجيش": تعد من الوظائف الإداريّة العسكريّة التابعة لأرباب السيوف، ومهام صاحبها الاحتفاظ بقائمة أسماء الجند وإقطاعاتهم[3]، والمسؤول الرئيس عن إقطاعات الدولة، ومتابعة اعمالها[4]، وكان الإقطاع لا يتم إلا بعد موافقته والاطِّلاعِ على ما يُقطَع، وقد ذكر القرشي(ت625هـ/ 1229م) أن أمراء الدولة مع جلالة قدرهم يحتاجون إلى مخاطبة وتلطّف لأجل إقطاعاتهم وأجنادهم وجلب مصالحهم ودفع مضارهم"[5].

وتبرز مهام صاحب ديوان الجيش بتفقّد الجند، ومتابعة أحوالهم[6]، وقد استعمل استعمل الملك المعظّم عيسى الطبيب رشيد الدين علي بن خليفة على ديوان الجيش، وقد مارس مهامه ككاتب للجيش في دمشق، رغم أنّه امتنَعَ عن ذلك في البداية كونه طبيباً، ووظيفة كاتب الجيش تتطلّب القيام بالكتابة والحساب، وهذا ما يشغل رشيد الدين عن طبِّهِ، وقد طلب رشيد الدين من الملك المعظّم بأن يَعفيَهُ من وظيفته.

---

(1) ابن تغري بردي، النجوم، ج6، ص250.

(2) العليمي: قاضي القضاة أبو اليمن القاضي مجير الدين (ت 928هـ/1522م)، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، مكتبة المحتسب، عمان، الأردن، 1973، مطابع دار الجيل، بيروت، لبنان، ج2، ص270. وسيشار إليه فيما بعد، العليمي، الأنس الجليل.

(3) القرشي: عبد الرحيم بن علي بن اسحق بن شبث(ت625هـ/ 1229م)، معالم الكتابة ومغانم الإصابة، تحقيق قسطنطين الباشا المخلص، بيروت، المطبعة الأدبية، 1913م، ص25. وسيشار إليه فيما بعد، القرشي، معالم الكتابة.

(4) القرشي، معالم الكتابة، ص25.

(5) المصدر نفسه، ص25.

(6) المصدر نفسه، ص23.

3.1.6.2 ولاة ونـوّاب القـلاع: مـن الوظـائف العسـكرية التـي تتبـع أربـاب السّـيوف ومهامهم الذود عن تلك القلاع وحمايتها والدّفاع عنها، وعدم تسليمها والحفاظ عليها من كل ما يهدّدها، وقد مُنِحَ ولاة القلاع الأيّوبية صلاحيات واسعة تقوم على تعيين من ينوب عنهم في إدارة شؤون تلك القلاع في حال الخروج منها أو مغادرتها لسببٍ ما[1]، وكثيراً ما كان والي المدينة هو نفسه واليَ القلعة[2].

أما نائب القلعة فتتلخص مهماته بحفظ القلعة وصونها من الأعداء،[3] وقد استعمل الملك المعظّم عيسى البدر الجعبري والياً على قلعة دمشق وبقي والياً عليها حتى وفاة المعظّم عيسى 624هـ/ 1226م[4]. واستعمل المعظّم عيسى الأمير بدر الدين الهكّاري على نيابة قلعة الطّور وقد استشهد فيها سنة 614هـ/1217م بعد حصار الفرنج لها[5]. وأناب المعظّم الأمير عز الدين أيبك المعظّمِي على صَرخد، وقد حصل على إقطاعها فيما بعد من الملك المعظّم عيسى.

وكانت ولاية القلعة تطلق على قلعة دمشق تحديداً، أمّا بقية القلاع فكانت تتبع لنظام النيابةِ، بمعنى أنّ قلعة دمشق قد خضعت لحكم الوالي، في حين أنّ بقية القلاع والأعمال قد خضعت لحكم النّواب، وربما يعود السبب في ذلك إلى كون قلعة دمشق مقراً للجيوش الشّاميةِ، ومن ثمّ فإنّ واليها لا يخرج للحرب، وإنّما يبقى للذود عن القلعة وحمايتها، أما بقية القلاع فتتبَع للنوّاب[6].

---

(1) العماد الأصفهاني: أبو عبدالله محمد بن محمد الأصبهاني(ت597هـ/1200م)، الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق وشرح وتقديم محمد محمود صبح، القاهرة، الدار القومية، 1965م، ص579. وسيشار إليه فيما بعد، الأصفهاني، الفتح القسي.

(2) الأصفهاني، الفتح القسي، ص580؛ مقبولة خليل، القدس، ص63.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى،ج4، ص190.

(4) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص642؛ أبو شامة، الذيل، ص150.

(5) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص590.

(6) الأصفهاني، الفتح القسي، ص580.

4.1.6.2 وظيفة خدمة بيت السلطان: وظيفة عسكرية تقوم على خدمة بيت السلطان فيما يتعلق بالمطابخ والمشارب والحاشية والغلمان، وتسمّى هذه الوظيفة بالأستاذ دار أو استدار وهي لفظة فارسية مكوّنة من مقطعين هما أستاذ: ومعناها الأخذ، ودار: ومعناها الممسك أو المتولي للأَخذ، وقد سمّيَ الاستدار بذلك لأنه يتولّى قبض المال[1]، وهو مسؤول عن كل ما يحتاجه بيت السلطان من نفقات وكسوة وخَدم.

وقد تولَّى خدمة بيت الملك المعظّم عيسى الأمير عز الدين أيبك المعظّمي[2]، الذي اشتراه المعظّم سنة 607هـ/1210م، وتقلَّبَ في المناصب عنده حتى جعله أستاذ داره، وقد أحبّه المعظّم عيسى فكان يؤثِرهُ على أولاده[3]، وبلغ حبه له بأن أقطعهُ صرخد وقلعتها، وبقي عزالدين أيبك في خدمة المعظّم عيسى وخدمة ابنه الناصر داوود من بعده[4] الذي روث مملكة أبيه من بعده.

2.6.2 أرباب القلم: وتضم الوظائف الديوانية التالية:-

1.2.6.2 الوزارة: تعد من أهم الوظائف الديوانية في الدولةِ الأيوبية، وقد عُرفت الوزارة كوظيفة ديوانية قبل الدولة الأيوبية، وعلى الرغم من نفوذ الوزراء قبل الدولة الأيوبية، غير أنّ نفوذهم تقلّصَ أيام الدولة الأيوبية، وربما يعود ذلك لاستحداث منصب النائب في الدولةِ الأيوبية، حيث أَثَّرَ هذا المنصب في صلاحيات الوزراء الممنوحة لهم[5]، سيّما وأنّ النّواب في الفترة الأيوبية معظمهم من أقارب السلطان المقرّبين أو حاشيتهِ المقرَّبة، ولذلك فإنّ صلاحيات الوزير في الفترة الأيوبية وُزِّعت على عدة وظائف، فانتقلت مسؤولية أموال الجيش إلى ناظر الجيش، وتَدخَّل ناظر

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى،ج5، ص429؛ حلّاق وصبّاغ، المعجم الجامع، ص17-18.

(2) ابن كثير، البداية والنهاية، م7، ج13، ص70.

(3) المصدر نفسه، م7، ج13، ص70.

(4) الناصر داوود: هو ابن الملك المعظم عيسى، استلم حكم دمشق والكرك بعد وفاة والده المعظم، وتوفي عام 656هـ/1257م. انظر الصفدي، الوافي، ج9، ص48.

(5) العمري، مسالك الإبصار، ص59.

الجيش في صلاحيات الوزير، ونافسهُ في النّظر في الأرزاق والشؤون المالية ومراقبة أصحاب القلم والموظفين(1)، وقد تولّى الوزارة للملك المعظّم عيسى جمال الدين بن شكر (2)، أمّا جمال الدين عبد الرحيم القرشي(3) فقد تسلّمَ وظيفة كاتب إنشاء للملك المعظّم عيسى في دمشق، ثم توَلّى له الوزارة بعد ذلك(4)، والرّاجح أن هناك علاقة بين وظيفة كاتب الإنشاء والوزارة، حيث يذكر السيوطي:" إنّ كتابةَ الإنشاء منوطة بالوزارة، فكاتب الإنشاء يجب أن يكون قد بلغ منصب الوزارة، وربما جمع بين الوظيفتين"(5).

ومنح المعظّم عيسى الطبيب فخر الدين بن رضوان ابن الساعاتي(6) لقب وزير، وكان لقبه وزيراً لقباً فخرياً لأن الوزير في تلك الفترة لم تكن له صلاحيات محدّدة(7).

واتخذ المعظّم عيسى من ابن عنين(8) كاتباً له، ثمّ ولّاهُ الوزارة سنة 623هـ/ 1226م، واستمرّ فيها حتى عهد النّاصر داوود(9).

---

(1) المقريزي، السلوك، ق1، ج1، ص53.

(2) عبد الوهاب بن عبدالله بن علي الوزير جمال الدين أحمد بن الصاحب الوزير صفي الدين بن شكر، كان من وزراء المعظّم عيسى، وتوفّي سنة 623هـ/1226م. النعيمي، الدارس، ج2، ص435.

(3) عبد الرحيم بن علي بن اسحق المصري القرشي، شغل وظيفة كاتب للإنشاء بديوان مصر أيّام الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين. ابن الشعار، قلائد الجمان، ج3، ص 325.

(4) ابن الشعار، قلائد الجمان، ج3، ص 325.

(5) السيوطي، حسن المحاضرة،ج2، ص145.

(6) طبيباً فاضلاً جمعَ بينَ الطّب والأدب، كما عَرفَ المنطق والحكمة، وقرأ الأدب على يد تاج تاج الدين الكندي بدمشق، خدم الملك العادل والملك المعظّم عيسى. القلقشندي، صبح الأعشى،ج5، ص471.

(7) القلقشندي، صبح الأعشى،ج5، ص471.

(8) أبو المحاسن محمد بن نصر الدين بن الحسين بن عنين الزرعي، وهو من حوران، كان كاتباً عند المعظّم عيسى. ابن تغري بردي، النجوم، ج6، ص295.

(9) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص240.

2.2.6.2 كاتب السّر" صاحب ديوان الإنشاء": تعد من الوظائف الديوانية، ومهام صاحبها النّظر في الرسائل الواردة للملك أو الصادرة عنه، ولا يقتصر دوره على القراءة فقط، بل يتعدّى إلى الرد على تلك الرسائل والإجابة عليها، وأَخْذِ توقيع ولي الأمر عليها، والإعلان عن المراسيم الصادرة عن الملك، والنّظر في شكاوي العامة، والجلوس لسماعها قبل رفعها إلى صاحب الأمر أو الملك(1). ويعد كاتب السّر بمنزلة الحافظ لأسرار الدولة والملك، والمطّلع على ما يرد من رسائل للملك وما يصدر عنه(2). وأهم من تولى الإنشاء للملك المعظّم عيسى جمال الدين بن شيث الأسناني(3)، وكانت علاقته بالمعظّم عيسى حسنة وبينهما ودٌ واحترام، وكان بارعاً في الإدارة وألّفَ كتاباً فيها عُرفَ باسم معالم الكتابة ومغانم الإصابة(4). وعيّنَ المعظّم عيسى نديمهُ وجليسَهُ الشاعر والكاتب فخر القضاة الناصري(5)على ديوان الإنشاء.

3.6.2 أرباب العلم: وتشمل الوظائف الدينية التالية:

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص112.

(2) النعيمي، الدارس، ج2، ص235.

(3) عبد الرحمن بن علي بن الحسين بن شيث جمال الدين الأموي القرشي الأسناني القوصي، نسبة إلى أسنانة التي ولد فيها سنة 557هـ/1162م، توفي سنة 625هـ/1228م. الصفدي، الوافي،ج8، ص375؛ النعيمي، الدارس، ج2، ص240.

(4) أبو شامة، الذيل، ج2، ص375؛ الصفدي، الوافي،ج8، ص375؛النعيمي،الدارس،ج2، ص240.

(5) نصر بن هبة الله بن محمد بن عبد الباقي فخر القضاة أبو الفتح بن بصاقة الغفاري المصري الحنفي الناصري، ولدَ في قوص سنة 579هـ/1183م،، وتوفيَ في دمشق سنة 650هـ/1252م. الكتبي، فوات الوفيات، ج4، ص187؛ النعيمي، الدارس،ج2، ص 325.

1.3.6.2 قاضي العسكر: وهي من الوظائف الدينية الهامّة، يُلازم صاحبها الملك في أسفاره، ويجالس صاحبها القُضاة أثناء الحكم[1]، وقد كان هناك قاضيان للعسكر في الشام[2]، أحدهما شافعي والآخر حنفي[3]. وممّن وَليَ قضاء العسكر زمن الملك المعظّم عيسى القاضي نجم الدين خليل الحموي[4].

2.3.6.2 قاضي القضاة: وهذه الوظيفة من أهم الوظائف الدينية التي عُرفت زمن الدولة الأيّوبية، ومهام صاحبها النّظر في الأحكام الشرعية، والفصل في الخصومات بين المتنازعين، وإقامة الحدود على المخالفين، وتعيين النوّاب عن الملك، وتعد وظيفة قاضي القضاة من أرفع الوظائف الدينية رتبةً وأعلاها منزلةً[5]، ثم ما لبثت هذه الوظيفة أن تطوّرَت، حتى أصبح هناك قاضٍ لكلّ مذهب من المذاهب الأربعة، بعد أن كان ذلك مقتصراً على المذهب الحنفي فقط. وابرز القضاة الذين استعملهم الملك المعظّم القاضي جمال الدين المصري[6]، وكان وكيلاً لبيت المال، ثم اشتغل بالتّدريس في المدرسة الأمينية[7]. وقد خلَفه في منصب قاضي القضاة القاضي شمس الدين الخوئي[1]، الذي كان حنفي المذهب[2].

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص35.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص140.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص196.

(4) نجم الدين خليل الحموي: خليل بن علي بن الحسن، جاء إلى دمشق ودرس فيها الفقه، وخدم عند الملك المعظّم عيسى في الزنجارية وتوفي سنة 641هـ/1244م. أنظر الصفدي، الوافي، ج13، ص395.

(5) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص35.

(6) جمال الدين المصري: يونس بن بدران بن فيروز المصري(ت 623هـ/1226م) تولّى القضاء بعد القاضي ابن زكي، وكان فقيهاً كثير الإشتغال بالعلوم الدينية، ومن آثاره اختصاره لكتاب الأم للإمام الشافعي. انظر أبو شامة، الذيل، ص150؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص170؛ ابن كثير، البداية والنهاية، م7، ج13، ص120؛.

(7) المدرسة الأمينية: أوّل مدرسة بنيت بدمشق للشافعية، بناها أتابك العساكر بدمشق، وكان يقال له أمين الدولة، وقال ابن شداد بانيها أمين الدولة ربيع الإسلام، وقال الذهبي في

3.3.6.2 وكيل بيت المال: وهذه الوظيفة تتبع أرباب العلم، ومهمة صاحبها متابعة مبيعات بيت المال ومشترياته من أراضٍ ونحوها[3]، وتنظيم قائمة بأصحاب الأجور والرواتب[4]، وما يرد لبيت المال وما يصرف منه، وجمال الدين المصري ابرز الشخصيات التي تولّت وكالة بيت المال للملك المعظّم عيسى[5]، وذلك قبل أن يتولّى القضاء[6]، ويذكر النعيمي(ت978هـ/ 1182م) أن المصري لم يحسن السيرة في وكالة بيت المال[7].

4.3.6.2 التّدريس: لقد حرص ملوك بني أيوب على اختيار المدرّسين أصحاب المعرفة والعلم[8]، سيّما وأنّ مهمّة المدرّسين تدريس الفقه والحديث والتفسير والنحو واللغة وغيرها، وتعيينهم لم يكن مقتصراً على الملك أو السلطان[9]، وانّما كان من

مختصر تاريخ الإسلام أنها بنيت في سنة ثلاثين وخمسمائة، وفيها وَليَ أتابكية عسكر دمشق أمين الدين. انظر النعيمي، الدارس، ج1، ص132.

(1) أبو العباس بن خليل بن سعادة بن جعفر بن عيسى، من مدينة خوي، عالماً بالعلوم الفقهية عارفاً بأصول الطب (ت 637هـ/ 1240م)، صنّفَ في النحو، وله كتاب آخر اشتمل على رموز طبية وضعَهُ للملك المعظّم عيسى. ابن أبي أصيبعة، طبقات الأطباء، ص145.

(2) ابن أبي أصيبعة، طبقات الأطباء، ص145؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص170.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى،ج4، ص35.

(4) القرشي، معالم الكتابة، ص25.

(5) المصدر نفسه، ص26.

(6) أبو شامة، الذيل، ص130؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص170؛ النعيمي، الدارس، ج1، ص185.

(7) النعيمي، الدارس، ج1، ص185.

(8) ابن تغري بردي، النجوم، ج7، ص39.

(9) النعيمي، الدارس،ج1، ص620.

صلاحيات صاحب الأمر في المنطقة التي يتعيّن فيها المدرّس[1]. ولم يكن يتولّى هذه الوظيفة إلا من عَلا شأنه.

وكان سبط ابن الجوزي حنفي المذهب، قد استلم وظيفة التّدريس زمن الملك المعظّم عيسى[2]، فقد ولّاه التدريس بالمدرسة الشبليّة[3]، وكان يحضر دروسه فيها شيوخ وأعيان وقضاة دمشق[4]. كما برز اسم الشيخ جمال الدين الحصري[5] كمدرّس كمدرّس زمن الملك المعظّم، وكان المعظّم نفسه يحضر دروسه، وتولّى رياسة الحنفيّة في دمشق أيّام المعظّم عيسى[6]، حيث حاز على حب المعظم واحترامه [7]، [7]، وقد ولّاه التدريس في المدرسة النّورية[8] سنة 611هـ/ 1214م[9]. كما برز اسم اسم الشيخ نجم الدين خليل كمدرّس خدم الملك المعظّم عيسى[10]، وكذلك العلّامة

---

(1) أبو شامة، الذيل، ص145؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج7، ص39 النعيمي، الدارس، ج1، ج1، ص620.

(2) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص654؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج7، ص39.

(3) المدرسة الشبليّة: بناها شبل الدولة حسام الدين لاجين(ت587هـ/ 1161م)، وأول من درس درس بها السيخ صفي الدين السنجاري. انظر سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص640؛ = أبو شامة، الذيل، ص145ابن شداد، الأعلاق الخطيرة،ج2، ص227؛ النعيمي، الدارس،ج1، ص532.

(4) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص640؛ ابن كثير، البداية والنهاية، م7،ج13، ص120.

(5) محمود بن أحمد العلامة جمال الدين وهو من شيوخ الحنفية، وأصل هذا الشيخ من قرية حصير في بخارى؛ أبو شامة، الذيل، ص145؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج7، ص39 النعيمي، الدارس، ج1، ص620.

(6) ابن كثير: البداية والنهاية، م7، ج13، ص160؛ النعيمي، الدارس، ج1، ص620.

(7) النعيمي، الدارس، ج1، ص620.

(8) المدرسة النوريّة: أنشأها الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بن آق سنقر رحمه الله تعالى في سنة 563هـ/1167م. انظر أبو شامة، الذيل، ص86 النعيمي، الدارس،ج1، ص466.

(9) أبو شامة، الذيل، ص86 النعيمي، الدارس،ج1، ص466.

(10) ابن تغري بردي، النجوم، ج6، ص345.

سيف الدين الآمدي الشافعي[1]، ووالد المؤرخ ابن واصل الذي ولاّهُ المعظّم عيسى التدريس في المدرسة الصّلاحية النّاصرية في القدس[2].

5.3.6.2 شيخ الشيوخ: ومهمّة صاحبها متابعة شؤون الفقراء بدمشق وأعمالها[3]، وأعمالها[3]، والتواصل مع الزهاد والمتصوّفة والوقوف على حاجاتهم[4]. وقد تولّى هذه الوظيفة للملك المعظّم عيسى كلٌّ من الصدر البكري[5].والحافظ الدمشقي الصّوفي[6].

6.3.6.2 المحتسب: وظيفة تتبع أرباب العلم، وقد نشطت في الدولة الأيّوبية، ومهام المحتسب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإصلاح بين الناس،

---

(1) سيف الدين الآمدي الشافعي: قَدِمَ إلى دمشق من حماة، واستقبله المعظّم عيسى، وأحسن وفادته وولاّه المدرسة العزيزية للتدريس فيها. انظر ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص140.

(2) المدرسة الصّلاحية النّاصرية: تقع بالقرب من البيمارستان النوري، بناها نور الدين محمود بن زنكي الشهيد، ونسبت إلى الملك النّاصر صلاح الدين فاتح بيت المقدس.انظر ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص140؛ النعيمي، الدارس، ج1، ص250.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى،ج4، ص200.

(4) النعيمي، الدارس، ج2، ص131؛ محي الدين هلال، الربط الإسلامي، بحث منشور، مجلة مجلة المورد،، ج14، العدد الخامس،2001،ص 75. وسيشار اليه فيما بعد محي الدين هلال، الربط الإسلامي.

(5) الصدر البكري: أبو علي حسن بن محمد بن حمد بن عمروك التميمي النيسابوري، تولّى مشيخة الشيوخ للملك المعظّم عيسى إبّان حكمه لدمشق. انظر النعيمي، الدارس، ج2، ص155.

(6) الحافظ الدمشقي الصوفي: ولد سنة 574هـ/ 1178م، وشَغَلَ مشيخة الشيوخ للمعظّم عيسى، وكان بينهما ود واحترام، غادر دمشق بعد وفاة المعظم عيسى وتوجّه إلى مصر ومات فيها سنة 656هـ.انظر ابن كثير، البداية والنهاية، م7، ج13، ص110؛ النعيمي، الدارس، ج2، ص155.

ومعاقبة الخارجين على القانون[1].وقد تولّى الحسبة للملك المعظم عيسى الصدر البكري، كما تولّى منصب شيخ الشيوخ للمعظم[2].

7.3.6.2 شيوخ المشاهد: وهذه الوظيفة تُعنَى بالمشاهد، أو مشاهد المساجد، وتقوم على متابعة ما يقام على القبور، وأهم الشّيوخ الّذين مارسوا هذه الوظيفة في عهد الملك المعظّم عيسى الشيخ سيف الدين بن عروة الموصلي[3]، والشيخ تقي الدين المصري[4]،والحافظ الزكي البرزالي[5].

7.2 منجزات المعظم عيسى

أولَى الأيوبيون مصر والشام أهميةً خاصة من حيث العمران والبناء، وانتشار العمائر العسكرية والمدنية والثقافية شاهدٌ على إنجازاتهم، ولعلّ اهتمامهم بالعمران العسكري جاء نتيجةً حتميةً لمخاوفهم من التواجد الصليبي في المنطقة، ودفاعاً عن أنفسهم وحدودهم من هجمات الصليبيين[6]، أمّا اهتمام بني أيوب بالعمران الثقافي

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى،ج4، ص35.

(2) النعيمي، الدارس، ج2، ص150.

(3) سيف الدين محمد بن عروة الموصلي (ت 620هـ/ 1223م)، وينسب إليه مشهد ابن عروة بالجامع الأموي، وهو أول من فتحه، وبنى فيه بركة، كان من خوّاص الملك المعظم عيسى، = انتقل إلى دمشق بعد خراب القدس وتوفي فيها. انظر ابن كثير، البداية والنهاية، م7، ج13، ص110.

(4) خزعل بن عسكر بن خليل، العلّامة تقي الدين أبو المجد المصري النحوي، كان شيخاً فاضلاً، جاء إلى دمشق في أعقاب خراب القدس سنة 615هـ/1217م. انظر الصفدي، الوافي، ج13، ص310.

(5) محمد بن يوسف بن محمد الحافظ الرحال زكي الدين أبو عبدالله البرزالي، ولد سنة 597هـ/ 597هـ/ 1201م، وتولّى مشيخة مشهد بن عروة في دمشق، وتوفي سنة 636هـ/1239م. انظر الصفدي، الوافي، ج5، ص250.

(6) ابن الفرات، تاريخه، م5، ص107. وللمزيد من المعلومات حول مصور بلدان الشام والجزيرة الشامية انظر المخطط رقم (4) في قائمة الملاحق.

كالمدارس والقباب، فيبدو أنّه نابع من حرصهم على العلم والعلوم، وفيما يتعلق بالعمران الآخر كالفنادق والبرك والطرق والقيساريات والمصانع، فمن الرّاجح أنه يعود لاهتمامهم بالتجارة، ولذلك فهم حريصون على الاهتمام بالطرق وتأمينها وتزويدها بما يلزم من خدمات، ولعلّ موسم الحجّ لعب دوراً في هذا المجال(1).

ويمكن تقسيم منجزات المعظّم عيسى في العمران إلى ثلاثة أقسام. العمران العسكري ويشمل القلاع والخنادق والأبراج والأسوار. والعمران الثقافي ويشمل المدارس والزوايا والقباب. وعمران الفنادق والقيساريات والبرك والطرق.

1.7.2 العمران العسكري: ومن أبرز العمائر العسكرية في عهد المعظّم عيسى

1.1.7.2 قلعة الطور: تقع على رأس جبل منيع بالقرب من عكا(2)، وقد قامت على أنقاضِ قلعة افرنجيةٍ كانت سابقاً على هذا الجبل(3)، وكان الهدفُ من بنائها الإشرافُ على الناصرةِ التي كانت تابعةً للفرنج الصليبيين(4)، ومنعهم من استخدامها نقطةَ انطلاقٍ لتهديدِ المناطق الإسلامية الداخلية، إضافةً إلى الإشرافِ على منطقة الجليل لحمايتها من غارات الفرنج(5).

---

(1) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق 2، ص545؛ وانظر عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص 912.

(2) ابن الفرات، تاريخه، م5، ص107. وللمزيد من المعلومات حول مصور بلدان الشام والجزيرة الشامية انظر المخطط رقم (4) في قائمة الملاحق.

(3) ابن واصل، مفرج الكروب،ج3، ص215.

(4) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق 2، ص545؛ الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان(ت748هـ/1374م)، كتاب دول الإسلام، مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ط2،ج2، ص84. وسيشار إليه فيما بعد، الذهبي، دول الإسلام.

(5) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق 2، ص545 ؛ وانظر سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ط3، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1976،ج2، ص 912. وسيشار إليه فيما بعد، عاشور، الحركة الصليبية. وللمزيد من المعلومات حول مصور بلدان الشام والجزيرة الشامية انظر المخطط رقم (4) في قائمة الملاحق.

وقد لَعِبَ موقع القلعة الاستراتيجي دوراً في طلب الفرنج للصلحِ مع المسلمين، حيث تنبّهوا للخطر الذي تشكّلهُ القلعة، إذا ما تمّ استخدامها من قِبَل المسلمين كقاعدة للعمليّات العسكريّة، على مناطقِ نفوذهم في الساحل وخاصّةً عكا[1]. مما حدا بهم لتوقيع معاهدة صلحٍ مع الملك العادل استمرت ست سنوات من(608-614هـ/ 1211-1217م[2]).

وتعد قلعة الطّور من أهم القلاع التي بنيت في عهد المعظّم عيسى، حيث باشر بناءها أثناء وجوده على نيابة دمشق عام 607هـ/1211م. وعلى الرغم من أن بناءَها كلّف مبالغ كبيرة، إلا أن المعظّم قام بهدمها عندما اضطرته الظروف إلى ذلك، حيث أزال آثارها كاملةً سنة 615هـ/1220م[3]، وذلك بعد خشية المعظّم من استيلاء الفرنج عليها[4]. سيّما وأنّها قريبة من عكا وتشكّل تهديداً وخطراً عليه[5]، وقد وقد تم نقل ذخائر القلعة وعتادها وجميع ما فيها الى القدس وعجلون والكرك[6]، وقد قام الملك المعظّم عيسى بتخريب بانياس[7] وتبنين[1] بأمرٍ من والده العادل وذلك لنفس أسباب تخريب قلعة الطور[2].

---

(1) ابن الفرات، تاريخه، م5، ص107.

(2) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق 2، ص545؛ عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص 912.

(3) ابن لقلق: كيرلس الثالث 1263/1216م، تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، 4مجلدات، نشر انطوان خاطر، د.ازولد نورمستر، القاهرة، 1974، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، م4،ج1، ص57. وسيشار إليه فيما بعد، ابن لقلق، تاريخ بطاركة.

(4) الدواداري، كنز الدرر،ج7، ص195 ؛ المقريزي، السلوك،ج1، ق1، ص24.

(5) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص323.

(6) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص323.

(7) بانياس: مدينة بانياس تقع على سفح جبل مرمون في الشمال الغربي لمنطقة القنيطرة في منطقة الجولان، في أقصى الجنوب الغربي من سوريا متاخمة للحدود الفلسطينية، انظر أبو الفدا: عماد الدين إسماعيل بن علي (ت732هـ/1331م)، تقويم البلدان، طبع بمدينة درسدن المحروسة،1846م، ص36. وسيشار إليه فيما بعد، أبو الفدا، تقويم البلدان. ص 36؛ أبو حجر، الموسوعة، ص178، 198.

2.1.7.2 برج القلعة بالقدس: ويقع في الجهة الشمالية الغربية للقدس[3]، داخل باب الخليل[4]. ويعد من أهم معالم مدينة القدس، ويطلق عليه اسم القلعة أو قلعة باب الخليل أو قلعة القدس[5]، ويعود أوّل بناء في الموقع إلى القرن الثاني قبل الميلاد، حيث توجد آثار لسور المدينة الإغريقي[6]، ثمّ أُضيفَ للبناء العديد من التحصينات الضخمة المتمثلة بثلاثة أبراج ضخمة لتحصين مدخل المدينة[7]، وتمّ اختيار مكان القلعة بعناية فائقةٍ، فالقدس محصّنة بموانع طبيعة من عدة جهات، وتفتقر إلى ذلك في جهتها الغربية، لأنّها منطقة مرتفعة ومشرفة على جميع نواحي المدينة[8]، ويعد برج القلعة من أهم الآثار التي تركها المعظّم عيسى في الشام، أثناء نيابته عن والده الملك العادل، وما يُلفت الإنتباه في هذا البرج تلك العبارة المكتوبة عليه" بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله محمد رسول الله، عمل هذا البرج المبارك مولانا شرف الدنيا والدين أبو المظفّر عيسى بن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب بن شاذي والحمد لله رب العالمين سنة 610هـ"[9].

---

(1) تِبْنِينْ: بلدة في جبال بني عامر المطلّة على بلد بانياس بين دمشق وصور، انظر الحموي، معجم،ج2، ص14؛ أبو حجر، الموسوعة، ص222.

(2) الذهبي، العبر،ج5، ص53؛ وانظر اليافعي، مرآة الجنان،ج4،ص29.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص211.

(4) المصدر نفسه، ج4، ص211.

(5) المصدر نفسه، ج4، ص211.

(6) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة،ج2، ق 2، ص171.

(7) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة،ج2، ق 2، ص171.

(8) أبو الفدا، تقويم البلدان، ص129عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص 971.

(9) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة،ج2، ق 2، ص86؛ وانظر يوسف، أحمد حمد عبد، القدس من العهد الراشدي وحتى نهاية الدولة الأيوبية، دائرة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1982، القدس، ص 300. وسيشار إليه فيما بعد، يوسف، القدس.

3.1.7.2 قلعة عجلون[1]: وفيها يظهر جُهد المعظّم عيسى في تجديد القلعة، وذلك وذلك من خلال مملوكه عز الدين أيبك المعظمي، وقد شمل هذا التجديد كل من البوابتين الخارجيتين للقلعة، كما اشتمل على بناء البرج الجنوبي فيها، ويؤَرّخ أحد النقوش عليها لسنة 611هـ/1214م، ويظهر عليه اسم عز الدين أيبك المعظمي أستاذ دار الملك المعظم[2].

4.1.7.2 قلعة السلط: تقع إلى الشمال الغربي من عمان، على بعد 30 كم[3] على على إحدى جبال الغور الشرقي[4]، مبنية على قمة جبل يسمَّى رأس الأمير وتشرف على منطقة الغور[5]، بناها الملك المعظّم عيسى الأيوبي، وبالغ في تحصينها [1].

---

(1) وتسمى قلعة صلاح الدين، بناها القائد عز الدين أسامة، بأمر من صلاح الدين الايوبي سنة 580هـ/1184م، لتكون نقطة ارتكاز لحماية المنطقة، والحفاظ على خطوط المواصلات وطرق الحج بين بلاد الشام والحجاز، لإشرافها على وادي الأردن، وتحكمها بالمنطقة الممتدة بين بحيرة طبريا والبحر. وكان الهدف من بنائها هو الحيلولة دون انتشار القوات الصليبية في منطقة عجلون، ولحماية الطرق التجارية مع دمشق وشمال سوريا من تدخل الفرنج ومنعهم من أي توسع في المنطقة الواقعة شرقي نهر الأردن. وبنيت القلعة على جبل بني عوف بالقرب من مدينة عجلون، واقيمت بمواجهة حصن كوكب الهوى لرصد تحركات الفرنج وتنقلاتهم آنذاك. ومن ثم للسيطرة على مناجم الحديد التي اشتهرت بها جبال عجلون، وزُوّدَت القلعة عند بنائها بأبراج، مربعة اقيمت عند زوايا البناء وفتحت في جدرانها السميكة حلقات للسّهام واحيطت من الخارج بخندق يبلغ متوسط عرضه(16) م ويتراوح عمقه من 12-15 متر استعمل كحاجز يحول دون الوصول والاقتراب من الجدران

= السميكة، وأُضيفَ إلى القلعة اجزاء أخرى في عهد الولاة والحكام الذين قاموا بإدارة أمور المنطقة ومنهم المعظّم عيسى، انظر ابن شداد، الأعلاق الخطيرة،ج2، ق 2، ص86-91؛ أبو الفدا، تقويم البلدان، ص129، 143؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص109.

(2) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة،ج2،ص81؛ وانظر العمري، المسالك والممالك،ج2، ص118 ص118

(3) أبو الفدا، تقويم البلدان، ص 143؛ ابو حجر، الموسوعة، ص16.

(4) أبو الفدا، تقويم البلدان، ص 143؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص89- 90.

(5) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة،ج2، ق 2، ص171.

وينبع من أسفلها نبع غزير المياه تجري مياهه وسط البلدة، يحيط بها كثير من البساتين التي ينمو فيها مختلف أنواع الفواكه[2].

وتتحكم القلعة بالطرق التجارية، وتسيطر على منطقة الأغوار، ولعبت دوراً هاماً في مرحلة الصراع الأيوبي الفرنجي[3]، وتبرز أهميتها بوقوعها على الطريق التجاري وطرق الحج الشامي، حيث سيطرت على طرق ومحطات الحجاج والاستراحات وبرك الماء[4]، وتعد من أهم النشاط العمراني العسكري للملك المعظّم عيسى، ويعود سبب بناء هذه القلعة إلى رغبة المعظّم في تحصين تلك المنطقة، سيّما وأنّه تناهى لأسماعهِ تعرُّض بعض جواريه للسبي أثناء مرورهن من منطقة السلط، فلما سمع بذلك أمر ببناء قلعة السلط، وهاجم المعتدين على جواريه[5].

5.1.7.2 خندق باب السّر: أمر المعظّم عيسى بحفر خندق يحيط بقلعة دمشق عام613هـ/1216م، وقد سمّي ذلك الخندق باسم" خندق باب السّر"، وكان المعظّم يشارك في حفر الخندق بقصد تشجيع العامّة على العمل، فأقبَل العامّة على العمل بجدٍ واجتهاد حتى تمّ انجاز حفر الخندق حول القلعة.

ويصوّر أبو شامة تفاصيل حفر الخندق، حيث ذكر أن المعظّم شرعَ في حفر خندق باب السّر المقابل لدارهِ العتيقة المجاورة لنهر بانياس، وذلك في شهر محرّم من عام 613هـ/ 1216م، وكان المعظّم ومماليكه وعسكره ينقلون التراب، فيأخذ كلَّ واحد قفّةً ويجعلها على قربوس سرجهِ، ويمضون جميعاً مع المعظّم نحو الميدان

---

(1) المصدر نفسه، ج2، ق2، ص83 ؛ وانظر العمري، المسالك والممالك، ص118؛ جونز، مدن بلاد الشام، ص162.

(2) أبو الفدا، تقويم البلدان، ص 143؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص89- 90.

(3) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة،ج2، ق 2، ص83-85.

(4) ابن شاهين، غرس الدين خليل بن شاهين (ت: 873 هـ/1468م) زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تحقيق بولس روايس، المطبعة الجمهورية، باريس،1893، ص120. وسيشار إليه فيما بعد، ابن شاهين، زبدة كشف الممالك.

(5) أبو الفدا، تقويم البلدان، ص136؛ جونز، مدن بلاد الشام، ص181.

الأخضر يفرغون القفاف ويرجعون، ويفعلون ذلك كل يوم، وانضمّ إليه أخوه الملك الصالح إسماعيل وعامّة الناس، وكان العمل مقسّم كل يوم على طائفةٍ من أهل البلد، حتى عمل فيه الفقهاء والصّوفية، ونُظِمَت في ذلك الأشعار التي كان يُتَغنّى بها في الأسواق وتحت القلعة[1]. وقد وُجِدَ نقشٌ يدلّ على أنّ المعظّم جدّد سور قلعة دمشق وخندقها عام 623هـ/1226م، وقد تضمّن النقش العبارات التالية:

وما النّصرُ إلاّ مِن عندِ الله العزيز الحكيم

أمر بتجديد هذا السور المبارك والخندق مولانا

السلطان الملك المعظم العادل العالم المجاهد

شرف الدين والدنيا سلطان الإسلام والمسلمين

في العدل في العالمين عيسى بن المولى السلطان

الشهيد الملك العادل أبي بكر أيوب خلد الله ملكه

تقربا إلى الله وابتغاء مرضاته بتولي العبد الفقير

إلى رحمة ربه محمد بن قرسق المعظمي

وذلك في سنة ثلاث وعشرين وستمائة[2]

ومن القلاع التي أولاها المعظّم عيسى صيانةً وترميماً قلعة الأزرق، حيث رمّمَها واعتنى بها مملوكه الأمير عز الدين أيبك. وذلك بأمر من المعظّم نفسه[3]، وعلى ما يبدو أن الأمير عز الدين كان يحكم منطقة الأزرق، استناداً إلى دلالات

---

(1) أبو شامة، الذيل، ص92.

(2) ايليسيف، نيكيتا، مساهمة في دراسة حكم الملك المعظّم عيسى، تعريب وتلخيص عدنان البني، مجلة الحوليات الأثرية السوريّة، 1955/1954، ص4. وسيشار إليه فيما بعد، ايليسيف، حياة المعظم.

(3) لانكستر، هاردنج، آثار الأردن، تعريب سليمان الموسى، ط2، عمان، 1971، ص 185. وسيشار إليه فيما بعد، هاردنج، آثار الأردن.

النقش الموجود فوق عتبة الباب الرئيس لقلعة الأزرق[1]، حيث يؤرّخُ هذا النّقش لسنة 610هـ/1213م ولغاية 635هـ/ 1238م. [2]

جاء الاهتمام الأيوبي بالعمران العسكري جرّاءَ الظروف الخارجية التي أحاطت بدولتهم، وقد تمثّلت بالخطر الصليبي وما شكّلته ممالكهم في بلاد الشام من تهديد حقيقي على دولة بني أيوب. بهجماتهم الصليبية المتكررة على أراضي الدولة الأيوبية، وقد أدّى هذا إلى الاهتمام بالعمران العسكري، الذي تَمثّل بالحصون والقلاع والخنادق والأبراج والأسوار، وذلك لدفع الخطر الصليبي، والوقوف في وجه تلك الأطماع.

لقد دعت الحاجة أحيانا لبناء خندق هنا أو قلعة هناك، أو برج أو سور، ولعلّ الدفاع العسكري الأيوبي لم يقتصر على البناء فقط، بل تعدّى ذلك إلى هدم بعض التحصينات العسكرية أحيانا حتى لا يستفيد منها العدو، وما فعله المعظّم عيسى بحصن الطّور وتحصينات القدس دليلٌ على ذلك.

2.7.2 العمران الثقافي

وتجسّد ببناءِ المدارس ومراكز العلم التي كانت تستخدم للتدريس أو تناقل العلوم، وقد نشطت حركة بناء العمران الثقافي إبان الفترة الأيوبية، وذلك نتيجة لاهتمام ملوك وأمراء بني أيوب بالمعرفة والعلم، وقد انعكس هذا الاهتمام على إقامة المدارس التي حملت أسماء من شيّدها وأنجز بناءها، فالمدرسة **العادلية** الواقعة داخل دمشق وشمالي الجامع الأموي. بدأت فكرة بنائها في عهد نور الدين محمود بن زنكي، غير أنّه توفيَ ولم تتم، واستُكملَ بعض البناء في عهد الملك العادل سيف الدين، وتوفيَ أيضاً ولم تتم، فتمّمَها ولدهُ الملك المعظّم عيسى سنة

---

(1) المرجع نفسه ، ص185؛ وانظر هناء محمد عبد القادر غانم، الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل الأيوبي صاحب دمشق، رسالة ماجستير غير منشورة ، الجامعة الأردنية، 1995م، ص90. وسيشار إليه فيما بعد، هناء، الملك المعظم.

(2) هاردنج، آثار الأردن، ص185؛ هناء، الملك المعظم، ص90.

615هـ/1218م[1]، وكانت المدرسة تعد من أكبر المدارس الشافعيّة في دمشق، وأوقف عليها المعظّم ثلاث قرى من قرى دمشق، وسمّاها العادليّة نسبةً إلى والده الملك العادل[2].

وقد حرص المعظّم عيسى كغيره من ملوك بني أيوب على بناء المدارس والاهتمام بالمعرفة، سواء أكان في فترة حكمه نائباً على دمشق، أم في الفترة التي استقلّ فيها عن والده العادل في حكم دمشق سنة 615هـ/1218م وأبرزها:

1.2.7.2 القبة النحوية في القدس: وتقع إلى الغرب من الصخرة المشرفة، وقد تولّى بناءَها حسام الدين بن عبدالله المعظّمي[3] بأمرٍ من المعظّم عيسى سنة 604هـ/1207م[4]، وكان حسام الدين يشغل آنذاك متولّيَاً للقدس، وقد نقش على تلك القبة العبارات التالية:" أنشأها المعظّم شرف الدين أبو المنصور عيسى ولد مولانا الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب بن شاذي على يد الأمير حسام الدين بن عبدالله بن قيماز الوالي بالبيت الشريف سنة 604هـ/ 1207م"[5]، وقد أوقف عليها المعظّم أوقافاً جليلةً، وكان يشترط أن يشتغل في تلك القبة بالقراءات السبع، وشرط ألا يصرف من وقفها شيء إلا للحنفية[6]. وجعلها مركزاً لتعليمِ اللغة

---

(1) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، جزء دمشق، ص239؛ النعيمي، الدارس،ج1، ص370 ؛ وانظر عبو، عادل نجم، المدرسة في العمارة الأيوبية في سوريا، الحوليات الأثرية العربية السورية،1974، م24، ص82. وسيشار إليه فيما بعد، عبو، المدرسة في العمارة الأيوبية.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص218؛ ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، جزء دمشق، ص239؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج7، ص265؛ النعيمي، الدارس، ج1، ص 355.

(3) حسام الدين المعظمي: احد مماليك الملك المعظم عيسى، تولى ولاية القدس وأمرها سنة 604هـ ولغاية سنة 610هـ، انظر سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص593.

(4) العليمي، الأنس الجليل، ج1، ص403؛ هناء، الملك المعظم، ص58.

(5) أبو شامة، الذيل، ص92 ؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص218؛ ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، جزء دمشق، ص239؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج7، ص265؛ النعيمي، الدارس، ج1، ص 355؛ يوسف، القدس، ص305.

(6) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص211؛ المقريزي، المقفى، ج8، ص730.

العربية[1]، وولّى تدريسها الشيخ شمس الدين بن رزين البعلبكي تلميذ تاج الدين الكندي[2].

2.2.7.2 المدرسة الماردانية: أنشِئَت على يد عزيزة الدين أخشاخاتون بنت قطب الدين صاحب ماردين، وهي زوجة الملك المعظّم عيسى[3]، وكان بناء هذه المدرسة سنة 610هـ/1213م[4]، لكنها اكتملت من حيث البناء في عام 624هـ/ 1227م[5]، 1227م[5]، وتقع المدرسة على حافة نهر بجانب الجسر الأبيض بالصالحية في دمشق. [6]

3.2.7.2 المدرسة الجهاركسية: تقع في الصّالحية، وخصّصت للإهتمام بالمذهبين الشافعي والحنفي، وتَعَهدَ ببنائها صارم الدين خطلبا[7] بأمرٍ من المعظّم عيسى، وهو وهو من أتباع فخر الدين جهاركس الصلاحي، ويظهر أنّها اتخذت اسمها من اسم سيد مؤسسها وهو جهاركس أحد القادة البارزين في جيش صلاح الدين، والذي برزَ اسمهُ بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي[8].

4.2.7.2 المدرسة العزيزية: انشِئَت المدرسة العزيزية سنة 621هـ/1224م، بجوار المدرسة المعظّميةِ[9]، وقد درسَ فيها المؤرخ ابن شداد، وأوّل من وَليها القاضي

---

(1) العليمي، الأنس الجليل،ج1، ص403.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص211.

(3) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة،ج2، ص227، 228.

(4) النعيمي، الدارس، ج1، ص455.

(5) المصدر نفسه، ج1، ص455؛ عبو، المدرسة في العمارة الأيوبية، ص85.

(6) النعيمي، الدارس، ج1، ص592.

(7) صارم الدين خطلبا: هو خطلبا بن عبدالله مملوك جهاركس ونائبه (ت 635هـ/1237م)، انظر ابن كثير البداية والنهاية، ج13، ص 162.

(8) النعيمي، الدارس، ج1، ص375؛ عبو، المدرسة في العمارة الأيوبية، ص84.

(9) النعيمي، الدارس، ج1، ص375.

صدر الدين إبراهيم ابن الشيخ برهان الدين مسعود. ثم وَليَها من بعده أخوه مجد الدين. ثم وليَها بعده كمال الدين عبد اللطيف ابن القاضي عز الدين السنجاري[1]، فظهر كتاب وقفِها فعلمَ أن مدرّسها يكون مدرّس المعظّمية. ثم انتقلت من بعده إلى من انتقلت إليه المعظمية[2].

وأهم المظاهر العمرانية التي ارتبطت اسماؤها باسم المعظّم عيسى **المدرسة المعظّمية** والتي بنيت سنة 621هـ/1224م، في سفح جبل قاسيون[3] في منطقة الصّالحية، وقد خصّصَها للمذهب الحنفي، وأضاف إليها فيما بعد التربة المعظمية التي دفنَ تحتَ قبّتها والدَتَهُ في سنة 622هـ/1225م[4]. وبنى عز الدين أيبك أستاذ دار المعظّم عيسى **المدرسة العزيّة** في سنة 621هـ/1224م[5]، وقد خُصّصت للمذهب الحنفي. وبنى المعظّم عيسى في القدس المدرسة **المعظّمية**[6] سنة 624هـ/ 624هـ/

---

(1) المصدر نفسه ، ج1، ص375.

(2) المصدر نفسه، ج1، ص375.

(3) قاسيون: وقاسيون بالفتح، وسين مهملة، والياء تحتها نقطتان مضمومة، وآخره نون: وهو الجبل المشرف على مدينة دمشق وفيه عدّة مغاور وفيها آثار الأنبياء وكهوف، وفي سفحه مقبرة أهل الصلاح، الحموي، معجم، ج4، ص295؛ أبو حجر الموسوعة، ص 145؛ جونز، مدن بلاد الشام، ص 281. وللمزيد من المعلومات حول مصور بلدان الشام والجزيرة الشامية انظر المخطط رقم (4) في قائمة الملاحق.

(4) ابن تغري بردي، النجوم، ج8، ص735؛ وانظر النعيمي، الدارس، ج1، ص578، وقد أورد ابن كثير ذكر هذه المدرسة على أنّ من بنَاها هو شقيق المعظّم الملك عبد العزيز بن العادل صاحب بانياس ؛ انظر ابن كثير، البداية والنهاية،ج13، ص148؛وانظر ابن طولون: محمد بن طولون الصالحي(ت953هـ/1528م)، القلائد الجوهرية في تاريخ
= الصالحية، تحقيق محمد دهمان، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ج1، ص220. وسيشار إليه فيما بعد، ابن طولون، القلائد.

(5) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، جزء دمشق، ص210.

(6) الحنبلي، شفاء، ص285؛ وانظر ابن طولون، القلائد، ج1، ص225؛ وانظر العليمي، الأنس الجليل،ج2، ص42.

1227م[1]، مقابل باب شرف الأنبياء، وقد وقَفَها على فقهاء الحنفية، وهناك نقش مثبّت في الجدار القبلي لهذه المدرسة كُتبَ عليه" أمرَ بعملهِ مولانا السلطان الملك المعظّم شرف الدين والدنيا أبو العزائم عيسى بن أبِي بكر أيوب الواقف لهذه المدرسة على الفقهاء والمتفقهة من أصحاب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان رضي الله عنه وأرضاه"[2].

وقد جَدّد المعظّم عيسى بناءَ **المدرسة الناصرية** في القدس سنة 621هـ/ 1224م، وجعل فيها زاويةً[3] لقراءة القرآن والاشتغال بالنحو، كما أوقف المعظّم على هذه المدرسة كتاب " إصلاح المنطق لأبي يوسف يعقوب بن اسحاق بن السكيت"،[4] وقد عرفت هذه المدرسة بهذا الاسم نسبة للشيخ نصر المقدسي الذي بناها، وتقع على باب الرحمة من أبواب القدس.

أما **المدرسة البدريّة** فهي من المدارس التي أقامها بدر الدين الهكاري[5] وهو محمد بن أبي القاسم الهكاري، أحد أمراء الملك المعظّم عيسى، وقد أوقفها على فقهاء الشافعية[1].

---

(1) ابن طولون، القلائد، ج1، ص225؛ وانظر العليمي، الأنس الجليل،ج2، ص42؛ وانظر رشاد الإمام، مدينة القدس في العصر الوسيط، الدار التونسية للنشر، تونس، 1976، ص 190، وسيشار إليه فيما بعد، رشاد، مدينة القدس.

(2) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص 92.

(3) الزاوية: عبارة عن مكان صغير الحجم لا يتسع الا لعدد قليل من المتصوفة والزهاد، وهي مكان للخلوة والعبادة، أنظر مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط،ج 2، ص230.

(4) ابن السكيت: ابو يوسف يعقوب بن السكيت(ت 244هـ/858 م) نحوي معروف له كتاب اصلاح المنطق، وهو من أكابر أهل اللغة، والسكيت لقب لأبيه اسحاق، اشتغل في تأديب أولاد المتوكل، الأنباري: أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد(ت577هـ/1181م) = نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق إبراهيم السامرائي، ط3، مكتبة المنار، الأردن، الزرقاء، 1985م ، ص139. وسيشار إليه فيما بعد، الأنباري، نزهة الألباء.

(5) الهكّاري: إحدى قبائل الأكراد التي استقرت في ديار بكر من أعالي الجزيرة الفراتية، ولهم فيها قلاع محصّنة، ولهم جولات مع الأمير عماد الدين زنكي لإخضاعهم لسيادته، انظر ابن الأثير: علي بن محمد(ت630هـ/ 1232م)، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق

3.7.2 العمائر الأخرى:

ويُقصد بها المباني التي خصصت للتجارة أو لخدمة الحجيج، وتشمل الفنادق والقيساريات والإصلاحات التي جرت على الطرق، حيث تم تزويدها بالخدمات التي تلزم حجاج بيت الله الحرام واهمّها:

1.3.7.2 الفنادق: يعود تاريخ إقامة الفنادق إلى القرن الرابع الهجري، حيث يشير ابن حوقل أن الفنادق كانت تحاط بها الساحات الواسعة والأسواق والحمّامات التي تم تخصيصها لتقديم الخدمات للغرباء واستقبالهم. (2)

وأبرز الفنادق التي بنيت في فترة نيابة الملك المعظّم، الفندق الكبير الذي بُنيَ في أرض تدعى عاتكة، قبالة نهر القنوات في باب الجابية سنة 611هـ/1215م(3).

2.3.7.2 القيساريات: كلمة يونانية الأصل، وهي أشبه بالأسواق وتؤدي عمل الأسواق، وعرفت في بلاد الشام قبل مصر(4)، والقيسرية تتكون في العادة من عدة مبانٍ عامة، ويتبع لها حوانيت، ومصانع ومستودعات، ومساكن يقطنها عادة التجار وكبار رجال الدولة، وللقيساريات مداخل خاصة يتم قفلها ليلاً. (5)

وقدّم ابن جبير وصفاً للقيساريات حيث يقول" كأنها الخان العظيم تنغلق عليها أبواب الحديد، وتطيف بها دكاكين وبيوت، بعضها فوق بعض، وفي بعض القياسر

عبد القادر أحمد، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1963، ص48. وسيشار إليه فيما بعد، ابن الأثير، التاريخ الباهر.

(1) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص 92؛ رشاد، مدينة القدس، ص191.

(2) ابن حوقل: ابو القاسم بن حوقل النصيبي البغدادي(ت367هـ/977م)، صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1979، ص161. وسيشار إليه فيما بعد، ابن حوقل، صورة الأرض.

(3) أبو شامة، الذيل، ص 85؛ وانظر ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص71.

(4) ابن حوقل، صورة الأرض، ص163؛ البيطار، أمينة، تاريخ العصر الأيوبي، دمشق، جامعة دمشق،1981، ص 238، وسيشار إليها فيما بعد، أمينة البيطار، العصر الأيوبي.

(5) ابن حوقل، صورة الأرض، ص163.

مساجد لتجار المسلمين".[1] ولعلّ الرحالة ابن جبير يقصد في إشارته للمساجد هنا تلك المساجد الخاصة بتجار المسلمين. [2]

وأهم القيساريات التي بناها المعظّم عيسى قيسارية القِطن، والتي أشار ابن كثير الى أنها بنيت سنة 613هـ- 1218م[3]. ويروي ابن كثير في إشارة إلى قيسارية القطن ما نصّه "وفي هذه السنة اشترى الأَمير سيف الدين طغاى الأشقري قيساريّة القطن المعروفة بإنشاء الملك المعظّم بن العادل لها من بيت المال"[4].

8.2 الإصلاحات العمرانية للمعظم

يذكر سبط ابن الجوزي أن المعظّم عيسى قد حجّ في سنة 611هـ/1215م، فكان من إصلاحاته في هذا الجانب أنه أمر بمسح الأراضي والطرق من باب الجابية في دمشق الى مكة، وتمّ تدوينها منزلةً منزلة، وأمر بزرع طريق الحجاز، وأقام للحجيج الضيافة عند رواحهم ومجيئهم لمكة، كما دفن البرك والمصانع، وأوقف على الحاج ضياعاً من الساحل، ويشيد سبط ابن الجوزي بأعمال المعظّم عيسى قائلاً "لو عاش المعظم عيسى لسار الناس الى مكة من غير دليل"[5].

---

(1) ابن جبير: أبو الحسين محمد بن أحمد الكناني الأندلسي(ت674هـ/1275م)، رحلة ابن جبير، تحقيق، حسين نصار، القاهرة، مكتبة مصر، 1955، ص 165. وسيشار إليه فيما بعد، ابن جبير، رحلة ابن جبير.

(2) المصدر نفسه ، ص166؛ أبو دمعة، امين، الحياة الاقتصادية في بلاد الشام في العصر الأيوبي، رسالة جامعية غير منشورة، جامعة دمشق، 1988، ص217. وسيشار إليه فيما بعد، أبو دمعة، الحياة الاقتصادية.

(3) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص330.

(4) المصدر نفسه، ج13، ص330.

(5) سبط ابن الجوزي، مرآة،ج8، ق2، ص650؛ أبو شامة، اليل، ص150؛ وانظر النويري، نهاية الأرب، ج29، ص34.

وجاءت إصلاحات المعظّم على طريق تبوك والمعلّى[1]شبيهةً بما فعله على طريق الحجاز غير أنّه زاد في ذلك بانّه نَظّم فيها جماعة، وعمّر المساجد عند جعفر الطيار، وأقام الضيافات للزوار[2]، وبنى بركة كبيرة في بصرى يشرب منها الحجيج ويتزودون بالماء منها قبل دخولهم للصحراء[3]، فسهّلَ بذلك الطريق على الحجّاج بعد أن كانت وعرة وموحشة، ومن جهوده أنه زاد الميرة[4] في أراضي الكرك والشوبك وتبوك والعلا والمدينة[5]. كما بنى سوراً لدمشق والطارمة[6] التي على الباب الجديد، الجديد، وبنى سوراً آخر على الطارمة التي عند باب السّر المشرفة على دار المعظّم العتيقة، كما بنى الخان[7] على باب الجابية، وبنى الدّار والجسر والقصر والقيسارية، والقيسارية، ودار المُضِيف، إضافة إلى حمامين بمعان أحدهما للرجال والآخر للنّساء[8].

ويذكر ابن الفرات في تاريخه أنّه عندما تولّى المعظّم عيسى أمر الشوبك[9] في في سنة 604هـ/ 1208م، قام بتحصينها ونقل الأشجار إليها من سائر المناطق، حتى

---

(1) تبوك: بالفتح ثم الضم، وواو ساكنة، وكاف: موضع بين وادي القرى والشام، وهو حصن به عين ونخل وحائط ينسب إلى النبي، والمعلا تتبع لها، انظر الزمخشري، الجبال والأمكنة، ص 121؛ الحموي، معجم،ج2، ص14.

(2) سبط ابن الجوزي، مرآة،ج8، ق2، ص650.

(3) أبو شامة، الذيل، ص150 ؛ ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج2، ص60.

(4)) الْميرَة: الطعام يجمع للسفر ونحوه، انظر مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط،ج2، ص893

(5) أبو شامة، الذيل، ص150.

(6) الطارمة: كلمة فارسية تعني غرفة عالية حولها شبابيك ومعناها بالعربية طرق، انظر مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط،ج2، ص556.

(7) لفظة أعجمية في الأصل، وهي المنازل التي يسكنها التجار، الحموي، معجم، ج2، ص314؛ مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط،ج2، ص328.

(8) سبط ابن الجوزي، مرآة،ج8، ق2، ص650.

(9) الشَوْبَك: قلعة حصينة في أطراف الشام، بين عمّان وأيلة والقلزم قرب الكرك، وتقع إلى الشمال الغربي من مدينة معان على بعد 45كم، والقلعة مستحدثة في الفترة الفرنجية، حيث

أضحت في روعتها وجمال خضرتها تضاهي غوطة دمشق[1].

اما في القدس فقد برزت جهود المعظّم عيسى في العمران من خلال تجديد عمارة القناطر المقامة على درجة قبة الصخرة من الجهة القبليّةِ، كما تم تجديد الأبواب الخشبية المركّبة على أبواب المسجد الأقصى، وجدّد باب النّاظر إضافةً إلى إعادة تعمير مسجد الخليل عليه السلام[2].

لقد آلت مملكة الملك المعظّم عيسى من بعده لابنه الملك الناصر صلاح الدين داوود[3]، الذي لم يقدر على مواجهة أعمامه الملك الكامل والأشرف، واللّذين اتفقا على تقسيم مملكته بعد رفضه تسليم حصن الشوبك للملك الكامل[4]، فأخذ الأشرف دمشق 626هـ/1228م[5]، وأخذ الملك الكامل حرّان والرها والرقة من الديار الشرقية التي كانت تتبع للملك الأشرف[6]، ولم يبق تحت سيطرة الناصر داوود سوى الكرك والشوبك[7]. ولم يشكل الملك الناصر داوود خطراً على الملكين الكامل والأشرف، وذلك لصغر سنّه، وانعدام خبرته ، وانصرافه إلى اللهو، وإعراضه عن مصالح دولته[8].

كان الهدف من عمارتها إحكام السيطرة على حركة الاتصال بين مصر والشام، ومراقبة حركات الجيوش الإسلامية والقوافل التجارية، ويوجد عند أسفل التل المقامة عليه القلعة نبعان أحدهما عن يمينها والآخر عن يسارها، تجري مياهها وسط البلدة، وتروي البساتين والحقول المغطاة بأشجار الفواكه الواقعة في الوادي في الجهة الغربية منها، وغالب سكانها من النصارى كما يذكر أبو الفدا، انظر الحموي، معجم، ج3، ص370؛ وانظر ابن شداد، الأعلاق الخطيرة،ج2، ق2، ص80،81؛ أبو حجر، الموسوعة، ص 19.

(1) ابن الفرات، تاريخه م1، ج5، ص65 ؛ ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج2، ص80.

(2) العليمي، الأنس الجليل، ج1، ص400.

(3) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص224.

(4) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص81.

(5) المصدر نفسه، ج5، ص81.

(6) المصدر نفسه، ج5، ص81.

(7) المقريزي، السلوك، ج1ن ق1، ص226.

(8) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص476.

الفصل الثالث

علاقات الملك المعظّم عيسى وتحالفاته السياسية

1.3 علاقة المعظم عيسى بالبيت الأيوبي

مرّت علاقة الملك المعظّم عيسى كحاكم مستقل بالبيت الأيوبي بمرحلتين اثنتين، امتـدت المرحلـة الأولـى مـن عـام 615هـ/1218م ولغايـة 618هـ/1221م، أمـا المرحلة الثانية، فقد امتدّت من عام 619هـ/1222م ولغاية 624هـ/1227م.

وقد اتّسمت علاقة المعظّم عيسى بملوك البيت الأيوبي خلال الفترة الأولى بطابع الود والاحترام المتبادل، والطّاعة للملك الكامل بوجه خاص[1]، باعتباره كبير العائلة الأيّوبية، ووريث السلطة في مصر، فكان ولاء المعظّم عيسى للكامل بدايةً لا يختلف عن ولائه لوالده الملك العادل، حتى أنّ السّكةَ كانت تُضرب باسم الكامل، ويُخطب له على المنابر في كل الولايات الأيّوبية[2]، وتعدّت العلاقة بين المعظّم والكامل إلى الوقوف صفاً واحداً ضد الكثير من المؤامرات التي واجهتها الدولة الأيوبية[3].

ولم تقتصر علاقة الملك المعظّم عيسى مع الكامل والأشرف، إنما تعدَّت لتشمل ملوك بني أيوب وأمرائهم. وقد اتسمت علاقة المعظّم عيسى بملوك البيت الأيوبي بالاستقرار والوحدة، ضد غزو الصليبيين لإماراتهم ممثّلاً بالحملة الصليبية الخامسة على دمياط[4]. ويمكن تفسير صفاء العلاقات بين أبناء العادل في تلك المرحلة استناداً إلى استقلالهم في ممالكهم، وانعكاس ذلك الاستقلال على علاقاتهم ببعض[5].

---

(1) ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد بن محمد، (ت 808هـ/1604م)، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر المعروف بتاريخ ابن خلدون، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط2، 8 أجزاء، 1408هـ /1988م،ج1، ص761. وسيشار إليه فيما بعد، ابن خلدون، تاريخ.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص 141؛ ايليسيف، حياة الملك المعظم، ص88.

(3) سبط ابن الجوزي، مرآة،ج8، ق2، ص680.

(4) المصدر نفسه ،ج8، ق2، ص680؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص131.

(5) سبط ابن الجوزي، مرآة،ج8، ق2، ص680.

أما المرحلة الثانية فقد شهدت توتّراً للعلاقات بين المعظّم عيسى وملوك البيت الأيوبي بشكل انعكس على استقرار ممالِكِهم جميعاً، وقد أَدّى ذلك إلى عواقب وخيمة أهمّها تسليم الملك الكامل صاحب مصر بيت المقدس للصليبيين، وقيام الأحلاف داخل البيت الأيوبي وخارجهُ ضدّ بعضهم البعض[1].

حكَمَ الملك المعظّم عيسى مملكته مستقلاً عن والدِهِ العادل بدءاً من8 جمادى الثانية لسنة 615هـ/1218م، وذلك أعقاب وفاة والدِهِ، حيث تمزّقت وحدة الممالك الأيوبية، واستقلّ أبناء العادل بممالكهم، وأصبحت أملاك المعظّم عيسى تمتد من حمص شمالاً إلى العريش جنوباً، ودخل في ولايته كل من بلاد الساحل، وبلاد الغور، وأرض فلسطين، والقدس، والكرك، والشوبك، وصرخد، إضافة إلى الصلت[2].

وقد بذل المعظّم عيسى جهوداً كبيرةً للحفاظ على أمن واستقرار حدود مملكته ومركزها دمشق، فاستخدم النساء كجواسيس وعيون ينقلن الأخبار له، كما استخدم البطش والشدة في مواجهة خصومهِ، وكان قوي الشكيمةِ، عاليَ الهمةِ في مواجهة كل ما يهدد استقرار مملكته[3].

وقد نجح المعظّم عيسى في توجيه جهود سكان مملكته وتوحيدها نحو مواجهة خطر الوجود الصليبي في المنطقة، فتظافرت جهود المسلمين والنصارى وتوحّدت لمواجهة ذلك الخطر، واصبح السّكان من عوامل الوحدة والاستقرار في مملكته[4].

واتّسمت السياسة الداخلية التي اتّبعها المعظّم عيسى داخل مملكته باللّين والتسامح مع الأشخاص الذين توافقوا معه وتوافق معهم، لكن تلك السياسة كانت صارمةً مع كل من لم يرضَ عنهم المعظّم، خاصة رجال الدولة الذين ورثَهم عن أبيهِ الملك العادل[5].

---

(1) سبط ابن الجوزي، مرآة،ج8، ق2، ص680؛ أبو شامة، الذيل، ص130؛ابن كثير، البداية والنهاية،ج13، م7، ص103؛ النويري، نهاية الأرب،ج29، ص118.

(2) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص596؛ ابن شداد، الأعلاق الخطيرة،ج3، ص84.

(3) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص387 ؛ النويري، نهاية الأرب، ج27، ص189.

(4) سبط ابن الجوزي، مرآة،ج8، ق2، ص 387.

(5) ابن تغري بردي، النجوم، ج6، ص127.

وقد اعتمد الملك المعظّم عيسى على النظام الإداري الموروث عن السلطان صلاح الدين الأيوبي، وأدارَ مملكته وفقاً لذلك النّظام، فقسّمَ الوظائف إلى ثلاثة أقسام شملت أرباب السيوف، وأرباب القلم، وأرباب العلم، معتمداً بذلك على رجالات دولة من صُنعهِ.

2.3 دور المعظّم عيسى في نهاية الأمراء الصّلاحية

كان الأمراء الصلاحية[1] قد اتفقوا مع الملكين الأفضل والظّاهر على حصار دمشق[2]، وذلك في بداية ذي القعدة من سنة 597هـ/ 1201م[3]، حيث كان

---

(1) هم مماليك صلاح الدين الأيوبي، ومقدّمَهم فخر الدين جهاركس، ومن أبرز الأمراء الصلاحية الذين صاغوا الاتفاق مع الملكين الأفضل والظاهر، عز الدّين أسامة، وزين الدين قراجا، وفارس الدين ميمون القصري، والفارس البكي، وسرا سنقر، كما اتّفق معهم ابن المشطوب ضد الملك العادل. وكان الاتّفاق بينهم يقوم على حصار دمشق والاستيلاء عليها على أن يحكمها الأفضل، ثم التّوجّه للدّيار المصرية للسيطرة عليها وطرد الملك العادل منها، ثم تُعطى للملك الأفضل، في حين يتسلّم الملك الظّاهر دمشق ويكون نائباً للملك الأفضل على الديار المصّرية. وذلك كما جرت العادة في الدولة الأيوبية. ويقابل الأمراء الصلاحية الأمراء الأسديّة وهم مماليك أسد الدين شيركوه، عم صلاح الدين الأيوبي، وكان مقدّم الأمراء الأسدية في تلك الفترة سيف الدين أيازكش، وقد لعب هؤلاء الأمراء دوراً بارزاً في الصراع بين الملك الأفضل صاحب دمشق والملك العزيز عثمان صاحب مصر. ثم انقسم الأمراء الصلاحية والأسدية في مواقفهم تجاه سلطة الملك العادل، حيث كان الملك العادل مغتصباً للسلطة في نظر الأمراء الصلاحية. ابن الأثير، الكامل، ج12، ص118؛ الحموي، التاريخ المنصوري، ص16؛ سبط ابن الجوزي، مرآة،ج8، ق2، ص480؛ أبو شامة، الذيل، ص79؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص11؛ ابو الفدا، مختصر، ج5، ص130؛ اليافعي، مرآة الجنان، ج3، ص489؛ ابن الفرات، تاريخه، م4، ج2، ص202؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج6، ص145؛ الحنبلي، شفاء، ص 197.

(2) الحموي، التاريخ المنصوري، ص16؛ سبط ابن الجوزي، مرآة،ج8، ق2، ص479؛ أبو شامة، الذيل، ص20؛ ابن الفرات، تاريخه، م4، ج2، ص203. وللمزيد من المعلومات حول مصور بلدان الشام والجزيرة الشامية انظر المخطط رقم (4) في قائمة الملاحق.

(3) سبط ابن الجوزي، مرآة،ج8، ق2، ص479.

المعظّم عيسى متحصناً في دمشق، في حين كان والده الملك العادل في الدّيار المصرية[1].

وعندما وصلت الملك العادل أخبار الاتفاق مع الأمراء الصلاحية، غادر مصر متوجّهاً إلى الشام ولما وصل نابلس بعث بجزءٍ من جيشه إلى دمشق لنجدة إبنه الملك المعظّم عيسى[2].

غير أنّ هذا الاتفاق فشلَ في تحقيق أهدافه، فقد انقسم الأمراء الصلاحية إلى عدّة أقسام، فمنهم من أيّدَ الظّاهر صاحب حلب، وغادروا معه تاركين دمشق ومن فيها[3]، وهناك أقطعهم الظّاهر الإقطاعات وأكرمهم[4]، أمثال الأمير فارس الدّين ميمون القصري[5] صاحب نابلس الذي أعطاه عزاز[6].

أما القسم الثاني من الأمراء الصلاحية فقد فضّل الرجوع إلى الملك العادل[7] بعد أن فشل التحالف بين الظّاهر والأفضل[8]، أمثال فخر الدين جهاركس[1]وزين الدين

---

(1) ابن الفرات، تاريخه، م4، ج2، ص202. للمزيد من المعلومات حول الأسرة العادلية في مصر والشام. انظر المخطط رقم (2) في قائمة الملاحق.

(2) سبط ابن الجوزي، مرآة،ج8، ق2، ص479؛ أبو شامة، الذيل، ص20؛ ابن الفرات، تاريخه، م4، ج2، ص202.

(3) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص123.

(4) المصدر نفسه، ج3، ص131.

(5) فارس الدّين ميمون القصري: أحد الأمراء الصلاحية، كان أميراً من أمراء العزيز عثمان بن صلاح الدين، وقد أقطعهُ العزيز عثمان نابلس سنة 591هـ/1195م، وقد توفي هذا الأمير سنة 610هـ/1213م. ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص230.

(6) بليدة فيها قلعة ولها رستاق شمالي حلب بينهما يوم، وهي طيبة الهواء عذبة الماء صحيحة، والعزاز الأرض الصلبة. الحموي، معجم، ج4، ص118.

(7) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص123.

(8) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص681؛ النويري، نهاية الأرب، ج29، ص54

قراجا[2]واللّذين هربا مع قواتهما من التحالف ورجعا إلى الملك العادل[3]، حيث أقطع الأول بانياس وتبنين والشقيف وهونين وقلعة أبي الحسن[4]، أمّا الثاني فقد أقرّهُ الملك العادل على صرخد التي أخذها من الأفضل أثناء حصار دمشق[5]. ويبدو أنّ الملك العادل كان يدرك عدم رضا الأمراء الصلاحيّة عن حكمه، ولذلك أراد أن يستميل مقدمهم فخر الدين جهاركس بإعطائه بانياس والشقيف وهونين، ويسترضي زين الدين قراجا بإقراره على صرخد.

والقسم الثالث من الأمراء الصلاحية كان يمثّلهم عز الدّين أسامة الّذي بقيَ إلى جانب الملك العادل في أثناء حصار دمشق ولم ينضم للتحالف[6].

لقد اختفى كلّ هؤلاء الأمراء عن السّاحة السياسية مع نهاية العقد الأوّل من القرن السابع الهجري، فالأميران زين الدّين قراجا وفخر الدّين جهاركس تُوفيا، واستولى الملك العادل وابنه المعظّم عيسى على ممتلكاتهما، أمّا الأمير عزّ الدين أسامة فقد نكَبهُ الأيّوبيون واستولوا على أمواله وممتلكاته[7].

وفي سنة 604هـ/ 1207م توفّي الأمير زين الدّين قراجا صاحب صرخد[8]، وتولّاها بعدهُ ابنهُ، وقَدِمَ إليها بعد ذلك الملك المعظّم عيسى وأخذها من ابن قراجا وعوّضهُ عنها مالاً وإقطاعاً[1]، ثمّ سلّمها لمملوكه عز الدين أيبك المعظّمي[2].

---

(1) فخر الدين جهاركس: جهاركس بن عبدالله الصلّاحي النّاصري، ويُكنّى أبا منصور، ويلقب فخر الدّين، وهو أحد أمراء الدولة الصّلاحية النّاصرية، توفي سنة 608هـ/ 1211م في بانياس. ابن الفرات، تاريخه، ج1، ق1، ص122.

(2) زين الدّين قراجا: أحد الأمراء الصّلاحية، كان أميراً على صرخد، توفي سنة 604هـ/ 1207م. الحموي، التاريخ المنصوري، ص55؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص190

(3) النويري، نهاية الأرب، ج29، ص54.

(4) النويري، نهاية الأرب، ج29، ص55. للمزيد من المعلومات حول الأسرة العادلية في مصر والشام. انظر المخطط رقم (2) في قائمة الملاحق.

(5) الحموي، التاريخ المنصوري، ص55.

(6) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص99؛ ابن الفرات، تاريخه، م4، ج2، ص196.

(7) المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص175.

(8) الحموي، التاريخ المنصوري، ص55.

وفـي سـنة 608هـ/ 1210م تـوفي الأميـر فخـر الـدّين جهـاركس فـي بانيـاس[3]، واستولى الملك المعظّم عيسى على أملاكه بعد وفاته، وسلّمها لشقيقه الملك العزيز عماد الدّين عثمان بن الملك العادل[4].

أمّا عز الـدّين أسـامة صـاحب كوكـب الهوا وعجلـون، فقد اسـتمرّ الملـك المعظّم عيسـى فـي الضّـغط عليـه لتسليم حصـونه، مقابـل أن يعطيَـه اقطاعـاً فـي الفيّـوم[5]، ولـذلك قرّر الأميـر عزّ الـدين التوجّـه لمصـر، للتخلّص من ضـغوط المعظّم عيسـى عليه، فتوجّه إليها سنة 607هـ/ 1209م[6].

لقد نصـح الأميـر فخـر الـدين جهـاركس الأميـر عز الـدين أسـامة بتسـليم كوكـب الهـوا وعجلـون للملـك المعظّم والقبـول بإقطـاع الفيّـوم[7]، وعـدم الـذهاب لمصـر لكـنّ الأمير أسامة لم يقبل بالنصيحة وغادر إلى مصر[8]. وبعد وصوله إليها بفترة قصيرة استدعى الملك العـادل أبنـاءه للمشـاورة فـي أمـر الصـليبيين[9]، وكـان مـن بينـهم الملـك المعظّم عيسى، فخـاف الأميـر أسـامة علـى نفسـه، وخاصّـة بعد اتّهامه بمراسـلة الملـك الظّـاهر غـازي فـي حلـب[10]، حيـث يقـول سـبط ابـن الجوزي:" وحكـى لـيَ المعظّم أنّـهُ وجد كُتباً إليه وأجوبةً" أي من أسامة للملك الظّاهر وبالعكس[11].

---

(1) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص569؛ ابن كثير، البداية والنهاية،ج3، ص73؛ابن تغري بردي، النجوم، ج6، ص211.

(2) أبو الفدا، مختصر، ج6، ص8؛ ابن الفرات، تاريخه، م5، ج1، ص123.

(3) ابن الفرات، تاريخه، م5،ج1، ص122.

(4) أبو الفدا، مختصر، ج6، ص8؛ النعيمي، الدارس، ج1، ص549.

(5) الحموي، التاريخ المنصوري، ص67.

(6) ابن الفرات، تاريخه، م5، ج1، ص138.

(7) المصدر نفسه، م5، ج1، ص108.

(8) المصدر نفسه، م5، ج1، ص 138

(9) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص560؛ ابن الفرات، تاريخه، م5، ج1، ص138

(10) أبو شامة، الذيل، ص80.

(11) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص560.

هرب بعد ذلك الأمير أسامة متوجّهاً لحصونه في عجلون وكوكب الهوا، فتبِعَهُ الملك المعظّم عيسى وقبض عليه وأنزله في جبل صهيون[1]، ثمّ أودَعهُ قلعة الكرك وحبسه فيها حتى مات[2]، واستولى على أملاكه وأمواله وقلاعه، وقُدّرَ ما ترك من أموال بألف ألف دينار، وذلك في سنة 609هـ/ 1211م[3].

3.3 علاقة المعظّم عيسى بالكامل ودوره في مواجهة مؤامرة ابن المشطوب:

لا يمكن الحديث عن علاقة المعظّم عيسى بأخيه الملك الكامل دون الاطّلاع على دور المعظّم في مواجهة مؤامرة ابن المشطوب[4].

كان ابن المشطوب من أرفع الأمراء الهكاريّة[5] مكانةً عند ملوك بني أيوب، حيث حيث كان له لفيف من الأمراء والأكابر، وكان له حرمةٌ وافرة بينهم[1]. وقد حصلت

---

(1) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج2(أحداث 601-610)، ص66.

(2) ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص128.

(3) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج2(601- 610)، ص67.

(4) هو أحمد بن علي بن أبي الهيجاء بن عبدالله بن أبي الخليل بن مرزبان الهكاري، وكنيته أبي العباس وأبي المحاسن، أما لقبهُ فهو عماد الدين، كما لُقّبَ بنعمة، واشتهر بين أمراء عصرهِ بلقب "ابن المشطوب" لشطبٍ كان في وجه والدهِ، وعُرف عند ملوك بني أيوب باسم الأمير سيف الدين أبي الحسن المشطوب. ابن الأثير، الكامل،ج10، ص 376؛ ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص48؛ وانظر ابن العديم: عمر بن أحمد(ت660هـ/ 1262م)، زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق سهيل زكار، ط1، دار الكتاب العربي، دمشق، 1997، ج2، ص 254. وسيشار إليه فيما بعد، ابن العديم، زبدة الحلب؛ أبو شامة: عبد الرحمن بن إسماعيل(ت665هـ/ 1226م)، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق ابراهيم الزيبق، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1997،ج1، ص79. وسيشار إليه فيما بعد، أبو شامة، الروضتين؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان،ج1، ص180؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص55؛الصفدي، الوافي، ج7، ص225؛ الذهبي، العبر، ج4، ص167؛ اليافعي، مرآة الجنان، ج4، ص35؛المقريزي، السلوك،ج1، ص314؛ الرويضي، عماد الدين، ص66.

(5) ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص254؛. ابن خلكان، وفيات الأعيان،ج1، ص180؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص55؛ الصفدي، الوافي، ج7، ص225.

أسرة ابن المشطوب على مكانةٍ مرموقةٍ في الدولة الأيوبية، إذ شغلوا العديد من المناصب العسكرية والإدارية[2]، وتمّ منحهم الإقطاعات في كلٍ من بلاد الشام والجزيرة الفراتية، فالأمير سيف الدين المشطوب وصل إلى مرتبةٍ عاليةٍ بين أمراء الدولة الصّلاحية[3]، وقد عُرف بين امراء عصره ب"الأمير الكبير"، واقتصر هذا اللقب عليه وحده[4]، كما عُرف ب" أمير الأكراد"[5]، "ومقدّم الجيوش"[6]، وقد اكتسب هذه الألقاب لقيادته العساكر الأيّوبية ومرابطته على سواحل بلاد الشام[7].

بدأت مؤامرة ابن المشطوب بعد اتّفاقه مع مجموعة من الجند والأمراء الأكراد حيث اتّفقوا جميعا على خلع الملك الكامل وتنصيب الملك الفائز إبراهيم مكانهُ[8].

---

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص184؛الداواداري، كنز الدرر،ج7، ص107؛ وانظر الذهبي: محمد بن أحمد(ت748هـ/1374م)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، حوادث ووفيات (581هـ/590هـ)، تحقيق عمر تدمري، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، = 1966م، ص302. وسيشار إليه فيما بعد، الذهبي، تاريخ الإسلام؛ ابن الفرات، تاريخه، م5، ج1، ص248.

(2) الداواداري، كنز الدرر،ج7، ص107.

(3) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص180؛ الداواداري، كنز الدرر،ج7، ص107.

(4) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص183؛ اليافعي، مرآة الجنان، ج4، ص35.

(5) أبو شامة، الروضتين،ج4، ص88؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص180.

(6) أبو شامة، الروضتين،ج4، ص88؛ الذهبي، تاريخ الإسلام،ج1، ص182.

(7) الأصفهاني: عماد الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد (ت597هـ/1201م)،البرق الشامي، تحقيق فالح حسين، ط1، مؤسسة عبد الحميد شومان، الأردن، 1987،ج3، ص53–155. وسيشار إليه فيما بعد، الأصفهاني، البرق الشامي.

(8) ابن الأثير، الكامل،ج10،ص376؛ سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 602؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص648؛ ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص11؛ ابن واصل، مفرج الكروب،ج4، ص17؛ الصفدي، الوافي،ج7، ص226؛ أبو الفدا، المختصر، ج2، ص214؛ النويري، نهاية الأرب،ج29، ص57؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج17، ص73.

مستغلاً مكانته وسيادته للأكراد، وبدأ يُؤَثّر في الأمراء والعساكر ممن يطيعونَه[1]، وأخذ يستميلهم إلى جانبه ضد الملك الكامل[2]. فاستمال العديد من الأمراء، واتفق معهم على خلع الكامل من السلطنة[3]، وتنصيب أخيه الملك الفائز إبراهيم سلطاناً على مصر[4]، وخاطب الأمراء في الفائز بقوله" هذا صبي خفيف ولا يأتينا منه خير"[5]. وكان يهدف من وراء ذلك الوصول للسّلطة، من خلال الهيمنة على الملك الفائز، والتحكم به وبأمور الديار المصرية بشكل عام[6].

وكان ابن المشطوب من أكبر الأمراء في معسكر الملك الكامل[7]، وقد تزامنت حركته أو مؤامرته مع قدوم الحملة الصليبية الخامسة وحصارها لدمياط[1]، وقد برز

---

(1) ابن واصل، مفرج الكروب،ج4، ص16؛ الذهبي، تاريخ الإسلام (حوادث611-620)، ص199.

(2) ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص11؛ ابن واصل، مفرج الكروب،ج4،ص16؛ ابن الفرات، تاريخه، م5، ج1، ص247؛ المقريزي، السلوك، ج1، ص314.

(3) كان ابرز هؤلاء الأمراء الأمير أسد الدين الهكّاري، والأمير عز الدين الحميد، والأمير مجاهد الدين الوزيري. انظر ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص11؛ ابن واصل، مفرج الكروب،ج4، ص17؛ الصفدي، الوافي،ج7، ص226؛ أبو الفدا، المختصر، ج2، ص214؛ النويري، نهاية الأرب،ج29، ص57؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج17، ص73؛ المقريزي، السلوك، ج1، ص314.

(4) ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص11؛ ابن واصل، مفرج الكروب،ج4، ص17؛ الصفدي، الوافي،ج7، ص226؛ أبو الفدا، المختصر، ج2، ص214؛ النويري، نهاية الأرب،ج29، ص57؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج17، ص73.

(5) الداواداري، كنز الدرر، ج7، ص199.

(6) ابن الأثير، الكامل، ج10، ص376؛ سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص602؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص17؛ ابن الفرات، تاريخه، م5، ج1، ص248؛ المقريزي، السلوك،ج1، ص314.

(7) أبو الفدا، المختصر، م2،ج6، ص16؛ ابن الوردي: زين الدين عمر(ت749هـ/1349م)، عمر(ت749هـ/1349م)، تاريخ ابن الوردي. تتمة المختصر في أخبار البشر، تحقيق أحمد رفعت البدراوي، ط1، دار المعرفة العلمية، بيروت، 1970م، ج2، ص202. وسيشار إليه فيما، بعد ابن الوردي، تتمة المختصر.

عصيان ابن المشطوب بعد أن علمَ بوفاة الملك العادل في جمادى الآخرة عام 615هـ/ أيلول 1218م[2]، وقد أدّى هذا التزامن إلى اضطراب في صفوف معسكر الكامل، حيث اضطرّ الكامل إلى مراوغة ابن المشطوب والخارجين معه حتى تحين الفرصة المناسبة لمواجهتهم والقضاء على مؤامرتهم تلك[3].

ويعزو ابن العميد (ت672هـ/ 1274م) موقف الكامل من مؤامرة ابن المشطوب ومداراته له إلى سياسة الكامل وحُلمهِ، إذ رأى أنّه من الأولى مداراة ابن المشطوب رأس الفتنة والمجتمعين معه من الأمراء،" فسيّرَ إليهم وطيّب قلوبهم وحمل إليهم من الأموال وزاد في إقطاعاتهم"[4]، إذ كان يدرك طمعهم في المال والإقطاعات، فحقّق لهم رغباتهم لإسكاتهم إلى حين يتدبّر أمرهم، ورغبةً منه في عدم وصول المؤامرة إلى

---

(1) الحملة الصليبية الخامسة: حملة عسكرية دعا لها البابا أنوسنت الثالث، والبابا هونوريوس الثالث فيما بعد، بهدف تعويض الخسارة التي منيت بها الحملة الصليبية الرابعة بعد توجهها إلى القسطنطينية، وقد وصلت مراكب الحملة إلى المشرق عام(615هـ/ 1218م) بقيادة بلاجيوس مندوب البابا، فنزلوا عكا، ثم زحفوا نحو دمياط في مصر، لتنفيذ الحلم الغربي الأوروبي المتمثّل بالقضاء على المورد العسكري والاقتصادي للأيوبيين، إذا ما تم الاستيلاء على مصر. انظر أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط، منشور في الموسوعة

= الشامية، تأليف وتحقيق وترجمة سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، 1998م، ج33، ص28-116. وسيشار إليه فيما بعد، أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط(الموسوعة الشامية)؛ رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص 260؛ عمران، محمود سعيد، الحملة الصليبية الخامسة، حملة جان دي برين على مصر 615-618هـ/1218-1221م، القاهرة، دار المعارف، 1985، ص226. وسيشار إليه فيما بعد، عمران، الحملة الصليبية الخامسة.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج10، ص375؛ أبو الفدا، المختصر، ج2، ص214؛ الداواداري، كنز الدرر، ج7، ص200. وللمزيد من المعلومات حول الأسرة العادلية في مصر والشام. انظر المخطط رقم (2) في قائمة الملاحق.

(3) ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص11؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص79؛ الصفدي، الوافي، ج7، ص226. حول مواقع تمركز القوات الاسلامية. انظر الخارطة رقم(2) في قائمة الملاحق.

(4) ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص11.

قادة الفرنج المرابطين أمامه، واستغلال اضطراب عساكر المسلمين لصالحهم بعد ذلك[1].

إنّ خطورة مؤامرة ابن المشطوب دفعت بالملك الكامل إلى مغادرة العادلية والخروج منها في ليلة الثلاثاء 18 من ذي القعدة 615هـ/5 شباط 1219م وبرفقتهِ من يثق بهم من العساكر،[2] وذلك بعد أن فَشَلَ في حلّ مشاكلهِ الداخلية[3]، فغادر الكامل معسكره في العادلية وقصدَ أشموم طناح[4]، وكان في نيّته الرّحيل لليمن للاستقرار فيها عند ولده الملك المسعود[5]. وقد أربك خروج الملك الكامل عساكره من المصريين[6]، وأدّى هذا الخروج إلى سقوط دمياط بأيدي الفرنج بلا تعب ولا مشقة[7].

---

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص79؛ الصفدي، الوافي، ج7، ص225.

(2) ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص11؛ النويري، نهاية الأرب،ج29، ص58؛ المقريزي، السلوك، ج1، ص134.

(3) ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص11؛ الصفدي، الوافي، ج7، ص226؛ النويري، نهاية الأرب،ج29، ص58؛ المقريزي، السلوك، ج1، ص134.

(4) أشموم طناح: وهي مدينة قديمة أزليّة عامرة آهلة إلى هذه الغاية، وهي الدقهلية حالياً وهي قصبة كورة من كور الصعيد الأدنى غربي النيل ذات بساتين ونخل كثير، سميت باسم عامرها وهو أشمن بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح. البكري، معجم ما استعجم، ج3، ص122؛ الحموي، معجم، ج1، ص200، مادة أشمون طناح؛ وانظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص79؛ الداواداري، كنز الدرر، ج7، ص199.

(5) الملك المسعود: هو السلطان الملك المسعود بن السلطان الملك الكامل ابن العادل، صاحب اليمن كان قد جهز مع جدّه الملك العادل حملة عسكرية قادها الملك المسعود إلى اليمن فدخلها وكان فارساً شجاعاً مهيباً، ذا سطوة وقمع للخوارج في اليمن، وقد نجح في طرد الزيدية عن مُلكه كما نجح في تأمين طرق الحج من اليمن للحجاز وقد توفي سنة 626هـ/1229م. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص83.

(6) ابن العديم، زبدة الحلب،ج2، ص643؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص17؛ الداواداري، كنز الدرر،ج7، ص198أبو الفدا، المختصر، ج6، ص16.

(7) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص325؛ ابن العديم، زبدة الحلب،ج2، ص643؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص17؛ الداواداري، كنز الدرر،ج7، ص198؛ ابن الفرات، تاريخه،

تجمع المصادر الإسلامية المعاصرة والمتأخرة على أسباب عصيان ابن المشطوب ومؤامرته وأحداثها، ويوافقها الرأي المؤرخ النصراني ابن العميد(ت 672هـ/1274م) والمؤرخ السرياني ابن العبري(ت685هـ/ 1286م) [1]، في حين يُرجع تاريخ هرقل المصدر اللاتيني المعاصر، سبب المؤامرة إلى استدعاء الملك الكامل لإبن المشطوب وبعض الأمراء الأكراد، وطلبه منهم الدخول إلى دمياط بسبعمائة فارس للدفاع عنها، لكنّ ابن المشطوب أدرك خطورة ما طلبه الملك الكامل، وخشيَ تكرار تجربة والده عندما دخل عكا بطلبٍ من صلاح الدين، وانتهى الأمر به أسيراً بيد الفرنج هناك، بعدما تخلّى صلاح الدين عن الدفاع عن عكّا، بحسب ما يشير صاحب تاريخ هرقل، ولذلك طلب ابن المشطوب من الملك الكامل أن يرسل معه أحد أبنائه ليهتم بالمدينة ولا يهمل الدفاع عنها[2]، ويؤكد تاريخ هرقل أن تصرف ابن المشطوب أغضب الملك الكامل، ودفعه للاجتماع بالأمراء والعساكر، فاعتقد ابن المشطوب أنّ هذا الاجتماع جاء بقصد القبض عليه، فقام بتحريض أتباعه وعساكره، ويشير تاريخ هرقل إلى أن الملك الكامل وابن المشطوب كانا يخشيان بعضهما ويتجهزان للقتال. إلا أنّ ابن المشطوب هرب من غير اتباعه، كما خرج الملك الكامل من معسكره دون أن يشعر به أحد[3].

م5، ج1، ص249؛ ابن خلدون، تاريخ، م5، ص399؛ المقريزي، السلوك، ج1، ص 314. للمزيد من المعلومات حول موقع دمياط القديمة. انظر الخارطة رقم(1) في قائمة الملاحق.

(1) ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص11؛ابن العبري: جمال الدين(ت685هـ/ 1286م)، تاريخ الزمان، ترجمة الأب اسحق أرملة، دار الشروق، بيروت، 1986، ص 253. وسيشار إليه فيما بعد، ابن العبري، تاريخ الزمان؛ الرويضي، عماد الدين، ص84.

(2) نقلاً عن الرويضي، عماد الدين، ص84.

وانظر Eracles, Lestoire de Eracles Emperur et La Conquette de la Terre doutremer, in Recuel Des Historiens des Croisades Histores Orientaux, Paris, 1859,vol,11,p,335؛ نقلاً عن الرويضي، عماد الدين، ص84.

(3) Eracles, Lestoire de Eracles,inR.H.C-H.O,vol,11,p,335. نقلاً عن الرويضي، عماد الدين، ص84.

ولا يمكن اعتماد الرواية اللاتينية عن أسباب عصيان ابن المشطوب على الملك الكامل وَيمكن تفنيدها اعتماداً على ما ورد في المصادر الإسلامية عن أسباب العصيان، حيث أن المصادر الإسلامية المعاصرة كابن الأثير (ت630هـ/1234م)، وسبط ابن الجوزي (ت654هـ/ 1256م)، المعاصر للأحداث وابن العديم (ت 660هـ/ 1262م)، وأبو شامة(ت 665هـ/ 1267م)، وابن خلكان (ت681هـ/ 1282م)، وابن واصل (ت 697هـ/ 1298م)، جميعها تؤكد أن أسباب العصيان والمؤامرة تجسدت في خلع الملك الكامل من السلطنة، وتنصيب أخيه الفائز إبراهيم، ليصير الأمر في البلاد لابن المشطوب ومن معه من الأمراء[1]. ويؤيد المصادر الإسلاميّة المؤرخ النصراني ابن العميد (ت 672هـ/ 1274م)، والمؤرخ السرياني ابن العبري (ت685هـ/ 1286م)، وهما معاصران للأحداث[2]، كما تؤكد المصادر الإسلامية المتأخرة كالصفدي (ت717هـ/ 1317م)، والنويري(ت 733هـ/ 1332م) والداواداري (ت 736هم 1335م)، والذهبي (ت 748هـ/ 1347م)، وابن كثير (ت 774هـ/ 1373م)، وابن الفرات (ت807هـ/ 1404م)، والمقريزي (ت845هـ/ 1442م)، وابن تغري بردي (ت 874هـ/ 1469م)، ما جاء في المصادر المعاصرة للمؤامرة والعصيان[3].

وما ذكره تاريخ هرقل عن إهمال صلاح الدين للدّفاع عن عكا لا يستند إلى الحقيقة، فصلاح الدين ظلّ مرابطاً في فلسطين ومدافعاً عن أرضها حتى بعد سقوط

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج10، ص376؛ سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص602؛ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص648؛ أبو شامة، الذيل، ص116؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص80؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص17؛ الرويضي، عماد الدين، ص84.

(2) ابن العبري، تاريخ الزمان، ص253؛ الرويضي، عماد الدين، ص84.

(3) الصفدي، الوافي، ج7، ص226؛ النويري، نهاية الأرب،ج29، ص57؛ الداواداري، كنز الدرر، ج7، ص199؛ الذهبي، تاريخ الإسلام(611–620)، ص27،34؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج17، ص73؛ ابن الفرات، تاريخه، م5، ج1، ص248؛المقريزي، السلوك، ج1، ص314؛ ابن تغري بردين النجوم، ج6، ص230؛ الرويضي، عماد الدين، ص84.

عكا، وأسر الأمير سيف الدين المشطوب[1]، وما يدحض رواية تاريخ هرقل ذهاب سيف الدين بعد إطلاق سراحه إلى صلاح الدين في القدس وتقديم ولائه له[2]. ويُستبعد ما أشار إليه تاريخ هرقل حول استعداد معسكر الملك الكامل ومعسكر ابن المشطوب للاقتتال فيما بينهم، وهروب كلٌ منهم من معسكره، ويمكن دحض ذلك بالتساؤل عن مبررات الهروب بما أنّهم استعدوا للاقتتال، مما يؤكّد تناقض رواية تاريخ هرقل[3].

ومهما تكن أسباب عصيان ابن المشطوب، فقد أثّرت سلباً في قوة تحمّل الملك الكامل وجلادته وصبره على مواجهة الفرنج، كما أضعفت نفوس العساكر المرابطة، وبثت فيهم روح الهزيمة، وأضعفت نفوس المسلمين من أهالي دمياط، بسبب تشديد الحصار عليهم من قبلِ الفرنج.

ويذهب سبط ابن الجوزي إلى أن مؤامرة ابن المشطوب أثارت العساكر على الملك الكامل، وجعلتهُ يفكّر بترك الديار المصرية للفرنج والخروج لليمن[4]، ويروي الداواداري بأنها كسرةٌ عظيمةٌ حلّت بالعساكر المصرية[5]، وَوُصِفت "بالخطب الجسيم"[6].

---

(1) الأصفهاني، الفتح القسي، ص269؛ ابن شداد، النوادر السلطانية، ص262؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص13؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص17؛ الرويضي، عماد الدين، ص85. وللمزيد من المعلومات حول مصور بلدان الشام والجزيرة الشامية انظر المخطط رقم (4) في قائمة الملاحق.

(2) أبو شامة، الروضتين، ج4، ص307؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج16، ص641؛ الرويضي، عماد الدين، ص85.

(3) الأصفهاني، الفتح القسي، ص269؛ ابن شداد، النوادر السلطانية، ص262؛ الرويضي، عماد الدين، ص85.

(4) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص602؛ أبو شامة، الذيل، ص116؛ وانظر ابن واصل، مفرج الكروب،ج4،ص17؛ الداواداري، كنز الدرر،ج7، ص198؛ الذهبي، تاريخ الإسلام(611-620)، ص34.

(5) الدواداري، كنز الدرر، ج7، ص199.

(6) ابن كثير، البداية والنهاية، ج17، ص73.

ومن هنا برز دور الملك المعظّم عيسى في نصرة أخيه الملك الكامل، ففي نفس الفترة التي حدثت فيها مؤامرة ابن المشطوب، وما ترتب عليها من نتائج دقيقة كان اهمها خروج الملك الكامل إلى أشمون طناح، وصل الوزير صفي الدين بن شكر[1] من آمد[2]، فطلبه الملك الكامل، وأكرمهُ وأطلعهُ على محاولة ابن المشطوب في الخروج، وهنا أشار الوزير صفي الدين على الملك الكامل بطلب المساعدة من إخوته[3]، فاستحسن الكامل هذا الاقتراح وأعجبته نصيحة الوزير[4]. لكنّه لم يعمل بها، وخاف على نفسه من ابن المشطوب وآثَرَ الخروج من العادلية[5].

وأثناء ذلك وصل الملك المعظّم عيسى إلى مصر، وكانت أخبار مؤامرة ابن المشطوب قد وصلته، كما وصلته كذلك أخبار دخول الفرنج لدمياط[6]، فكان وصول وصول المعظّم عيسى بعد يومين من عبورهم إلى العادلية يوم الأربعاء في 19 ذي القعدة من سنة 615هـ الموافق 6 شباط 1219م[7]. فاستقبلهُ الملك الكامل باكياً

---

(1) صفي الدين بن شكر: عبدالله بن علي، أصله من إحدى قرى مصر، كان عالماً فاضلاً، عارفاً بقوانين الوزارة، حيث شغل منصب وزيراً للملك العادل، فانتظمت الأمور الإدارية

= للدولة في عهده، غير أنّ العادل انقلب عليه في أواخر أيّامه، وقام بنفيه إلى آمد، ثم دخل في خدمة الملك الكامل، وتوفي سنة 630هـ/1232م. سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص677.

(2) آمد: أعظم مدن ديار بكر وأجلّها قدرا وأشهرها ذكرا. وهي حصينة منيعة قديمة، ويحيط بها نهر دجلة كالسور، وتشتهر بالعيون والآبار. البكري، معجم ما استعجم، ج3، ص55؛ الحموي، معجم،ج1، ص56، مادة آمد؛ أبو حجر، الموسوعة، ص88.

(3) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص602؛ ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص11؛ النويري، نهاية الأرب، ج29، ص58.

(4) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص602.

(5) ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص11؛ النويري، نهاية الأرب، ج29، ص58.

(6) ابن خلدون، تاريخ، م5، ص752.

(7) ابن الأثير، الكامل،ج10، ص377؛ ابن واصل، مفرج الكروب،ج4، ص17؛ ابن الفرات، تاريخه، ج1، ص250؛ المقريزي، السلوك، ج1، ص315؛ عمران، الحملة الصليبية الخامسة، ص226.

وتعانقا، وشكا لهُ أمرَ ابن المشطوب وأفعالهُ[1]، وبوصول المعظّم عيسى تحسّن موقف أخيه الكامل، وقويت عزيمته، وقويَ قلبهُ، واشتّد بأخيهِ أزرَهُ[2]، وأخذ المعظّم يشجّع الملك الكامل ويثنيَهُ عن رأيهِ واعداً إياهُ " بإزالة جميع المفاسد"[3]. وحلَفَ أن لا ينزل عن فرسه حتى ينفيَ ابن المشطوب عن الدّيار المصرية[4].

وتكاد تتفق المصادر في رواية خبر لقاء المعظّم بابن المشطوب حيث يذكر سبط ابن الجوزي (ت654هـ/ 1256م)، وأبو شامة (ت 665هـ/ 1267م)، وابن خلكان (ت681هـ/ 1282م)، وابن واصل (ت 697هـ/ 1298م)، والصفدي (ت717هـ/ 1317م)، والنويري (ت 733هـ/ 1332م)، أن المعظّم عيسى اتجه إلى خيمة ابن المشطوب في نفس اليوم الذي وصل فيه إلى الديار المصرية[5]، وأوهمهُ بأنه يريد رأيهُ في أمر البلاد المصريّة، وطلب منهُ الركوب على عجل[6]، قائلاً له: "اركب والحقني حتى نتفق على أمرٍ تكون فيه المصلحة، فرأيك المباركُ عندي"[7]، فخرج

(1) الحموي، التاريخ المنصوري، ص77؛ ابن العميد، اخبار الأيوبيين، ص12؛ الصفدي، الوافي، ج7، ص226؛ الداواداري، كنز الدرر،ج7، ص199؛ ابن الفرات، تاريخه، ج1، ص250؛المقريزي، السلوك، ج1، ص315.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص17؛ النويري، نهاية الأرب،ج29، ص58.

(3) ابن واصل، مفرج الكروب،ج4، ص18؛ ابن الفرات، تاريخه، ج1، ص250؛ المقريزي، السلوك، ج1، ص315.

(4) أبو شامة، الذيل، ص119؛ الداواداري، كنز الدرر، ج7، ص199.

(5) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص602؛ أبو شامة، الذيل، ص116؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص80؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص18؛ الصفدي، الوافي، ج7، ص226؛ النويري، نهاية الأرب، ج29، ص58.

(6) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص602؛ أبو شامة، الذيل، ص119؛ الداواداري، كنز كنز الدرر، ج7، ص199.

(7) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص80؛ الصفدي، الوافي، ج7، ص226؛ الداواداري، كنز الدرر، ج7، ص199.

ابن المشطوب من خيمته بغير صباغات[1] ولحق بالمعظّم عيسى[2] ظناً منه أن المعظّم يميلُ إلى جانب الفائز، وأنّه أتى للاتفاق معه[3]. فركبَ ابن المشطوب حافياً حافياً من غير خُفٍ ولم يحمل سيفهُ لعجلتهِ[4]، وظلّ المعظّم يمشي وإلى جانبه ابن ابن المشطوب حتى أبعده عن خيمته وغلمانه[5]، وكان الملك المعظّم قد اتفق مع خمسين مملوكاً بإمرة عشرة رجال من بني أيوب، وأوكلَ إليهم مهمة اللّحاق به خلسةً، وبعد أن أيقن المعظّم ابتعاده عن العساكر، التفت لابن المشطوب وقالَ له:" إنّ الملك الأشرف طلبك وهو محتاج لك، فيجب أن تسير إليهِ السّاعة"[6].

أدرك ابن المشطوب مُراد المعظّم عيسى فتعذّر قائلاً:" أنّه غير مستعد للرحلة لعدم وجود غلمانه معه"[7]، وبعد هذا الحديث كان المعظّم قد ابتعد كثيراً عن معسكر معسكر ابن المشطوب، فقال له:" يا عماد الدّين، هذه البلاد لك ونشتهي أن تهبها

---

(1) الصباغات: ملابس ملوّنة ومزركشة مختلفة الألوان. القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص493.

(2) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص602؛ الصفدي، الوافي، ج7، ص226؛ الدواداري، كنز الدرر،ج7، ص199؛ ابن الفرات، تاريخه، ج1، ص250؛ المقريزي، السلوك، ج1، ص 315.

(3) الداواداري، كنز الدرر، ج7، ص199.

(4) سبط ابن الجوزي، مرآة،ج8، ق2، ص602؛ أبو شامة، الذيل، ص126؛ الدواداري، كنز الدرر، ج7، ص199.

(5) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص602؛ الصفدي، الوافي، ج7، ص226؛ الدواداري، الدواداري، كنز الدرر،ج7، ص199؛ ابن الفرات، تاريخه، ج1، ص250؛ المقريزي، السلوك، ج1، ص 315.

(6) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص602؛. الصفدي، الوافي، ج7، ص226؛ الدواداري، كنز الدرر،ج7، ص199.

(7) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص602؛ أبو شامة، الذيل، ص116؛ النويري، نهاية الأرب، ج29، ص 59؛ الذهبي، تاريخ الإسلام(611-620)، ص34.

لنـا"[1]، فـأدرك ابـن المشـطوب خطـورة موقفـهِ، وبخاصــةٍ بعـدما شـاهد مماليـك الملـك المعظّم ورجالـه، فقـال:" أنـا مملـوك بنـي أيـوب"[2]، فأجابـه المعظّم " نحـن مـا عدنا نريدك أن تُبلى بغيرنا ولا تُبلى بنا"[3]، فلم يكن أمام ابن المشطوب سبيلاً للاعتراض أو المقاومة، لأنه كان وحيداً، فأمرَ الملك المعظّم مماليكه ملازمته وإبعاده عن الدّيار المصرية ونفيه عن طريق الصحراء إلى غزة من بلاد الشام[4]، ثم أعطاه خمسمائة دينار نفقات الطريق، وقال لابن المشطوب: " كلُّ ما لك يلحق بك"[5]، ويؤكّد سبط ابن الجوزي أنّ المعظّم عاد لخيمة ابن المشطوب، وجهّز غلمانه وخيوله، وكل ما يملكه وأرسلها في أثره[6].

وأدرك الملك الفائز إبراهيم الخطر الذي يهدد حياتـه فـي أعقاب مـا حدث لإبن المشطوب[7]، وتعزّزَ هذا الشعور عندهُ بعد أن طلب منه كل من الكامل والمعظّم

---

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص80؛ الصفدي، الوافي، ج7، ص226؛ النويري، نهاية الأرب، ج29، ص58؛ الدواداري، كنز الدرر، ج7، ص199؛ ابن الفرات، تاريخه،ج1، ص 250؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص179؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج6، ص231.

(2) الداواداري، كنز الدرر، ج7، ص199.

(3) المصدر نفسه، ج7، ص199.

(4) أبو شامة، الذيل، ص116؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص80؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص19؛ الصفدي، الوافي، ج7، ص226؛ أبو الفدا، المختصر، ج2، ص615؛ الدواداري، كنز الدرر، ج7، ص199؛ ابن الفرات، تاريخه، م5، ج1،ص250؛ المقريزي، السلوك، ج1، ص315.

(5) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص602؛. أبو شامة، الذيل، ص116؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص80.

(6) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص602؛ أبو شامة، الذيل، ص116؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص80؛ النويري، نهاية الأرب، ج29، ص59؛ ابن الفرات، تاريخه، ج1، ص250؛ المقريزي، السلوك، ج1، ص315.

(7) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص602؛ أبو شامة، الذيل، ص116.

التوجه للشرق[1]، وذلك لطلب العون والمساعدة من الملوك الأيوبيين هناك، لإنقاذ دمياط من الفرنج[2]، فتوجّه الفائز إلى دمشق ثم إلى حماة ثم إلى الشرق، مستنجداً بالملك الأشرف موسى[3]، غير أن منيّته أدركته بسنجار[4]، حيث توفّي فيها سنة 617هـ/ 1220م[5]. وقد اتّخذ الملك المعظّم عيسى من ذريعة إحضار النجدةِ من الشام وسيلةً لإبعاد أخيه الملك الفائز عن الديار المصرية، ليتسنّى له تصفية أمر الأمراء المتآمرين مع ابن المشطوب[6].

ومما سبق عرضه يمكن القول بأنّ مؤامرة ابن المشطوب والفائز قد فشلت، أما أتباعهما فقد دخلوا في طاعة الملك الكامل[7]، وقد ترتّب على هذه المؤامرة عدة أمور أمور كان من أهمها، امتلاك الصليبيين للعادلية التي كانت خط الدفاع الأوّل ضدهم أثناء

---

(1) ابن كثير، البداية والنهاية،ج13، م7، ص91.

(2) ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص12؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص80؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص19؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج6، ص231.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج10، ص361؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص17؛ الداواداري، الداواداري، كنز الدرر، ج7، ص 198؛ ابن الفرات، تاريخه، ج1، ص249 ؛ عمران، الحملة الصليبية الخامسة، ص228.

(4) سنجار: مدينة مشهورة من أراضي ديار ربيعة، بينها وبين الموصل مسيرة ثلاثة أيام. ابن حوقل، صورة الأرض، ص199؛ الحموي، معجم، ج3، ص262؛ أبو حجر، الموسوعة، ص73.

(5) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص18؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج6، ص230.

(6) ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص11؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص18؛ ابن الفرات، تاريخه، ج1، ص250؛ المقريزي، السلوك،ج1، ص315؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج6، ص231.

(7) ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص12؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص80؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص19؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج6، ص231.

وجودهم في دمياط، ونجاحهم في فرض حصارهم على دمياط من البرّ والبحر، وضمان انهيار مقاومة المسلمين المدافعين عنها[1]. واستمرّ حصارهم لها إلى يوم الخميس 27 شعبان 616هـ/ 7 تشرين ثاني 1219م، فخرج أهلها وسلّموها بالأمان[2].

وقد فسحت حركة ابن المشطوب للقبائل العربية المجال في التعدّي على البلاد المجاورة لدمياط، فنهبوا البلاد، وقطعوا الطريق، وأفسدوا وبالغوا في الإفساد، فكانوا أشدّ خطراً على المسلمين من الفرنج[3].

وعُدّت مؤامرة ابن المشطوب أضرُّ شيئاً على أهل دمياط، حيث تركها الملك الكامل وعساكره من غير دفاعٍ عنها[4]، فانقطع عن أهلها من كان يدخل إليهم من المسلمين، لجلب الأخبار، وقلَّت عندهم المؤونة والقوت[5]، وارتفعت الأسعار، وقطع الدمياطيون رجاءهم من المساعدة[6]، بسبب مؤامرة ابن المشطوب ونيّتهِ السيئة[7] في في تغيير الدولة الكامليّة[8]، وباستيلاء الصليبيين على دمياط ترسّخت الاستراتيجية الصليبية في الاستيلاء على مصر، وقد أشار إلى ذلك زعيم فرسان المعبد في رسالةٍ

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج10، ص361؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص17؛ الداواداري، كنز الدرر، ج7، ص 198؛ ابن الفرات، تاريخه، ج1، ص249؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص195؛ عمران، الحملة الصليبية الخامسة، ص228.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج10، ص377؛ ابن العبري، تاريخ الزمان، ص253؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص18؛ وبخصوص حصار الفرنج لدمياط، انظر أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط(الموسوعة الشامية)، ج33، ص40-49.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج10، ص377؛ النويري، نهاية الأرب، ج29، ص58؛ الذهبي، تاريخ تاريخ الإسلام(611-620)،ص 27؛ ابن كثير، البداية والنهاية،ج17، ص74.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج10، ص377؛ الدواداري، كنز الدرر، ج7، ص200. للمزيد من المعلومات حول موقع دمياط القديمة. انظر الخارطة رقم(1) في قائمة الملاحق.

(5) ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص12؛ الدواداري، كنز الدرر، ج7، ص200.

(6) ابن العبري، تاريخ الزمان، ص69.

(7) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص18؛ الدواداري، كنز الدرر، ج7، ص200.

(8) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص18.

وجهها من عكا سنة 614هـ/ 1217م إلى البابا هونوريوس الثالث، حيث قال: "الطريق إلى القدس تأتي عبر دمياط"[1].

أما عن دور الملك المعظّم عيسى في القضاء على تلك المؤامرة ومواجهة الأطراف المشتركة بها، فقد كان دوره محورياً في القضاء على تلك المؤامرة، وقد قدّر الملك الكامل موقف أخيه المعظّم من تلك المؤامرة، حيث يقول الكامل وهو يشير إلى دور المعظّم في نوبة ابن المشطوب:" ومن حفظ البلاد وأحياني بعد الموت غيره"[2].

لقد كانت علاقة المعظّم عيسى بأخيه الكامل علاقة ود وتعاون، حيث تجسّد هذا التعاون بينهما في مؤامرة ابن المشطوب، وهذا الصفاء في العلاقة بين الأخوين إنما كان في الفترة الأولى من العلاقات بين ملوك البيت الأيوبي بشكل عام، تلك الفترة التي امتدت من 615هـ/1218م ولغاية618هـ/1221م.

4.3 علاقة المعظم بالأشرف موسى

كان الأشرف موسى يملك الدّيار الشرقية، وكانت علاقته بأخيه المعظّم عيسى علاقة جيدة، وتحديداً في أعقاب وفاة والدهم العادل، وقد ساعد كلا الأخوين بعضهما البعض في مواجهة المشاكل المشتركة بينهما، وقد لعب المعظّم عيسى في هذه الفترة دوراً بارزاً في إبقاء العلاقة بين الأخوة علاقة وطيدة، وقد أقنع الأشرف موسى بمساعدة أخيهما الملك الكامل عسكرياً لمواجهة خطر الفرنج في الحملة الصليبية الخامسة على دمياط، حتى أنّ المعظّم عيسى توجّه بنفسه إلى الأشرف في حرّان[3]، وطلب منه الوقوف إلى جانب الكامل، وكان الأشرف مشغولاً آنذاك عن إنجاد الكامل بما كان لديه من مشاكل داخلية، تمثلت بخروج بعض حاشيته وتمردهم عليه[4].

---

(1) Rober payne: Die Kreuzzuge Benziger Verlag Zurich Koln,1986,p.318. نقلاً عن الرويضي، عماد الدين، ص87.

(2) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص650.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص327.

(4) المصدر نفسه، ج12، ص327.

ويذكر سبط ابن الجوزي روايةً نقلها عن المعظّم عيسى، تدلّل على أنّ الأخير ساعد الأشرف في ضم الكثير من المناطق لمملكته، حيث يقول المعظّم:" أنا الذي أخذت له حرّان والرّها والشرق من السلطان الملك العادل رحمه الله أبي، وجهّزته من عندي بالأموال والخيل والعِدَد والمماليك"[1].

وساعد المعظّم أخاه الأشرف على التخلّص من الأمير مبارز الدين سنقر الصلّاحي[2]، الذي هدّدَ حكم الأشرف، حيث كان مبارز الدين هذا مقيماً في حلب ثم انتقل إلى ماردين[3]، وماردين كانت من أملاك الملك الأشرف موسى، فخاف عاقبة وجود الأمير مبارز الدين فيها، فبعث إلى المعظّم يقول:" ما دام المبارز في الشرق لا آمن على نفسي"[4]. وعندما وصلت الرسالة إلى المعظّم أرسل للأمير مبارز الدين يعرض عليه نابلس وما يريد من الشّام[5].

ولمّا وصلت رسالة المعظّم عيسى إلى الأمير مبارز الدين في ماردين، استشار الأخير بعض المقرّبين منه في ما عرض عليه المعظّم، وكان ممن استشارهم

---

(1) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص626.

(2) مبارز الدّين الصلاحي: من كبار الدولة بحلب، له مواقف مشهورة مع صلاح الدّين الأيوبي، توفي بدمشق سنة 620هـ/1223م ورثه الأَمير ظهير الدّين غازي، وكان سنقر مقيماً بحلب ثمّ انتقل إلى ماردين، فخاف الأشرف منه فبعث إلى المعظّم وقال مادام المبارز في الشّرق ما آمن على نفسي. الصفدي، الوافي، ج15، ص296.

(3) ماردين: قلعة مشهورة على قمة جبل الجزيرة، مشرفة على دنيسر ودارا ونصيبين، لها فضاء واسع، وقدّامها ربض عظيم، فيه أسواق كثيرة وخانات ومدارس وربط وخانقاهات، ودورهم فيها كالدرج، كل دار فوق الأخرى وكل درب منها يشرف على ما تحته من الدور، ليس دون = سطوحهم مانع، وعندهم عيون قليلة الماء، وجلّ شربهم من صهاريج معدّة في دورهم، ولها قلعة حصينة. البكري، معجم ما استعجم، ج2، ص63؛ الحموي، معجم، ج5، ص39، مادة ماردين.

(4) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص626؛ الصفدي، الوافي، ج15،ص296؛ النويري، نهاية الأرب، ج 29، ص127.

(5) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص626؛ النويري، نهاية الأرب، ج 29، ص127.

صاحب ماردين[1]، فأشار عليه بعدم الذّهاب إلى دمشق، وحذّرهُ من الملك المعظّم عيسى[2]، لكنّ الأمير مبارز الدين سنقر قرّرَ الذّهاب إلى دمشق، ولمّا وصل استقبله المعظّم في البداية، ثم ما لبث أن أعرَضَ عنه، ولم يفِ له بما وعده[3]، وظلّ يماطلهُ حتى تفرّق عنه أصحابه، وخسر أمواله التي وزّعها على الأمراءِ من حولهِ[4]، ووصل به الأمر لبيع دوابّه وقماشهِ[5]، ثم ما لبث أن مات في شعبان من سنة 621هـ/ 1224م[6].

ويبدو أن تحذير صاحب ماردين للأمير مبارز الدين سنقر كان في مكانه، فقد كان لصاحب ماردين تجربة مع المعظّم تمثّلت بمصادرة تبنين وبانياس منه، ومن هنا جاء تحذيره للأمير سنقر، حتّى أن صاحب ماردين أجاب الأمير سنقر عندما استشاره للذّهاب لدمشق بقوله:" أنّه رأى الذل والهوانَ في الشام"[7]. وهذا يشيرُ إلى سطوَة الملك المعظّم عيسى.

استمرت علاقة الود والتعاون بين المعظّم عيسى وأخيه الملك الأشرف موسى حتى نهاية سنة 618هـ/ 1221م، حيث شهدت العلاقة تحوّلاً بعد هذا التاريخ فسادها التباغض والتناحر الذي قاد إلى الحروب بينهما.

5.3 علاقة المعظّم بأبناء الملك المنصور صاحب حماه

---

(1) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص626؛ الصفدي، الوافي، ج15،ص296؛ النويري، نهاية الأرب، ج 29، ص127.

(2) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص626

(3) المصدر نفسه، ج8، ق2، ص626.

(4) المصدر نفسه، ج8، ق2، ص626.

(5) النويري، نهاية الأرب، ج29، ص127.

(6) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص626.

(7) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص626.

توفّي الملك المنصور[1] صاحب حماه في سنة 617هـ/ 1220م[2]، وكانت مملكته تشمل حماه والمعرّة وسلمية ومنبج وقلعة نجم، وكان له اثنان من الأولاد هما النّاصر قلج أرسلان[3]. والمظفر محمود ولي عهد والده الملك المنصور[4]، وكانا عند أخوالهم عندما توفي والدهما. حيث كان المظفر محمود عند الملك الكامل بمصر[5]، وكان والده قد بعثه مع جيش لنجدة الكامل في دمياط[6]، أما النّاصر قلج قلج أرسلان فكان عند الملك المعظّم عيسى في الشام[7].

وقد اتفق وزير المنصور زين الدين بن فريج مع وجهاء أهل حماه، على تولية الملك النّاصر بدلاً من المظفّر محمود[8] صاحب الشرعيّة وولي العهد، فبعثوا له في في الشّام[9]، غيرَ أنّ المعظّم عيسى منعَ النّاصر من التوجّه إلى حماه إلاّ بعد أن

---

(1) الملك المنصور: محمد بن شاهنشاه بن أيوب ابن شاذي، مات يوم الاثنين الثاني والعشرين من ذي القعدة سنة 617هـ/ 1220م بحماة. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، ص457.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب،ج4، ص86. للمزيد من المعلومات حول الأسر الأيوبية.

(3) الناصر قلج أرسلان: قلج أرسلان بن محمّد بن عمر بن شاهنشاه بن أَيوب الملك النّاصر بن المنْصور صاحب حماة، تملّك بعد أَبيه وبقي في الأَمر سنوات ثمّ أَخذ أخوه المظفر منه حماة بإعانة الكامل وبقيت له قلعة بعرين ثمّ أخذت منه فسار إلى مصر، ثمّ بدا منه كلام فج فحبسه الكامل فبقي في الحبس إِلى أَن مات به قبل موت الكامل بأيام قلائل سنة 635هـ/1238م. الصفدي، الوافي،ج24، ص203-204. للمزيد من المعلومات حول الأسر الأيوبية. انظر المخطط رقم (1) في قائمة الملاحق.

(4) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص86.

(5) المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص205.

(6) الحنبلي، شفاء، ص398.

(7) ابو الفدا، المختصر، م2، ج6، ص23.

(8) الحنبلي، شفاء، ص398. للمزيد من المعلومات عن الأسر الأيوبية. انظر المخطط رقم (1) في قائمة الملاحق.

(9) أبو الفدا، المختصر، م2،ج6، ص23.

ألزمهُ بدفع اربعمائة ألف درهم سنوياً بموجب اتفاقية بينهما، فحلف النّاصر على ذلك، وسمح له بالمغادرة إلى حماة[1].

ولما علم الملك المظفّر محمود بما بدر من أخيه النّاصر، استأذن خالهُ الملك الكامل بالتّوجه إلى حماة لاسترجاع مُلكهِ، فتوجّه إلى الشّام، ثم وصل الغور فالتقاه خالهُ المعظّم عيسى، فأطلعهُ على قصدهِ، لكنّ المعظّم حاول أن يثنيَهُ عن الوصول إلى حماه[2]، قائلاً له: إنّ أهلها قد قدّموا الطاعة للملك النّاصر، ونصحهُ بالذهاب إلى دمشق ومكاتبة أهل حماه وتذكيرهم بعهدهم له أيّام أبيه، وبالفعل بعث المظفّر محمود برسائل لأكابر أهل حماه طالباً منهم تسليمها له[3]، ولكنْ لم يجبه أحد، فعاد إلى مصر وأقطعهُ خاله الكامل إقطاعاً فيها[4].

امتازت علاقة الملك المعظّم عيسى مع أبناء الملك المنصور صاحب حماه بتقريب النّاصر قلج أرسلان على حساب أخيه الملك المظفّر محمود، ويبدو أنّ المعظّم عيسى كان يهدف من وراء تقريب النّاصر على حساب المظفّر للحفاظ على الاتفاقيةِ التي أبرمها مع النّاصر قبل انتقالهِ لاستلام السلطة في حماه. ويبدو أنّ تغليب المصالح بين المعظّم عيسى والملك النّاصر قد نجح في إقصاء الملك المظفّر محمود عن السّلطة.

6.3 تدهور العلاقات بين المعظّم وملوك البيت الأيوبي

ما إن اجتاحت الحملة الصليبية الخامسة العالم الإسلامي، حتى تغيّر نمط العلاقة بين ملوك البيت الأيوبي، فبعد أن كانت تتسم بطابع التعاون والإتفاق بينهم، تغيّرت واصبحت يشوبها الاختلاف والتباعد والتناحر[5].

---

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص86؛ أبو الفدا، المختصر، م2، ج6، ص23. انظر المخطط رقم (1) في قائمة الملاحق.

(2) المقريزي، السلوك،ج1، ق1، ص205.

(3) الحنبلي، شفاء، ص197.

(4) المقريزي، السلوك،ج1، ق1، ص205؛ الحنبلي، شفاء، ص197.

(5) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ص621؛ أبو شامة، الذيل، ص130.

بدأ سوء العلاقات بين ملوك البيت الأيوبي اعقاب انتهاء الحملة الصليبية الخامسة على العالم الإسلامي، وتحديداً بعد توقيع الصلح بين الملك الكامل والصليبيين في مطلع سنة 618هـ/1221م، حيث عادت العساكر الشامية بأمرائها إلى بلادها، كما عاد الصليبيون إلى عكّا[1]، في حين بقي الملك الأشرف في مصر عند الملك الكامل، ومن هنا بدأ الخلاف يدبُّ في البيت الأيوبي، حيث اعتقد الملك المعظّم عيسى أن أخويه الأشرف والكامل قد تحالفا ضدّه[2]، وقد تعمّق هذا الاعتقاد عند المعظّم عيسى في أعقاب مشكلة أبناء المنصور صاحب حماه، فظنّ أنّ تحالفاً قد قام بين أخويه ضدّه، ردّاً على موقفهِ من مشكلةِ أبناء المنصور صاحب حماة[3].

وقد تعزّزت قناعة المعظّم عيسى بأنّ تحالفاً قد قام ضدّه بعد ستة شهور من تولي النّاصر صاحب حماه للسّلطة، حيث طلب النّاصر المساعدة من الأشرف والكامل ولم يطلبها من حليفهِ المعظّم عيسى، الأمر الذي زاد من عزلةِ المعظّم عيسى وشعوره بالوحدةِ بين ممالك بني أيوب. فشعر بخذلانِ النّاصر له وعدم دعم موقفه في المملكة الأيّوبية[4].

لقد أراد المعظّم عيسى أن يعزّزَ موقفه بين الممالك الأيوبية ويقوّيَ من وجوده، حيث يعد نفسه نصيراً للملك النّاصر في حماة، فقد لعبَ المعظّم دوراً في وصول النّاصر للسلطة. لكن النّاصر خيّب ظن المعظّم ولم تكن مواقفه كما أرادها المعظّم عيسى، وبذلك يكون المعظّم عيسى قد فقد واحداً من حلفائه القلائل في المنطقة[5].

---

(1) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ص621؛ أبو شامة، الذيل، ص130؛ النويري، نهاية الأرب،ج29، ص118؛ ابن كثير، البداية والنهاية،ج13، ص103.

(2) أبو شامة، الذيل، ص130؛ النويري، نهاية الأرب،ج29،ص118؛ ابن كثير، البداية والنهاية،ج13، م7، ص103.

(3) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 130 أبو شامة، الذيل، ص130؛ النويري، نهاية الأرب،ج29، ص118؛ ابن كثير، البداية والنهاية،ج13، ص103.

(4) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ص621؛ أبو شامة، الذيل، ص130؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص117؛ أبو الفدا، المختصر، م2،ج6، ص129.

(5) أبو شامة، الذيل، ص130؛ ابن واصل، مفرج الكروب،ج4، ص117، وانظر Humphreys, From Saladin to Mongols,p.p171.

وقد بدا الخلاف ظاهراً للعيان في سنة 619هـ/1222م، حينما رفض النّاصر أن يدفع المبلغ المالي الذي أُتُفقَ عليه مع المعظّم[1]، فاتّخذ المعظّم عيسى من ذلك ذريعةً لمهاجمة حماه، وقد ساعدهُ في التوجّه إلى حماة تذرّعه بتكليف الملك الكامل له للبحثِ عن مملوك يدعى مجاهد الدين إقبال، كان قد هرب من مصر إلى الشّام، فزعمَ المعظّم أنّ الملكَ الكامل قد بعثهُ في أثره، للقبض عليه وإرجاعه إلى مصر[2].

وأثناء ذلك كان الملك النّاصر صاحب حماه قد خرج للصّيد، فقصد المعظّم عيسى مُجدّاً نحو حماة[3]، فلمّا علمَ النّاصر بنيّةِ المعظّم رجع إلى حماة قبل وصول المعظّم إليها[4].ولمّا وصل المعظّم إلى حماه، لم يتمكن من دخولها فنزل على سلمية[5]. واستولى عليها[6]. وعيّن والياً من طرفهِ عليها[7]، ثم نزل بمعرّة النعمان، النعمان، وسيطر على غَلّاتها، وولّى عليها كذلك والياً من طرفهِ، ثم عاد إلى سلمية وأقام فيها[8]، ثم أخذ يستعد لحصار حماه، حيث أمر البدو بقطع الميرةِ عنها، كما منع الجنود من دخولها، وسعى لتحويل طرق القوافل عنها باتجاه سلمية[9].

---

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص117؛ أبو الفدا، المختصر، م2،ج6، ص129.

(2) أبو شامة، الذيل، ص130؛ ابن واصل، مفرج الكروب،ج4، ص117، وانظر Humphreys, From Saladin to Mongols,p.p171.

(3) ابن العديم، زبدة الحلب، ج3، ص192.

(4) المصدر نفسه، ج3، ص192.

(5) سَلَمْية: بلدة في ناحية البرّيّة من أعمال حماة بينهما مسيرة يومين، وكانت تعدّ من أعمال حمص، ولا يعرفها أهل الشّام إلّا بسلميّة. الحموي، معجم، ج3، ص240؛ الذيب، معجم الأسماء والمدن والقرى، ص322.

(6) ابن العديم، زبدة الحلب، ج3، ص192؛ ابو الفدا، المختصر، م2، ج6، ص29؛ ابن الوردي، تتمة المختصر، ج2، ص210.

(7) المصدر نفسه ، ج2، ص210.

(8) ابو الفدا، المختصر، م2، ج6، ص28.

(9) ابن العديم، زبدة الحلب، ج3، ص192. وللمزيد من المعلومات حول مصور بلدان الشام والجزيرة الشامية انظر المخطط رقم (4) في قائمة الملاحق.

وصلت أنباء المعظّم إلى مصر، حيث كان الأشرف والكامل، فأنكرا تصرّف المعظّم، وبعث الكامل برسالة للمعظّم يطالبهُ فيها بالرّحيل عن حماه[1]، وقد حمل الرسالة للمعظّم ناصح الدين الفارسي[2]، حيث وصل للمعظّم وهو مقيم بسلمية، وقال وقال له: السلطان يأمرك بالرّحيل، فأجاب المعظم: السّمعَ والطاعة[3]، ثم بعث الملك الملك الأشرف بنائبه حسام الدين علي بن حمّاد الموصلّي[4] للمعظّم عيسى، يطالبه بالرّحيل عن بلاد الملك النّاصر، ويوضّح للنّاصر عدم رضا الكامل والأشرف على تصرّفات المعظّم عيسى[5].

وأمام إصرار الكامل والأشرف رَحلَ المعظّم عيسى عن بلاد الملك النّاصر وهو غاضبٌ من أخويه الكامل والأشرف، وعاد إلى دمشق سنة 620هـ/1223م[6]، ورجعت كل من المعرّةِ وسلمية للملك النّاصر صاحب حماة[7]. وفي أواخر سنة 620هـ/ 1223م عاد الملك الأشرف من مصر إلى الشام متوجّهاً شرقاً إلى بلاده، فلما وصل دمشق، استقبله المعظّم عيسى وعرضَ عليه النزول بالقلعةِ حيث يسكن هو، فرفضَ الأشرف، ونزل بجوسق[8] أبيه، وبدا الخلاف والتناحر واضحاً بينهما، ثم ثم غادرَ الأشرف في الصّباح دون أن يخبر المعظّم برحيله[1].

---

(1) المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص214.

(2) ناصح الدين الفارسي: فضل الله بن مُحَمَّد بن أبي الشريف أَحْمد بن مُحَمَّد بن أَحْمد أَبُو مُحَمَّد كان يلقب بالناصح. الصفدي، الوافي، ج23، ص74.

(3) أبو الفدا، المختصر، م2، ج6، ص29.

(4) حسام الدين الموصلي: الأَمير حسام الدّين علي بن حماد الحاجب متولّي خلاط نيابة عن الأَشرف موسى. الصفدي، الوافي، ج21، ص47.

(5) ابن العديم، زبدة الحلب، ج3، ص192.

(6) المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص214.

(7) ابن الوردي، تتمة المختصر، ج2، ص214. وللمزيد من المعلومات حول مصور بلدان الشام والجزيرة الشامية انظر المخطط رقم (4) في قائمة الملاحق.

(8) الجوسق: هو الحصن، وقيل شبيه بالحصن، معرَّب وأَصله كوشك بالفارسيّة. والجوسق: القصر أَيضاً. انظر ابن منظور: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن

7.3 أحلاف المعظّم عيسى

أدركَ المعظّم عيسى أن العلاقة بينه وبين إخوته من جهةٍ، وبينه وبين أبناءِ البيت الأيوبي من جهةٍ أخرى، قد وصلت إلى درجةٍ متقدمة من التناحر والخلاف، ولذا بدأ المعظّم عيسى يبحث عن أحلاف بديلة لمواجهة الأخطار الجديدة المتمثلة بخطر الكامل والأشرف بوصفهما أكبر قوتين أيوبيتين آنذاك[2].

1.7.3 تحالف المعظّم عيسى مع أمراء الجزيرة ضد الكامل والأشرف

إنّ الخلاف الذي عصف بعلاقة الأخوة الثلاثة (المعظّم والكامل والأشرف)، على خلفية موقف الكامل والأشرف من قضية حماه، وإقامة الأشرف عند الكامل في مصر، أشعرَ المعظّم عيسى بأنّ هناك خطراً يتهدّدَه، فبدأ يبحث عن حليفٍ لمواجهة ذلك الخطر[3].

وقد اتيحت الفرصة للملك المعظّم عيسى سنة 621هـ/ 1224م، لمحاسبة أخويه، فقد استفاد من أطماع أمراء الجزيرة في تأسيس إمارةٍ مستقلةٍ لهم، فراسل مظفر الدين كوكبري صاحب إربل[4]، وبعث إلى نائب الملك الأشرف وولي عهده المظفّر غازي[5] يحرّضهُ على الثورة ضد الأشرف[1]، وقد كان الأشرف استناب المظفّر غازي على جميع بلاده عندما قصد مصر[2]. وقد اسفرت اتصالات المعظّم مع المظفّر غازي والمظفّر كوكبري على خطّةٍ للسيطرة على أملاك الأشرف.

منظور (ت 711هـ/1311م)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 15جزء، 1414هـ/1993م، ج10، ص35. وسيشار إليه فيما بعد، ابن منظور، لسان العرب.

(1) أبو شامة، الذيل، ص133؛ الداواداري، كنز الدرر، ج7، ص265.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص117.

(3) المصدر نفسه، ج4، ص137.

(4) المصدر نفسه، ج4، ص137.

(5) المظفر غازي: شهاب الدين غازي أخو الأشرف موسى وقد ملك ميافارقين وخلّاط حتى وفاته في سنة 645هـ/ 1247م. ابن تغري بردي، النجوم، ج6، ص226.

وكانت الخطة تقوم على ثورة المظفّر غازي في أرمينيا ضد الأشرف[3]، وتَوجُّه كوكبري لحصار الموصل[4]، أمّا المعظّم فكان عليه التوجُّه للشمال لمحاصرة ديار مُضر[5]. وعلى الرغم من إحكام تلك الخطة إلّا أنها لم تنجح، حيث استطاع الملك الأشرف إخماد ثورة المظفّر غازي في خلّاط وميافارقين، وانتزاع خلّاط منه بعد أن حاصرهُ في قلعتها، ولم يكن أمام المظفّر غازي إلا الاعتذار، فقَبِلَ الأشرف اعتذاره، ولم يعاقبهُ، وأقطعه ميافارقين[6]، وأقام فيها حتى وفاته سنة 645هـ/ 1247م[7].

أما كوكبري فقد توجّه للموصل وفرض عليها الحصار، لكنّه لم يتمكن من دخولها والسيطرة عليها لقوة تحصيناتها[8]، وعلى الرغم من أن جيش الأشرف رافقه إلى خلّاط للقضاء على ثورة المظفر غازي فيها[9]، إلّا أنّ الموصل لم تستسلم لحصار كوكبري، الذي اضطر إلى رفع الحصار عنها والتّراجع إلى إربل، بعد أن وصلته أخبار استسلام المظفر غازي للملك الأشرف[10].

---

(1) أبوشامة، الذيل، ص133؛ ابن الوردي، تتمة المختصر،ج2، ص210؛ ابن خلدون، تاريخ، ق4، م5، ص763.

(2) أبو شامة، الذيل، ص130؛ الدواداري، كنز الدرر، ج7، ص265. للمزيد من المعلومات حول الأسر الأيوبية. انظر المخطط رقم (1) في قائمة الملاحق.

(3) ابن العديم، زبدة الحلب، ج3، ص195.

(4) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص137؛ ابن كثير، البداية والنهاية، م7،ج13، ص112

(5) أبو شامة، الذيل، ص130؛ الدواداري، كنز الدرر، ج7، ص265؛ وانظر Humphreys, From Saladin to Mongols,p.p174.

(6) ابن كثير، البداية والنهاية، م7،ج13، ص112

(7) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص137؛ وانظر Humphreys, From Saladin to Mongols,p.p175.

(8) أبو شامة، الذيل، ص 130؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص137.

(9) ابن كثير، البداية والنهاية، م7، ج13، ص112.

(10) ابن كثير، البداية والنهاية، م7، ج13، ص112.

أما المعظّم عيسى فتوجّه للشمال نحو الرقةِ وحرّان، وأقام في قرية يقال لها القطنة[1]، عندئذٍ بعث الأشرف إلى أخيهِ الكامل يخبره بأمرِ المعظّم، ويطلب مساعدته، والوقوف في وجه التحالف، فجهّز الكامل العساكر[2]، وبعث إلى المعظّم رسالة يقول فيها" إن تحرّكت من بلدك سرت إليه وانتزعته منك"[3]، ويبدو واضحاً أنّ أنّ الرسالة وصلت للمعظّم بعد خروجه، فأثارت خشيته من قوة الكامل، وتدخله لجانب الأشرف، فتراجع إلى دمشق[4]، وقد أجبره على التراجع أعداد العساكر التي كانت مع الكامل، حيث كانت تلك القوات تقارب الإثنى عشر ألفاً من المقاتلين، في حين لم يكن مع المعظّم ما يزيد على الثلاثة آلاف مقاتل.

لقد فشل التحالف الذي عقده الملك المعظّم عيسى، ولم يحقق من أهدافه شيئاً، ويبدو أنّ سبب الفشل يعود إلى قوة الكامل والأشرف وتفاهمهما، وقد أدّى شعور المعظّم عيسى بقوة خصومه إلى البحث عن تحالف جديد يعادل قوّة خصومه، فوجد ضالّته في جلال الدين خوارزم شاه[5].

2.7.3 تحالف المعظّم عيسى مع جلال الدين الخوارزمي

وجد المعظّم عيسى في جلال الدين الخوارزمي حليفاً قوياً قادراً على مواجهة خصومهِ، وقد بدأت العلاقة بينهما في سنة 619هـ/ 1222م، وذلك في أعقاب سيطرة جلال الدين على بلاد أذربيجان ومناطق واسعة في خراسان، وقد انتشرت أخبار قوّتهِ في الوقت الذي كان فيه المعظّم عيسى يبحث عن حليف قوي لمواجهة إخوته[6]. وكان المعظّم عيسى قد أرسل محتسب دمشق الصدر البكري[1] لجلال

---

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص 138؛ النويري، نهاية الأرب، ج29، ص126.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص420.

(3) المصدر نفسه ، ج12، ص422؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص139.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص422؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص139.

(5) سبط بن الجوزي، مرآة،ج8، ق2، ص632؛ النويري، نهاية الأرب، ج29، ص126.

(6) سبط بن الجوزي، مرآة،ج8، ق2، ص632؛ النويري، نهاية الأرب، ج29، ص126؛ ابن كثير، البداية والنهاية، م7، ج13، ص112.

الدين الخوارزمي، يعرض عليه التحالف ضد الأشرف والكامل[2]، وقد اجتمع البكري بالخوارزمي واتّفق معه على ذلك التحالف[3].

ويذكر أبو شامة رواية طريفة حول ذهاب البكري للخوارزمي، حيث تزامنت رحلته مع ظهور الجراد وبأعداد كبيرة في الشّام، وقد أرسله المعظّم إلى بلاد العجم، بحجّة أنّ هناك طائراً اسمهُ السمرمر يأكل الجراد، وأنّ هذا الطير يجتمع على عين ماء هناك، وأنّ طريقة احضاره تتم بتعبئة الماء من تلك العين بقوارير، ووضع تلك القوارير على رؤوس الرّماح، حيثُ يراها الطّير فيلحقها، ولكنّ ما حدث هو زيادة الجراد بعد عودة البكري للشّام، فانكشفَ الأمر وظهرت الخدعة للنّاس، وعرفوا الهدف من زيارة بلاد الخوارزمي. حتّى قيلَ للمعظّم: إنّه كان من الممكن أن تبعث برسائلك للخوارزمي مع التجار بدلاً من خلق تلك القصة[4].

وقد كرّر المعظّم عيسى رسله إلى جلال الدين الخوارزمي في عام 621هـ/ 1224م[5]،حيث بعث رجلاً صوفياً يُدعى الملق[6] بهدف تجديد التحالف، وطلب النجدة والمساعدة ضد إخوته الأشرف والكامل، ويبدو أنّ هذه الرسالة جاءت تجديداً للتحالف السابق، بعد فشل التحالف الأوّل مع المظفّر غازي ومظفّر الدين كوكبري.

---

(1) سبط بن الجوزي، مرآة،ج8، ق2، ص632؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص 138؛ النويري، نهاية الأرب، ج29، ص126.

(2) سبط بن الجوزي، مرآة،ج8، ق2، ص632؛ أبو شامة، الذيل، ص130؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص 138؛ النويري، نهاية الأرب، ج29، ص126.

(3) أبو شامة، الذيل، ص130؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص138؛ الداواداري، كنز الدر، ج7، ص267.

(4) أبو شامة، الذيل، ص130.

(5) الذهبي، العبر، ج5، ص80.

(6) الملق: رجل صوفي استخدمه الملك المعظّم عيسى كرسول للخوارزمي. انظر سبط بن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص632.

وكان المعظّم عيسى على اتصال مع مظفّر الدين كوكبري صاحب إربل خلال هذه الفترة، وذلك لإقامة تحالف ثانٍ[1] ضد الأشرف موسى[2]، وتأكيداً لصدق نيّتهِ مع كوكبري أرسل ولدهِ النّاصر داوود رهينةً عند كوكبري[3].

لقد كان لكلٍ من المتحالفين أهدافه، فمظفّر الدين كوكبري له أطماعه في الموصل، وللمعظّم عيسى أطماعه في بلاد أخيه الملك الأشرف، ورغبته في الانتقام من الكامل والأشرف لوقوفهما ضده، أما الحليف الثالث جلال الدين الخوارزمي فقد كان يطمع في تقوية جبهته ضد الخلافة العباسية في بغداد[4].

وقد انضمّ لهذا التحالف صاحب آمد الملك مسعود[5]، والملك المنصور[6] صاحب ماردين، وبالرغم من العداءِ الذي كان بين الملك مسعود والملك المنصور، إلّا انّهما اتفقا وتصالحا، بتدخل من الملك المعظّم ومظفّر الدين كوكبري اللّذين أنهيا الخلاف بينهما وأدخلاهما في التحالف[7]. وكان هدف المعظّم من الإصلاح بينهما إيجاد حلفاء جدد لهُ من ملوك المنطقة لمواجهة إخوتهِ[8].

---

(1) ابن تغري بردي، النجوم، ج6، ص257.

(2) الذهبي، العبر، ج5، ص81.

(3) أبو شامة، الذيل، ج5، ص142.

(4) أبو شامة، الذيل، ج5، ص142؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج6، ص257؛ وانظر Humphreys, From Saladin to Mongols,p.p177.

(5) الملك مسعود: هو الملك مسعود بن الملك الصّالح ناصر الدين محمود بن محمد بن قرا أَرسلان بن أرتق ملك بعد والده. ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص93.

(6) الملك المنصور: نجْم الدّين أَبو الفتح غازى بن الملك المظفر قرا ارسلان بن الملك السعيد نجم الدين غازي بن الملك المنصور ناصر الدين أرتق بن غازي بن المنى بن تمرتاش بن غازي بن أرتق الأرتقي توفي سنة 658هـ/1260م. ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص68.

(7) الحموي، التاريخ المنصوري، ص152.

(8) الحموي، التاريخ المنصوري، ص152؛ وانظر Humphreys, From Saladin to Mongols,p.p176.

وقد اتفق الحلفاء سنة 623هـ/ 1226م، على تمزيق وحدة أملاك الملك الأشرف وتقسيمها بينهم[1]، وقد اتفق هؤلاء الحلفاء على خطة عمل من أجل السيطرة على تلك الأملاك، وقد تمثلت بما يلي:

أولاً: يتوجّه الملك المعظّم عيسى نحو حمص وحماة ليستولي عليهما.

ثانياً: يتوجّه مظفّر الدين كوكبري نحو الموصل ويحاصرها ليستولي عليها.

ثالثاً: يُعلن الملك المنصور استقلاله في ماردين عن الملك الأشرف

رابعاً: يتوجّه جلال الدين الخوارزمي إلى خلاّط ليستولي عليها[2].

بدأ المتحالفون تنفيذ خطّتهم سنة 623هـ/ 1226م، حيث توجّه كل منهم نحو هدفه المرسوم له[3]، وكان المعظّم عيسى قد عمل على تأمين مملكته في دمشق قبل قبل توجهه إلى حمص وحماه، حيث كان يخشى قدوم أخيه الملك الكامل إلى دمشق في حالة مغادرته لها نحو الشمال[4]، سيّما بعد أن وصلته أخبارٌ تفيد بتحرّك الكامل الكامل مع عساكره نحو الشّام، وبأنه وصل إلى البركة[5]، وقد تخلّص المعظّم عيسى عيسى من خوفه بخدعة أخيه الكامل، حيث أرسل إليه رسالتين أحداهما سريّة يقول فيها:" إنني نذرت إلى الله تعالى، بأن أتصدق بألف دينار عن كل مرحلة ترحلها لقصدي، فإنّ جميع عساكرك معي، وكتُبهم عندي، وأنا آخذك بعسكرك"[6]. وربما كان هناك مراسلات بين المعظم عيسى وبين جند أخيه جعلته يستند عليها في رسالته لأخيه، ثم بعث مع هذه الرسالة كتاباً آخر عَلني، يقول فيه:" إنني مملوكك،

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص453.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص175- 176. للمزيد من المعلومات حول مصور بلدان الشام والجزيرة الشامية. انظر مخطط رقم(4).

(3) ابن اللقلق، تاريخ الكنيسة، م4، ج1، ص45؛ وانظر ابو الفدا، مختصر، ج2، م2، ص35.

(4) ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص137.

(5) البركة: ويقصد بها بركة الجيش، وهي أرض ممتدة واسعة مشرفة على نيل مصر. الحموي، الحموي، معجم،ج1، ص401، مادة بركة الجيش؛ أبو حجر، الموسوعة، ص197.

(6) ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص135؛ النويري، نهاية الأرب، ج29، ص142؛ المقريزي، المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص222.

وما خرجتُ عن طاعتك ومحبّتك، وأنا أوّل من حضر لخدمتك قبل ملوك الشام والشّرق، وحاشاك أن تخرج وتقاتلني وأنا أوّل من أنجدك"[1].

إنّ خدعة المعظّم أثمرت، فقد قرأ الكامل الكتاب العلني على عساكرِهِ، ورجعَ من العباسةِ إلى القاهرة خائفاً من عساكره[2]، حيث دخلته الريبةُ منهم، فقبض على بعض الأمراء في جيشه، أمثال فخر الدين الطنبا الحبيشي[3]، وفخر الدين الطنبا الفيومي[4] وغيرهم واستولى على أموالهم[5]. ولعلّ القبض على هؤلاء الأمراء ومصادرة أموالهم يدعم وجود مراسلات بالفعل بينهم وبين الملك المعظّم، خاصّة وأنهم من الأمراء الصلاحية في ولائهم، مستغلين فرصة الخلاف بين الأخوة، رغبةً في التخلّص من الملك الكامل والمعظّم معاً، وعودة حكم أبناء صلاح الدين ونفوذهم.

أقام الملك الكامل في مصر لا يجسر الخروج منها، بعد أن أوهمه المعظّم بولاءِ جنده تجاهه، فاستغلّ المعظّم عيسى ذلك، وصمّم على قصد حماة وحمص[6]، وقرّر وقرّر البدء بحمص فتوجّه نحوها وحاصرها[7]، غير أنّه لم يتمكن من النّيلِ منها لمَنعتِها وحصانة قلعتها[8]، فأمر عرب دمشق أن يغيروا على قراها وينهبوها[9]،

---

(1) ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص135؛ النويري، نهاية الأرب، ج29، ص142؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص222.

(2) ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص137؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص222.

(3) فخر الدين الطنبا الحبشي: أحد مماليك صلاح الدين الأيوبي، كما كان أحد أمراء الجيش زمن الملك الكامل. ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص137.

(4) فخر الدين الطنبا الفيومي: ويقال له الجحاف، أحد مماليك صلاح الدين الأيوبي، كما كان أحد أمراء الجيش زمن الملك الكامل. ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص137.

(5) ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص137؛ المقريزي، السلوك،ج1، ق1،ص223.

(6) ابن العديم، زبدة الحلب،ج3، ص؛ ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص135؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص177.

(7) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص177.

(8) المقريزي، السلوك،ج1، ق1، ص220.

(9) ابن العديم، زبدة الحلب، ج3، ص197.

فنزلوا على الزّراعة[1] من أرض حمص وأرض جُوْسِية القصب[2]، ومكثوا أياماً يغيرون عليها ويعودون لمنازلهم[3]، وبعد هذه الهجمات، وصلت جموع من عرب مانع من بدو حلب، والتقوا قرب حمص، ووقعت بينهم عدة معارك[4].

طال حصار المعظّم عيسى لحمص ولم ينل منها شيئاً، وقد انتشر المرض في جيشه ودوابّه، فقضى على معظمهم، فقرّر الرحيل عنها والرجوع إلى دمشق في رمضان من سنة 623هـ/ 1226م[5].

أمّا عن بقية التحالف، فقد وصل كوكبري إلى الموصل وحاصرها حصاراً طويلاً، وكان فيها الأمير بدر الدين لؤلؤ[6] الذي طلب النجدة من الأشرف، لكنّ الأشرف لم يستطع نجدته لانشغاله في حصار ماردين، التي خرج فيها صاحبها الملك المنصور عليه[7].

وقد كادت مدينة الموصل أن تسقط في يد كوكبري، غير أنّ المعظّم عيسى طالبه بإنهاء الحصار[8]،لاتّفاقه مع الأشرف حول انهاء حصار الموصل مقابل انهاء

---

(1) الزَّراعةُ: وهي من أراضي حمص. الحموي، التاريخ المنصوري، ص142؛ الذيب، معجم الأسماء والمدن والقرى، ص191.

(2) جوسية القصب: قرية من قرى حمص على ستة فراسخ منها من جهة دمشق بين جبل لبنان لبنان وجبل سنير، فيها عيون تُسقى أكثر ضياعها سيحاً، وهي كورة من كور حمص. الحموي، معجم،ج2، ص185، مادة جوسية، جونز، مدن بلاد الشام، ص231.

(3) الحموي، التاريخ المنصوري، ص142؛ ابن العديم، زبدة الحلب،ج3، ص197.

(4) ابن العديم، زبدة الحلب،ج3، ص197.

(5) المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص223.

(6) بدر الدين لؤلؤ: وهو الملقب بالملك الرحيم، وقد ملك الموصل نحواً من خمسين سنة، وقد كان ارمنياً اشتراه رجلاً خياط، ثم صار إلى الملك نور الدين أرسلان شاه بن عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي ابن آق سنقر الأتابكي صاحب الموصل وتوفي عام 657هـ/ 1259م.ابن خلكان، وفيات الأعيان،ج1،ص184؛ ابن كثير، البداية والنهاية،ج13، ص214.

(7) ابن العديم، زبدة الحلب،ج3، ص197.

(8) المصدر نفسه،ج3، ص197.

انهاء الأشرف لحصار ماردين، وباتفاقهما انتهى حصار كوكبري للموصل، وعاد إلى إربل[1].

أما جلال الدين الخوارزمي فبعد وصوله إلى خلّاط سنة 623هـ/1226م، وصلته أنباء عن ثورة قامت ضده في كرمان بقيادة نائبه، فتراجع مؤثِراً التخلّص من أعدائه في الدّاخل على اتفاقه مع حلفائه[2]، وبعد أن استتبّ الأمن لجلال الدين الخوارزمي في بلاده، قصد خلاط وبلاد ارمينية واستولى عليها سنة 624هـ/ 1227م[3]، وأقام فيها أربعين يوماً، فقصد الأشرف دمشق وطلب من المعظّم أن يُجلي الخوارزمي عن خلّاط وأرمينية[4]، فحصل له ذلك[5].

انتهى تحالف المعظّم عيسى الذي جمعه مع جلال الدين الخوارزمي وكوكبري، حيث فشل في تحقيق أهدافه، والجدير بالذكر أنّ علاقة المعظّم عيسى بعد فشل هذا التحالف استمرت مع جلال الدين الخوارزمي، باعتبار أن القاسم المشترك بينهما العداء للكامل والأشرف والطمع في أملاكهما[6]. وقد تطوّرت تلك العلاقة إلى المصاهرة بينهما، حيث عقد الخوارزمي قِرانه على إحدى بنات المعظّم عيسى، لكنّها لم تزف إليه لأسباب غير معروفة[7].

وتطورت علاقة المعظّم عيسى بجلال الدين الخوارزمي، حتى صار المعظّم يركب بسنجق جلال الدين الخوارزمي أمام الناس، وقد طلب المعظّم من جلال الدين

---

(1) ابن العديم، زبدة الحلب،ج3، ص197؛ العميد، أخبارا لأيوبيين، ص135؛ ابن واصل، مفرج الكروب،ج4، ص177؛ ابن وانظر Humphreys, From Saladin to Mongols,p.p180.

(2) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص121.

(3) ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص136.

(4) أبو شامة، الذيل، ص148.

(5) اليافعي، مرآة الجنان، ج4، ص53.

(6) ابن العديم، زبدة الحلب،ج3، ص197 ؛ ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص136؛ ابن واصل، مفرج الكروب،ج4، ص204؛ وانظر Humphreys, From Saladin to Mongols,p.p182.

(7) ابن واصل، مفرج الكروب،ج4، ص204.

الخوارزمي أن يكون من المنتمين إليه[1]، وقد بلغت العلاقة بينهما إلى درجةٍ أن خُطِب لجلال الدين الخوارزمي على المنابر، وضربِ السّكة باسمه في دمشق[2].

بينما وصلت القطيعة بين المعظّم وأخيه الكامل إلى حدّ قطع الخطبة للكامل في دمشق، وجعلها باسم جلال الدين الخوارزمي[3]، وهذا يدلّل على عدم اعتراف المعظّم المعظّم بالكامل سلطاناً للدّولة الأيّوبية.

8.3 الملك الأشرف أسير الملك المعظّم عيسى

إنّ توَجّه الملك الأشرف إلى دمشق وتفاوضه مع المعظّم عيسى انهى الخلافات بينهما[4]. وكان وصول الملك الأشرف إلى دمشق في رمضان من سنة 624هـ/ 1227م، وقد استقبله المعظّم استقبالاً حافلاً، وأظهر له السرور بقدومه، وزيَّن له البلاد[5]، واجتمع الملكان وتباحثا في أوضاع المملكة الأيّوبية، وضرورة الوصول إلى إلى التفاهم والإتفاق بين أبناء البيت الأيوبي، ثم طلب الملك الأشرف من أخيه المعظّم، أن يترك التحالف مع جلال الدين الخوارزمي، ويرجع إلى صف إخوته[6]. لكنّ المعظّم عيسى لم يستمع لأخيه الأشرف، ولم يبد اهتماماً لما طلبه منه.

وقد اكتشف الأشرف بعد المحادثات التي أجراها مع أخيه المعظّم عيسى، أنّه اصبح اسيراً في دمشق ولا يستطيع مغادرتها، كما شعر بأنّه لا يستطيع مخالفة المعظّم في أي أمرٍ من الأمور[7].

---

(1) الحموي، التاريخ المنصوري، ص120.

(2) ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص136.

(3) المصدر نفسه، ص136.

(4) ابن العديم، زبدة الحلب،ج5، ص195؛ ابن الوردي، تتمة المختصر،ج2، ص420؛ ابن خلدون، تاريخ،ج5، ص763.

(5) ابن واصل، مفرج الكروب،ج4، ص200.

(6) ابن واصل، مفرج الكروب،ج4، ص200؛ وانظر ريان، حامد، الصراع السياسي بين القوى القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1983م، ط1، ص180.وسيشار إليه فيما، بعد حامد ريان، الصراع السياسي.

(7) ابن واصل، مفرج الكروب،ج4، ص204.

نظر المعظّم عيسى إلى زيارة أخيه الأشرف إلى دمشق، على أنّها فرصة له لإملاء شروطه عليه وتحقيق ما لم يستطع تحقيقه بالحرب[1].

استمرت علاقة الملك المعظّم عيسى بجلال الدين الخوارزمي، وكان يتباهى بها أمام الأشرف، فقد لبس أمامه خلعةً كان قد بعث بها جلال الدين الخوارزمي له، وكان يركب فرسه ويحلف برأسه[2].

وقد تأكّد للأشرف من خلال تصرفات الملك المعظّم عيسى أنّ التحالف بين المعظّم وجلال الدين الخوارزمي قويٌّ جداً، وأنّه من غير الممكن إقناع المعظّم بالعدول عن ذلك التحالف[3].

وكان المعظّم عيسى قد فرض رقابةً صارمةً على الأشرف، فقطع الاتصال بينه وبين نوّابه وأتباعه، حتى أصبح الأشرف أسيراً في دمشق لا يستطيع القيام بأي شيء[4].

غير أن الأشرف استطاع عام 624هـ/ 1227م، أن يبعثَ برسالةٍ إلى أتابك شهاب الدين طغريل[5]، نائبه في حلب[6] ، يبين فيها وضعه مع أخيه في دمشق،

---

(1) ابن واصل، مفرج الكروب،ج4، ص204.

(2) الداواداري، كنز الدرر، ج7، ص181؛ النويري، نهاية الأرب،ج29، ص137.

(3) ابن واصل، مفرج الكروب،ج4، ص204 ؛ وانظر Humphreys, From Saladin to Mongols,p.p182.

(4) ابن واصل، مفرج الكروب،ج4، ص204.

(5) شهاب الدين طغريل: طغريل الأمير الكبير شهاب الدين أتابك السلطان الملك العزيز صَاحب حلب ومدبر دولته كان خادماً رئيساً من كبار الأمراء الظاهريّة قام بأمر ولد أستاذه خير قيام واستمال الأشرف حتى أعانهم ودفع عنهم وكان الأشرف يقول والله إن كان لله في الأرض ولي فهو هذا الخادم، وتوفي سنة 631هـ/1234م بحلب. الصفدي، الوافي، ج16، ص262.

(6) وضع حلب في تلك الفترة: عندما توفي الملك الظاهر بن صلاح الدين صاحب حلب، ترك ترك الحكم لولده العزيز غياث الدين، وكان هذا صغيراً وقد عهد إليه والده بالحكم لأن والدته هي إبنة الملك العادل، وأخواله المعظّم والأشرف والكامل، وقد حلف له سراً أخواله الكامل والأشرف وجده العادل مما أثار غيض المعظّم عيسى. أبو شامة، الذيل، ص93.

حيث يذكر "إنّه يتلوّن معي تلوّن الحرباء، ولا يثبت على أمرٍ من الأمور، وأنّه آخر ما وقع بيني وبينه، أن التمس مني أن يَحلفَ لهُ أتابك على مساعدتهِ ومعاضدتهِ، وأن لا يوافق الملك الكامل عليه، وأنّه متى قصده الكامل كان عوناً له عليه"[1].

فلمّا وصلت الرسالة إلى طغريل رفض مضمونها، وقال:" أنا حلَّفني الملك الأشرف للملك الكامل، ومن جملة يمينه أنني لا أهادن أحداً من الملوك على قضية إلا بأمره، فإذا أراد مني هذا، فليأتني بأمرٍ من الملك الكامل حتى أساعده على ذلك"[2]. والواضح من خلال رسالة الأشرف والرد عليها أنّ الملك الأشرف كان أسيراً لدى المعظّم، أو على الأقل كان مقيماً إقامةً جبريةً في دمشق.

استطاع الملك الأشرف التخلّص من أسرِ المعظّم له في جمادى الثانية من سنة 624هـ/ 1227م، وذلك بعد أن حَلَفَ للمعظّم يميناً على الشروط التي فرضها عليه[3]. وقد جاءت على النحو التالي:

أولاً: أن يتبَع حكّام مصر وحماة للمعظّم عيسى، وله الحق في مهاجمتهم عسكرياً إن أراد ذلك[4].

ثانياً: أن يقف الأشرف إلى جانب المعظّم في تحالفه ضد الكامل، صاحب مصر [5]؛ مصر [5]؛ لأن المعظّم كان على علمٍ بتحالف الكامل مع فردريك الثاني[6].

ثالثاً: أن ينسحب جلال الدين الخوارزمي من خلّاط، مقابل اتفاق الأشرف مع المعظّم عيسى[7].

---

(1) ابن العديم، زبدة الحلب، ج3، ص200.

(2) المصدر نفسه،ج3، ص200.

(3) المصدر نفسه،ج3، ص200.

(4) المصدر نفسه،ج3،ص201؛ ابن واصل، مفرج الكروب،ج4، ص180؛ المقريزي، السلوك، السلوك، ج1، ق1، ص221.

(5) ابن العديم، زبدة الحلب، ج3، ص201؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص205.

(6) ابن العديم، زبدة الحلب، ج3، ص201. وسيتم بحث موضوع تحالف الملك الكامل مع الامبراطور فردريك الثاني في الفصل الرابع من الدراسة.

(7) ابن العديم، زبدة الحلب، ج3، ص201؛ اليافعي، مرآة الجنان، ج4، ص53.

وقد وافق الأشرف على الشروط السابقة للمعظّم، وحلف يميناً عليها، فسمح المعظّم عيسى له بالرحيل إلى بلاده وهو مطمئنٌ إليه. فكانت مدة إقامة الملك الأشرف أسيراً لدى المعظّم في دمشق عشرة أشهرٍ[(1)].

وما أن غادر الأشرف دمشق ووصل إلى الرقّة واستقرّ في ممتلكاته، حتى نقض العهدَ، وحنث بيمينهِ باعتباره كان مكرهاً عليها. ورجعَ عن جميع ما اتفق عليه مع المعظّم[(2)]، معللاً ذلك برغبته في الخلاصِ من أسرِ المعظّم له، وبأنّه ما كان لينجوَ من ذلك الأسر لو لم يعقد ذلك الاتفاق مع المعظّم، بما في ذلك الموافقة على تلك الشروط.

وعندما علم المعظّم عيسى بنقض الأشرف لوعوده، بعث للبدو المحليّين في حمص وحماة، يطلب منهم ممارسة أعمال النهب والتخريب في قرى حمص وحماة، حيث أعاثوا فيها الفساد فنهبوها وخرّبوها[(3)].

وكان الملك المعظّم عيسى يهدف من وراء أسرِ الملك الأشرف واحتجازه عنده في دمشق إلى تقوية سلطته، وتأمين نفسه ضد تحالف الأشرف والكامل، وإضعافه ليسهل عليه بعد ذلك السيطرة على أملاك الأشرف[(4)].

9.3 علاقة الملك المعظم عيسى بالخلافة العباسية

تعود علاقة المعظّم عيسى بالخلافة العباسية في بغداد إلى أيّام والده الملك العادل، حيث أرسل الخليفة النّاصر لدين الله[(5)]سنة 604هـ/ 1208م، خلعةً إلى السّلطان

---

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص206.

(2) ابن العديم، زبدة الحلب، ج3، ص201.

(3) ابن العديم، زبدة الحلب، ج3، ص201؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص206.

(4) ابن العديم، زبدة الحلب، ج3، ص201.

(5) النّاصر لدين الله: أَحمد بن الحسن أَمير المؤمنين الناصر لدين الله أبو العباس ابن الإمام المستضيء ابن الإمام المستنجد ولد يوم الأثنين عاشر رجب سنة 553هـ/1158م وبويع له في أول ذي القعدة سنة خمسمائة وخمس وسبعون وتوفي في رمضان سنة 622هـ/1225م وكانت خلافته سبعاً واربعين سنة. الصفدي، الوافي،ج6، ص192.

الملك العادل وأبنائه الأشرف والكامل والمعظّم[1]، وقد وصلت هذه الخلعةُ مع الشيخ شهاب الدين السهروردي[2].

وأرسل الخليفة النّاصر سنة 616هـ/ 1219م، للملك الأشرف موسى يطلب عون عساكره في مقاتلة التّتار[3]، لكنّ الأشرف كان مشغولاً آنذاك بوجود أخيه الملك المعظّم عيسى عنده في الشّرق. حيث حضر المعظّم مستنهضاً همة أخيه الملك الأشرف لقتال الفرنج في دمياط[4].

وقد بدأت العلاقة من جديد بين المعظّم والخلافة العباسية سنة 623هـ/ 1226م، عن طريق الخليفة الظّاهر بأمر الله[5]، حيث بعث الملك المعظم عيسى الأيوبي محي الدين يوسف بن جمال الدين الحافظ أبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي[6]،

---

(1) أبو الفداء، المختصر، م2، ج5، ص140. للمزيد من المعلومات حول الأسرة العادلية. انظر المخطط رقم(2) في قائمة الملاحق.

(2) شهاب الدين السهروردي: عمر بن محمد بن عبدالله بن محمد بن محمد بن حمويه، واسمه عبدالله البكري البغدادي، شهاب الدين أبو حفص السهروردي، شيخ الصوفيّة ببغداد، كان من كبار الصالحين وسادات المسلمين، وتردّد في الرسلية بين الخلفاء والملوك مراراً، وَحُصّلَت له أموال جزيلة ففرقها بين الفقراء والمحتاجين، توفي سنة 630هـ/1232م. ابن كثير، البداية والنهاية، ج 13، ص138.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص38.

(4) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص50.

(5) الظاهر بأمر الله: أبو نصر محمد ولقبه الظاهر، بويع بالخلافة وعمره يومئذ ثنتان وخمسون وخمسون سنة، فلم يل الخلافة من بني العباس أسن منه، وكان عاقلا وقورا عادلا محسناً، ردّ مظالم كثيرة وأسقط مكوساً كان قد أحدثها أبوه، وسار في الناس سيرة حسنة، وكانت مدّة خلافته تسعة أشهر، وهو حسن الشكل مليح الوجه أبيض. ابن كثير، البداية والنهاية،ج13، ص107.

(6) محي الدين يوسف: محي الدين يوسف بن جمال الدين الحافظ أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله بن عبد الله بن حمادى بن أحمد بن محمد بن جعفر الجوزي، كان والده أبو الفرج علاّمة عصره وإمام وقته في الحديث وصناعة الوعظ. صنّف في فنون عديدة، وله المنتظم في التاريخ. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، ص140؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج 13، ص138.

ومعه التشريفات[1] لملوك بني أيوب، الأشرف، والكامل، والمعظم[2]، وقد كان الهدف من إرسال هذه التشريفات للمعظّم بالذّات هو محاولة ثنيه عن تحالفه مع جلال الدّين الخوارزمي، الذي كان من ألدّ أعداء الخلافة العباسية[3]. حيث جاء في الرسالة التي نقلها محي الدين ابن الجوزي من الخليفة إلى المعظّم عيسى:" أنّ الخليفة يطلب من المعظّم أن يتراجع عن تحالفه مع جلال الدين الخوارزمي، ويَعِدَهُ أنّه إذا تراجع فسوف يصلح بينه وبين إخوته"[4]، لكنّ المعظّم عيسى رفض طلب الخليفة، قائلاً:" إنّ الخليفة ليس من عادته أن ينجد أحد، مشيراً إلى الكتب التي بُعثت أيّام حصار دمياط إلى الخليفة النّاصر، والتي لم يفعل النّاصر إزاءَها شيئاً، وأضاف المعظّم أن إخوته قد اتفقوا عليه، وهو بتحالفه مع جلال الدين الخوارزمي إنّما يحمي نفسه"[5].

إنّ موقف المعظّم عيسى من الخلافة العباسية ومن خلال ردّه على رسالة الخليفة يعكس مدى الضّعف الذي وصلت إليه الخلافة العباسية، حيث إنّها لم تكن تتمتع بالقوة التي تدفعُ للالتزام بأوامرها واحترام تلك الأوامر، وعلى الرّغم من ذلك فإنّه يعترف بالخليفة كإمام للمسلمين. ويتّضحُ من ردّه على رسالة جلال الدّين الخوارزمي سنة 622هـ/ 1225م التي بعثها له، والتي طالبه فيها جلال الدين الخوارزمي أن يجتمع مع من تحالف معهم، ويذهبوا لمهاجمة الخليفة، لاعتقاده أنّ الخليفة السبب في هلاك والده، ومجيء التتار إلى البلاد[6]، ولكنّ المعظّم رفض هذا الطلب، وكتب

(1) التشريفات: هي عبارة عن عباءة واسعة الكُمْ سوداء، وعمامة سوداء مُذَهّبة، وثوباً مطرّزاً بالذّهب، إضافةً إلى حصانٍ اشهب اللون. المقريزي، السلوك، ق1، ج1، ص220.

(2) ابن العديم، زبدة الحلب، ج3، ص197؛ المقريزي، السلوك، ق1، ج1، ص220؛ النعيمي، الدارس، ج1، ص30.

(3) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص132؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج6، ص147.

(4) سبط ابن الجوزي، مرآة،ج8، ق2، ص637؛ أبو شامة، الذيل، ص144.

(5) سبط ابن الجوزي، مرآة،ج8، ق2، ص637؛ أبو شامة، الذيل، ص147.

(6) سبط ابن الجوزي، مرآة،ج8، ق2، ص637؛ أبو شامة، الذيل، ص144؛ الدواداري، كنز الدرر، ج7، ص269.

وكتب يردّ على الخوارزمي قائلاً:" أنا معك على كل أحدٍ إلّا الخليفة فإنّه إمام المسلمين"(1).

هذه ملامح العلاقة بين الملك المعظّم عيسى والخلافة العباسية في بغداد، تلك الخلافة التي لم يكن لها عند المعظّم عيسى سوى الإعتراف الإسمي المقرون بعدم الاقتناع، وذلك بسبب ضعف تلك الخلافة وعدم اتّزانها.

إنّ العلاقة بين الملك المعظّم عيسى وملوك البيت الأيوبي قد مرت بمرحلتين، امتدت المرحلة الأولى من سنة 615هـ/ 1218م ولغاية 618هـ/ 1221م، كانت فيها العلاقات بين الطرفين علاقات جيدة اتسمت بالوفاق والوقوف إلى جانب بعضهم البعض في حل مشاكلهم، سواءً أكانت هذه المشاكل داخلية أم خارجية، ولعلّ أهم حدثٍ في هذه الفترة الحملة الصليبية الخامسة على دمياط، ذلك الحدث الذي أظهر تكاتف ملوك البيت الأيّوبي، وتعاضدهم وتَميُّزِ مواقفهم في الوقوف ضد ذلك الخطر الذي كان يهددهم جميعا، وبخاصة موقف المعظّم عيسى.

أمّا المرحلة الثانية من العلاقة بين المعظّم عيسى وملوك البيت الأيوبي، فقد امتدت من سنة 619هـ/1222م ولغاية 624هـ/ 1227م، وقد اتّسمت تلك المرحلة بالخلاف وتوتر العلاقات بين الملك المعظّم عيسى وبين إخوته من جانب، وبينه وبين ملوك البيت الأيوبي من جانبٍ آخر، وقد تمخّضت تلك الخلافات عن الأحلاف التي أقامها المعظّم عيسى مع أمراء المناطق والخوارزمية، تلك الأحلاف التي دفعت بإخوة المعظّم للتحالف مع قوى خارجية، أبرزها تحالف الملك الكامل مع الامبراطور فردريك الثاني، فكان من نتائج تلك الخلافات بين أبناء البيت الأيّوبي، أن سُلِّمَت القدس للصليبيين دون أي جهدٍ أو عناء على يد الملك الكامل.

أما علاقة الملك المعظّم مع الخلافة العباسية في بغداد، فقد كانت علاقة جيدة لم تتعد تبادل السفراء والرسائل، فالمعظّم كان يؤمن بأن الخلافة العباسية هي إمامة المسلمين، وعليه أن يكون على وفاق معها، حيث كان رفضه لكلّ العروض التي

---

(1) سبط ابن الجوزي، مرآة،ج8، ق2، ص637؛ أبو شامة، الذيل، ص144.

تلقّاها من أجل الوقوف ضد الخلافة العباسية، دليلاً على احترامه لمكانة مؤسّسة الخلافة والخليفة.

الفصل الرابع

دور الملك المعظّم عيسى في مقاومة الغزو الصليبي

لا يمكن تجاهل الوجود الصليبي البارز عند الحديث عن الفترة الممتدة ما بين (600هـ- 624هـ/ 1204م- 1227م)، واعتداءاته التي كانت تهدّد المناطق المجاورة للدولة الأيوبية، في عكّا وطرابلس وانطاكيّة وحصن الأكراد[1].

وقد ازدادت التّحرشات الصليبية في مناطق الشمال، وتحديداً حمص وحماة، وكان التخوّف واضحاً عند الأيوبيين من سقوط هاتين المدينتين، وبخاصّة أن سقوطهما يعني سقوط دمشق أهم الممالك الأيوبية[2].

1.4 الملك المعظّم عيسى في مواجهة الصليبيين على الجبهة الشّاميّة

اجتمع الصليبيون في عكّا سنة 600هـ/1204م، بأعداد كبيرة، وكان هدفهم القدس[3]، فقاموا بمهاجمة مناطق وادي الأردن، وأغاروا على قرية كفر كنا[4]،

---

(1) حصن الأكراد: حصن منيع على جبل الجليل المتصل بجبل لبنان، ويقع بين بعلبك وحمص من جهة الغرب، وكانت قلعة هذا الحصن تابعةً لفرسان الإسبتارية، وتمتاز بمناعتها، تحميها الأبراج وتحيط بها الخنادق، ولها سوران يحدقان بها، وقد استولى عليها الإسبتارية عام 1110م. الحموي، معجم،ج2، ص276؛ أبو الفدا، تقويم البلدان، ص259؛ وانظر جوزيف، نسيم يوسف، العدوان الصليبي على مصر" هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسكور، ط1، الاسكندرية، دار الكتب الجامعية، 1969، ص330. وسيشار إليه فيما بعد، نسيم، العدوان الصليبي على مصر.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص159.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص 128-138؛ ابن وواصل، مفرج الكروب، ج3، ص159.

(4) كفركنا: بلدة تقع بين طبرية والنّاصرة. الحموي، معجم، ج4، ص290.

وأسروا جميع من فيها[1]، وكان الملك العادل أثناء ذلك في دمشق، حيث أعلن الجهاد وأخذ يستدعي النجدة[2]، وقد جاءته من كل النواحي، فاجتمعت الجيوش، وانضمّت إليه جيوش الشام ومصر، وتوجهوا جميعاً إلى جبل الطّور الذي يطلّ على عكّا[3]حيث ظلّ العادل مرابطاً للصليبيين حتى سنة 601هـ/ 1204م، ولم تقع بينهما أي عمليات عسكريّة خلال تلك الفترة[4].

وبعد ذلك بدأت المفاوضات للصلح بين الطرفين، ثمّ اتفقوا على هدنةٍ مدّتها ستُّ سنوات[5]، وأهم ما جاء في بنود تلك الهدنة، تأكيد سيطرة الصليبيين على النّاصرة ويافا[6]، وتنازل الملك العادل عن النصف الخاص بالمسلمين في اللد والرملة[7].

---

(1) ابن الفرات، تاريخه، م5، ج1، ص13؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص163.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص159.

(3) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص159؛ وانظر Humphreys, From Saladin to Mongols,p.p133.

(4) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص 163.

(5) وقبل ذلك كان الملك العادل قد عقد هدنة مع الصليبيين وتحديداً في الرابع والعشرين من شعبان سنة 594هـ/ الأول من تموز 1198م وبمقتضى تلك الهدنة اصبحت يافا للمسلمين، وجبل بيروت للصليبيين، وتمّ اقتسام صيدا بين الطرفين، غير أن مدة تلك الهدنة فيها اختلاف، فتذكر المصادر العربية بأنها ثلاث سنوات. انظر ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص78؛ وابن الفرات، تاريخه، م4، ج2، ص139، وتكتفي مصادر أخرى بذكر عبارة "حتى استقرت الهدنة" دون الإشارة إلى مدتها. انظر أبو شامة، الروضتين، ج2، ص234، وذكر بعضها أن الهدنة وقعت في شعبان من سنة 594هـ/ تموز 1198م وأوردت عبارة" انتظم الصلح"، انظر ابن الأثير، الكامل، 12، ص84. بينما ذكرت المصادر الأجنبية أن مدة الهدنة كانت خمس سنوات وثلاثة أشهر. انظر أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط (الموسوعة الشامية)، ج33، ص48، ومن خلال سير الحوادث يتضح أن مدة الهدنة كانت أكثر من خمس سنوات بدليل أن الحديث عن تجديد الهدنة لم يرد ذكره قبل عام 600هـ/ 1204م.

(6) ابن الأثير، الكامل، ج13، ص21.

(7) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص162.

وبعد إقرار الهدنة، رجع الملك العادل بجيوشه إلى مصر، ورجع الملك المعظّم عيسى مع جيوش النجدة الشاميّة إلى دمشق[1]، وهذا يعني أن دور الملك المعظّم عيسى تمثّلَ في قيادة الجيوش الشّامية التي أتت لنجدة العادل، فكانت قيادتهُ تحت سلطة والده القائد الأكبر للجيوش الشّاميّة والمصريّة معاً.

ويذكر المؤرخ روجر أوف ويندوفر (ت: 1237م) معلومات حول استعدادات الصليبيين بعد الهدنة، وتنظيم صفوفهم في عكّا للانطلاق منها نحو دمياط، ومراقبة الملك المعظّم عيسى لتلك الاستعدادات، ورصد تحرّكات الصليبيين ونشاطهم في عكا[2].

2.4 الملك المعظّم عيسى في مواجهة الإسبتارية

في عام 601هـ/ 1205م أخذ الفرسان الإسبتارية[3] يهدّدون حماه، منطلقين من حصن الأكراد، فنهبوا وقتلوا وأسروا كثيراً من المسلمين[4]. وقد انضمّ إليهم عدد

(1) الحموي، التاريخ المنصوري، ص42.

(2) روجر أوف ويندوفر (ت:1237م)، ورود التاريخ، منشور في (الموسوعة الشاميّة)، تأليف وتحقيق وترجمة سهيل زكّار، دمشق، 1421هـ/2000م، ج39، ق2، ص752. وسيشار إليه فيما بعد، ويندوفر، ورود التاريخ.

(3) الإسبتارية: Hospitallers ويعرفون أيضاً بفرسان القدّيس يوحنّا، وهم من الفرسان الصليبيين، تأسست جماعتهم سنة 1099م في أعقاب استيلاء الصليبيين على بيت المقدس، وكان هدفهم في البداية علاج المرضى ومساعدة الحجاج، لكنها بعد ذلك تطورت واصبح أعضاؤها رجالاً يلبسون ملابس الرهبان ويقاتلون على الخيول، وقد لعبت هذه الجماعة دوراً كبيراً في تاريخ الحركة الصليبية عندما تحولت إلى القتال. الأصفهاني، الفتح القسي، ص62؛ رنسيمان، الحروب الصليبية، ج3، ص212.

(4) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص523؛ أبو شامة، الذيل، ص51.

كبير من الصليبيين الذين عاثوا فساداً وسلباً في مناطق حماه، وعادوا إلى بلادهم بعد أن ملأوا أيديهم بالسبايا[1].

وهنا ظهر دور الملك المعظّم عيسى في التّصدي لهم. فعندما زادت تحرّشات الإسبتارية في حماة، بعث صاحبها الملك المنصور إلى المعظّم عيسى يطلب منه النجدة والمساعدة[2].

أرسل المعظّم عيسى جيوشه إلى حماه لمساعدة صاحبها ضد الإسبتارية، غير أنّه لم تحدث مواجهات عسكريّة مع جيوش الصليبيين، لأنّ الملك المنصور استطاع أن يحصل على هدنة معهم، وبها انتهى تهديدهم لحماه، ورجعت جيوش المعظّم عيسى إلى دمشق[3].

وتجدّدت الاعتداءات الصليبية سنة603هـ/1206م، عندما زحفوا تجاه حمص وأغاروا عليها[4]، فوصل الخبر إلى الملك العادل في مصر فأسرع إلى الشام[5]، واستدعى العساكر من أهل بيته وامرائه من كل الممالك الأيوبية، فحضر لنجدته كلٌ من الملك المنصور صاحب حماه[6]، والملك المجاهد صاحب حمص[7]، والملك المعظّم عيسى، والملك الأشرف، كما وصلت عساكر من سنجار والموصل وآمد[8]، حتى بلغ تعدادها عشرة آلاف فارس[9]، ويصفها ابن واصل بأنّها الأكبر عدداً في

---

(1) متّى الباريسي(1235–1273م)،التاريخ الكبير، منشور في(الموسوعة الشامية)، تأليف وتحقيق وترجمة، سهيل زكّار، دمشق،1422هـ/2001م،ج40، ق5، ص1872. وسيشار إليه فيما بعد، الباريسي، التاريخ الكبير.

(2) الداواداري، كنز الدرر، ج7، ص156؛ ابن الفرات، تاريخه، م5، ج1، ص24.

(3) الحموي، التاريخ المنصوري، ص54؛ ابن الفرات، تاريخه، م5، ج1، ص24.

(4) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص172.

(5) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص259؛ أبو شامة، الذيل، ص57.

(6) الحموي، التاريخ المنصوري، ص54؛ ابن الفرات، تاريخه، م5، ج1، ص24.

(7) الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه صاحب حمص.الحموي، التاريخ المنصوري، ص52؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص 84.

(8) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص173.

(9) المصدر نفسه ، ج3، ص173.

تاريخ الممالك الأيوبية[1]، وقامت تلك القوات بمحاصرة بحيرة قدس[2] القريبة من حمص، كما صالحت أهل عكّا، وفتحت برج أعناز[3]، وأسرت خمسمائة شخص منه، وغنمت الأموال والسلاح[4]، واستطاع الملك العادل بهذه الجيوش أن يهاجم حصن الأكراد سنة603هـ/ 1206م، ويفرض عليه حصاراً شديداً [5]، غير أن تلك الجيوش لم تستطع السيطرة على الحصن[6]، مما اضطرها إلى التوجّه نحو طرابلس فحاصرتها وطال حصارها لها[7]، وعاثت العساكر خراباً في قراها وبساتينها، فقطعت فقطعت الأشجار وجفّفت العيون فيها[8].

انسحبت جيوش الملك العادل أوائل ذي الحجة من سنة 603هـ/ 1206م[9]، إلى حمص واستقرت فيها، فأثار انسحابها خوف صاحب طرابلس الصليبي، فبعث للعادل بهدايا وأموال وثلاثمائة أسير كانوا لديه من المسلمين[10]، وطلب الصلح من الملك العادل، واستقرّ الصلح بين الطرفين في محرّم من سنة 604هـ/ 1207م، ورجع الملك العادل إلى دمشق وأقام فيها[11].

---

(1) المصدر نفسه ، ج3، ص173.

(2) بحيرة قدس: تقع بالقرب من حمص، طولها اثنا عشر ميلاً، وعرضها أربعة أميال، وهي بين بين حمص وجبال لبنان، ويخرج منها شمالاً نهر العاصي، وهي بحيرة الحولة حالياً. الحموي، معجم، ج1، ص516.

(3) برج أعناز: حصن بين حمص والساحل. الحموي، معجم، ج1، ص163.

(4) الحموي، التاريخ المنصوري، ص53؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص173.

(5) الحموي، التاريخ المنصوري، ص53؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص173.

(6) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص181؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص173.

(7) الحموي، التاريخ المنصوري، ص53؛ ابن الفرات، تاريخه، م5، ج1، ص51.

(8) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص181؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص173.

(9) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص173.

(10) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص181؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص173؛ المقريزي، السلوك ، ج1، ق1، ص166.

(11) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص175.

3.4 الملك المعظّم عيسى في مواجهة الدّاوية

انتهت الهدنة بين المسلمين والصليبيين[1]في شهر محرّم من سنة 607هـ/ تموز 1210م. فارسل الملك العادل إلى عكّا يطلب تجديد الهدنة[2]،غير أنّ الفرسان الفرسان الدّاوية[3] لم توافق على تجديد تلك الهدنة بسبب الخلافات بينها وبين الإسبتارية على مشكلة الوراثة في أنطاكيّة[4]. وترتّب على ذلك أن تجدّدت المناوشات الحربية بين الأيوبيين والصليبيين[5]. فقد مارست جماعة الفرسان الدّاوية أعمالاً استفزازيّة ضد المسلمين في الشام[6]، وكانت الجيوش الصليبية في عكا قد اجتمعت في سنة 607هـ/ 1210م[7]، وشكّلت تهديداً للأيوبيين في بلاد الشام، وردّاً وردّاً على تلك الاستفزازات خرج الملك المعظّم عيسى وقصد بجيشه عكّا[8]، ولمّا وصلت أنباء تحرشات الفرسان الدّاوية إلى دمشق، نظّم العامةُ حملةً شعبيةً كبيرةً انضمّت إلى قوات المعظّم عيسى لمواجهة الصليبيين في عكا[9].

---

(1) المصدر نفسه ، ج3، ص175؛ عمران، الحملة الصليبية الخامسة، ص 102.

(2) ابن تغري بردي، النجوم، ج6، ص33.

(3) الفرسان الدّاوية: جماعة من الفرنج أسسها هيودي باينز Hugh de pyens وجودفري أف أف سانت أومر Godfrey of st.Omer في سنة (1118/ 1119م)، ووضعت قواعدها في مؤتمر تروي Troyes في فرنسا سنة 1128م، وكان لهذه الجماعة دور كبير في = الحروب الصليبية، كما أطلق عليها اسم فرسان المعبد Templers. الأصفهاني، الفتح القسي، ص62؛ رنسيمان، الحروب الصليبية، ج3، ص133؛ عمران، الحملة الصليبية الخامسة، ص102؛ عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص911.

(4) الأصفهاني، الفتح القسي، ص62.

(5) رنسيمان، الحروب الصليبية، ج3، ص133.

(6) عمران، الحملة الصليبية الخامسة، ص102. للمزيد من المعلومات حول مصور بلدان الشام والجزيرة الشامية. انظر مخطط رقم(4) في قائمة الملاحق.

(7) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص201.

(8) عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص911.

(9) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص545.

وقد اشترك في تلك الحملة المؤرخ سبط ابن الجوزي، والذي أفاض في وصف حماس أهل دمشق ورغبتهم في الجهاد[1]، فقال:" جلست في الجامع يوم السبت خامس أيّام ربيع الأوّل من سنة 607هـ/1210م، وكان النّاس من باب المشهد إلى باب السّاعات، وكان القيام في الصّحن أكثر، وقد امتلأ جامع دمشق وحزروا ثلاثين ألفاً، وكان يوماً لم يُرَ بدمشق مثله ولا بغيرها"[2].

ويضيف سبط ابن الجوزي قائلاً:" إن النساء قطّعنَ شعورهن وقدّمنهُ للمجاهدين، ليعملوا منه حبالاً لخيلهم وكرفسات، فبلغ عدد هذه الحبال حوالي ثلاثمائة حبل [3]. وكان معنا من قرية واحدة يقال لها زملكا من قرى دمشق ثلاثمائة رجل بالعِدَدِ والسّلاح، وأمّا من غيرها فخلقٌ كثير والكلّ خرجوا احتساباً"[4].

غادرت هذه الجموع الشعبية دمشق باتجاه نابلس، وكان المعظّم عيسى مرابطاً فيها للصليبيين خائفاً على القدس من السقوط[5]، فقادَ تلك الجموع وتوجّه بها إلى عكّا حيث الصليبيين[6]. فخرّبوا وهدموا وقطعوا الأشجار، وأسروا جماعة من الصليبيين وقتلوا الكثيرين[7]، ثمّ عادوا إلى حصن الطّور، وأخذ المعظّم عيسى يعزّز من تحصينات حصن الطّور، ويُدَعِّمَها بأوامرٍ من والده الملك العادل[8].

قامت تلك الحملة على سواعد الجنود المُنظّمينَ في دمشق، تلك القوات التي كانت تحت إمرة الملك المعظّم عيسى، إذ لم تذكر المصادر دوراً واضحاً للملك العادل فيها.

---

(1) عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص911.

(2) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص545.

(3) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص545.

(4) المصدر نفسه ، ج8، ق2، ص545.

(5) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج2، (احداث 601-610)، ص63.

(6) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص545.

(7) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص545

(8) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج2، (احداث 601-610)، ص84.

4.4 الملك المعظّم عيسى يتحصّن في حصن الطّور لمواجهة الصليبيين

طلب الملك العادل من ابنه الملك المعظّم عيسى بعد حملة 607هـ/ 1210م بناء حصن على قمّة جبل الطّور القريب من عكّا[1]، فباشر المعظّم عيسى ببنائه في ذي الحجة من سنة 608هـ/ 1211م[2]، وقد اهتمّ المعظّم ببنائه اهتماماً كبيراً "فأحضر الصّناع من كلّ بلد واستعمل العسكر في البناء ونقل الحجارة"[3]، وقد أشرف بنفسه على عمليات البناء[4]، وبقي العمل جارياً فيه حتى سنة 612هـ/ 1215م، وقد كلّف البناءُ مبالغاً طائلةً وجهداً كبيراً[5]. تنبّه الصليبيون للخطر الّذي يشكّله حصن الطّور على مناطق نفوذهم في الساحل وفي عكّا خاصّةً، ولاحظوا سيطرته على تحرّكاتهم في النّاصرة، وإشرافه على منطقة الجليل. وقد دفعهم ذلك إلى طلب الصّلح مع المسلمين[6]، حيث عقدت معاهدة الصلح بين الملك العادل وجان دي برين[7] صاحب عكّا لمدّة ست سنوات، تبدأُ من 608هـ-614هـ/1211م-1217م[1].

---

(1) ابن الفرات، تاريخه، م5، ج1، ص107.

(2) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص545.

(3) المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص176.

(4) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص545.

(5) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص545؛ الذهبي، دول الإسلام، ج2، ص84.

(6) سبط ابن الجوزي، مرآة ،ج8، ق2، ص550؛ الذهبي، دول الإسلام، ج2، ص84؛ أوليفر أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط (الموسوعة الشامية)،ج33، ص 51؛ ويندوفر، ورود التاريخ،(الموسوعة الشاميّة)، ج39، ق2، ص 752؛ عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص912.

(7) جان دي برين: هو زوج الملكة ماريا الابنة الكبرى لأزابيلا من كونراد أف مونتفرات الذي اختير لعرش مملكة بيت المقدس في نيسان من عام 1193م، لكنّه مات في الثامن والعشرين من الشهر نفسه، وقد وصل جان دي برين للسلطة من خلال زواجه بماريا التي أنجب منها طفلته ازابيلا أو "يولاند" كما تطلق عليها بعض المصادر، وقد كان جان دي برين في الستين من عمره عندما تزوج بماريا، وقد قاد الحملة الصليبية الخامسة على دمياط615-618هـ/ 1218-1221م، وكان قد طلب من البابا انوسنت الثالث إعداد

لم تسعف المصادر الأولية اذا ما كان الملك المعظّم عيسى قد شارك بأي حملة ضد الصليبيين خلال فترة الهدنة، باستثناء إشارة واحدة تؤرخها المصادر اللاتينية سنة 611هـ/ 1114م في منطقة الخوابي[2]، وتشير إلى أن قادة الصليبيين حشدوا قواتهم من قبرص وعكّا وطرابلس وانطاكيّة[3]، بالإضافة إلى من انضمّ اليهم من قوات الأرمن لقصد بلاد المسلمين ومهاجمة الإسماعيلية[4]، الذين كانوا قد قتلوا ريموند بن بوهمند الرابع[5]صاحب انطاكيّة وطرابلس[6]، فحاصروا حصن الخوابي

حملة عسكرية للوصول إلى الأراضي المقدسة. أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط، ج33، ص73؛ ويندوفر، ورود التاريخ،(الموسوعة الشاميّة)، ج39، ق2، ص 752.

(1) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص550؛ ويندوفر، ورود التاريخ،(الموسوعة الشاميّة)، ج39، ق2، ص 752.

(2) الخوابي: هي أحد قلاع الاسماعيلية وتقع في الجهة الشمالية من طرابلس. القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص147.

(3) أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط(الموسوعة الشامية)،ج33، ص 51؛ الباريسي، التاريخ الكبير،(الموسوعة الشامية)، ج40، ق5، ص1872.

(4) الإسماعيلية: إحدى فرق الشيعة وثاني أكبرها بعد الاثنى عشرية. تشترك الإسماعيلية مع الاثناعشرية في مفهوم الإمامة، إلا أن الانشقاق وقع بينهم وبين باقي الشيعة بعد موت الإمام السادس جعفر الصادق(ت145هـ/762م)، انظر ظهير، إحسان إلهي (ت:1407هـ /1987م)، الشيعة والتشيع فرق وتاريخ،إدارة ترجمان السنة، لاهور، باكستان، ط10، جزء واحد، 1415هـ /1995م، ج1، ص288. وسيشار إليه فيما بعد ظهير، الشيعة والتشيع ؛ وانظر محمد كرد علي، كتاب خطط الشام، 6أجزاء، دمشق، المطبعة الحديثة، 1343-1347هـ/ 1925- 1938م، ص 260. وسيشار اليه فيما بعد كردعلي، خطط الشّام.

(5) بوهمند الرابع:(ت 1172-1233م) أمير انطاكيا وكونت طرابلس وعرف باسم " بوهمند الأعور" وحكم من 1291 إلى 1233م، خلفه أكبر أولاده بوهمند الخامس على حكم إمارة انطاكيا وكونتية طرابلس. أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط(الموسوعة الشاميّة)، ج33، ص72.

(6) أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط(الموسوعة الشامية)،ج33، ص 51.

حصاراً شديداً[1]، وأثناء هذا الحصار طلب أهل الحصن النجدة من الملك الظّاهر صاحب حلب، والملك العادل[2] صاحب دمشق. فخرج الملك الظّاهر نصرةً لأهل الخوابي، ودخلها في اللحظة التي كان الصليبيون على وشك السيطرة عليها[3]، ووصلت القوات الدمشقية بقيادة الملك المعظّم عيسى إلى طرابلس[4]، فدخل قراها ونهبها وخرّبها واستاق الغنائم والأسرى منها[5]. وعندما علم أميرها بوهمند الرابع بأخبار حصار المعظّم لطرابلس، عدَلَ عن فكرة الانتقام لابنه ريموند من الإسماعيلية ورفع الحصار عن الخوابي[6]، فعاد المعظّم عيسى إلى بلاده بعد أن اطلق سراح الأسرى[7].

5.4 دور المعظّم عيسى في التّصدي للحملة الهنغاريّة

إن فترة سنوات الهدنة التي عقدها الملك العادل مع الملك جان دي برين ملك مملكة بيت المقدس، اتاحت الفرصة للصليبيين بالتحضير لمشروع غزو مصر[8]، فبادر الملك جان دي برين بإرسال الرسل إلى روما، يطالب بإرسال حملة جديدة تصل إلى الشرق عند انتهاء أجل الهدنة[9]، وقد نفّذ الملك جان دي برين هذا

(1) ابن العديم، زبدة الحلب، ج3، ص167؛ أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط (الموسوعة الشامية)،ج33، ص 51.

(2) ابن العديم، زبدة الحلب، ج3، ص167.

(3) المصدر نفسه، ج3، ص167.

(4) المصدر نفسه، ج3، ص167؛ عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص912.

(5) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص583؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ج3، ص167.

(6) ابن العديم، زبدة الحلب، ج3، ص167؛ عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص912.

(7) ابن العديم، زبدة الحلب، ج3، ص167.

(8) أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط(الموسوعة الشامية)، ج33، ص52؛ ويندوفر، ويندوفر، ورود التاريخ،(الموسوعة الشامية)،ج39، ص760.

(9) أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط(الموسوعة الشامية)، ج33، ص52.

المشروع من خلال الحملة الهنغاريّة، التي كانت بمثابة طليعة الحملة الصليبية الخامسة التي قصدت دمياط سنة 615هـ/ 1218[1].

استغلّ الملك جان دي برين انتهاء الهدنة سنة 614هـ/ 1217م، وعقد مجلساً حربياً في عكّا، ناقش فيه أمر مهاجمة القدس والسيطرة عليها[2]. وكانت وفود الصليبيين تتوافد على عكّا من انطاكيّة وقبرص وصور وصيدا[3]، وانضمت إلى القوات الهنغاريّة والألمانية التي قدِمت من أوروبا بقيادة ليوبولد السادس[4] دوق النمسا، وأندرو الثاني[5] ملك هنغاريا، وقد سمي هذا الحشد بالحملة الصليبية

---

(1) ويندوفر، ورود التاريخ،(الموسوعة الشامية)،ج39، ص760؛ وانظر عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص 912. للمزيد من المعلومات حول موقع دمياط قديماً انظر خارطة رقم (1) في قائمة الملاحق.

(2) متّى الباريسي، التاريخ الكبير،(الموسوعة الشامية)،ج40، ص1881؛ ويندوفر، ورود التاريخ،(الموسوعة الشامية)،ج39، ص760؛ وانظر عمران، الحملة الصليبية الخامسة، ص144.

(3) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص583؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص186. وانظر ويندوفر، ورود التاريخ،(الموسوعة الشامية)،ج39، ص760؛ وانظر
= Gibb,H." The Ayyubides" Ahistory of the crusades, Edited by Setton,Vol,II, the university of Wisconsin press, Milwau Ree, 1969, p.p 388.؛ للمزيد من المعلومات حول خط سير الحملة الهنغارية انظر الخارطة رقم (4) في قائمة الملاحق.

(4) ليوبولد السادس((Leopold: دوق أستريا الذي انضمّ لملك هنغاريا أندروا الثاني (Androw II)، في قيادة الحملة الهنغارية وكان بصحبته العديد من الأساقفة والكونتات وجموع الصليبيين الذين تجمّعوا في مدينة سبلاتوSpalto، في انتظار انضمامهم إلى قوات أندروا الثاني. أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط(الموسوعة الشامية)، ج33، ص71؛ وانظر عمران، الحملة الصليبية الخامسة، ص165.

(5) أندروا الثاني (Androw II): ملك هنغاريا(1205- 1235م)، كان قد وقع عليه اختيار البابا هونوريوس الثالث لقيادة الحملة الهنغارية بعد أن اعتذر فردريك الثاني امبراطور المانيا عن قيادة تلك الحملة، حيث وافق اندرو على قيادتها بعد أن أقنعه البابا بذلك. أوليفر أوف

الهنغاريّـة[1] التـي عـدت طليعـة الحملـة الصـليبية الخامسـة ومقـدّمتها[2]، وقـد اتفـق الجميع على مهاجمة الحصن الذي شيّده المعظّم عيسى على جبل الطّور[3]. فخرجوا جميعاً من عكّا بقيادة دوق النمسا ليوبولد السادس، ونزلوا على عين جالوت[4]، ولمّا سمع العادل بهذا الزحف جاء مسرعاً من مصر[5]، مارّاً باللد والرملة، ثمّ بنابلس على أمل أن يسبق الصليبيين إلى عين جالوت، فوجدهم قد سبقوه إلى هناك[6].فرجع إلى بيسان[7]، والتقى بولده الملك المعظّم عيسى الذي عارضه في العودة إلى بيسان[8]، وطلـب مـن والـده أن يقاتـل الصـليبيين مباشرةً[9]. غيـر أن العـادل رفـض، وخاطـب المعظّـم عيسـى شـاتماً لـه بالأعجميّـة، قـائلاً: " وبمـن أقـاتلهم وقـد أقطعـت الشـام مماليكك، وتركت من ينفعني من أبناء النّاس، الذين يرجعون إلى الأصول"[10].

بادربورن، الاستيلاء على دمياط(الموسوعة الشامية)، ج33، ص72؛ وانظر عمران، الحملة الصليبية الخامسة، ص165؛ انظر الخارطة رقم(4) في قائمة الملاحق.

(1) ويندوفر، ورود التاريخ،(الموسوعة الشامية)،ج39، ص760؛ وانظر Gibb,H. The Ayyubides,Vol,II.p.p388.

(2) ويندوفر، ورود التاريخ،(الموسوعة الشامية)،ج39، ص760؛ وانظر Gibb,H. The Ayyubides,Vol,II.p.p388.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص209؛ سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 583.

(4) عين جالوت: اسم أعجميّ وهي بلدة لطيفة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين كان الروم قد استولوا عليها مدة ثم استنقذها منهم صلاح الدين الملك الناصر يوسف بن أيوب في سنة 579هـ/1184م، وعلى ترابها دارت معركة عين جالوت الفاصلة في التاريخ. الحموي، معجم، ج4، ص177.

(5) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 583.

(6) المصدر نفسه ، ج8، ق2، ص 583؛ أبو شامة، الذيل، ص102.

(7) ابن الأثير، الكامل،ج12، ص209؛ سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 583؛ أبو شامة، الذيل، ص102.

(8) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 583؛ أبو شامة، الذيل، ص102.

(9) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 583.

(10) أبو شامة، الذيل، ص102؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص186.

أخذ الصليبيون بالزحف نحو بيسان بأعدادٍ كبيرةٍ[1]، وواصلوا سيرهم نحو بيسان فدخلوها وقتلوا أهلها وعاثوا فساداً فيها[2] فأيقن الملك العادل أنّه لا يستطيع مقاومتهم، فتراجع إلى غور الأردن[3]. وواصل سيره إلى عجلون بعد أن عَبرَ الشّريعة الشّريعة في غور الأردن[4]، وأمَر ولده المعظّم عيسى أن يأخذ قطعة من الجيش ويتوجّه به إلى نابلس لحماية بيت المقدس[5].

نفّذ المعظّم طلب والده، وتوجّه بمن معه نحو القدس، واستقرّ في عقبة اللّبن[6]، يرصد تحركات الصليبيين[7]. أما الملك العادل فقد توجّه إلى دمشق، وأصدر الأوامر لواليها المبارز المعتمد ليتصدّى للصليبيين، وأن ينقل غلّاتها إلى القلعة[8]، كما أمر بتخريب المزارع والعيون والمروج حول دمشق حمايةً لها[9]، وبقي وبقي يراقب تحرّكات الصليبيين من مرج الصّفر متأهباً للمواجهة[10].أمّا الصليبيون

(1) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 585؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص83؛ ص83؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص186؛ ويندوفر، ورود التاريخ،(الموسوعة الشاميّة)، ج39، ص 762. للمزيد من المعلومات حول خط سير القوات الصليبية من عكا انظر الخارطة رقم(2) والخارطة رقم(3) في قائمة الملاحق.

(2) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 585؛ الحنبلي، شفاء، ص224.

(3) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 585.

(4) المصدر نفسه ، ج8، ق2، ص 583. للمزيد من المعلومات انظر الخارطة رقم(2).

(5) المصدر نفسه، ج8، ق2، ص 583؛ أبو شامة، الذيل، ص102؛ الداواداري، كنز الدرر، الدرر، ج7، ص 193.

(6) عقبة اللّبن: قرية تتوسط مكان عالي بين القدس ونابلس على مرتفع من الأرض. الحموي، معجم، ج4، ص134. للمزيد من المعلومات حول خط سير القوات الاسلامية انظر الخارطة رقم(3) في قائمة الملاحق.

(7) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص255؛ وانظر ويندوفر، ورود التاريخ،(الموسوعة الشاميّة)، ج39، ص 774.

(8) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص83.

(9) المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص186.

(10) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص255؛ وانظر عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص ص918.

فقد توجّهوا صوب حصن الطّور بعد أن دخلوا بيسان[1]. وكان المسلمون قد أغلقوا أبواب الحصن، وتعاهدوا على عدم فتح الحصن أمام الصليبيين، ففرض الصليبيون الحصار على الحصن مدّة سبعة عشر يوماً[2]، وكانوا يهاجمونه بعنف، ولكنّهم لم يُفلحوا في الاستيلاء عليه[3]؛ لأن المسلمين كانوا يدافعون عنه دفاعاً مميتاً[4]، وقد ألحقوا الخسائر في الصليبيين وقتلوا جماعةً من أمرائهم [5]، الأمر الذي أجبر قادة الصليبيين على فكّ الحصار عن الحصن في رمضان سنة 614هـ/ 1217م[6]،والتراجع إلى عكّا[7]، وعلى الرّغم من فشل الصليبيين في الاستيلاء على على حصن الطّور، إلّا أنّ خسائر المسلمين كانت كبيرةً[8]، فقد قُتِلَ عدد من أمرائهم

---

(1) إنّ مسألة اخراب واحراق بيسان مسألة خلافية في المصادر فيرى أبوشامة أن العادل أضرم أضرم النّار في بيسان قبل أن ينسحب منها. أبو شامة، الذيل، ص101؛ ويذكر أوليفر أن الصليبيين عندما دخلوا بيسان وجدوها خالية من السكان فنهبوها واستولوا على كل ما وقعت علية أيديهم. أوليفر أف بادربورن، الاستيلاء على دمياط، ج33، ص81، وهذا ينفي رواية أبو شامة ؛ أما ابن الأثير فيروي أن أهل مدينة بيسان إطمأنوا إلى وجود العادل بينهم فلم يفارقوا المدينة، ففاجأهم الصليبيون ولم يستطع النجاة منهم إلا القليل، وهذا تأكيد آخر على عدم حرق العادل للمدينة، ابن الأثير، الكامل، ج12، ص209؛ وتتفق رواية كلٌ من ابن واصل والمقريزي مع ما ذكره ابن الاثير وأوليفر، ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص350 ؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص 187؛ والأرجح أن العادل إنسحب فجأة من بيسان- دون أن يشعل النّار فيها- في الوقت الذي وطأت فيه أقدام الصليبين المدينة، ويبدو أن انسحاب العادل بهذه الصورة قد شجّع الصليبيون على التمادي في مهاجمة المناطق الواقعة بين بيسان وبانياس، مستخدمين النهب والسلب والحرق وسائل لاجتياح تلك المناطق.

(2) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 585؛ النويري، نهاية الأرب، ج29، ص79.

(3) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص257.

(4) الداواداري، كنز الدرر، ج7، ص192.

(5) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 584؛ أبو شامة، الذيل، ص102.

(6) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 585.

(7) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص257؛ الحنبلي، شفاء، ص225.

(8) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 952.

أمرائهم أمثال الأمير بدر الدّين محمد بن أبي القاسم الهكّاري[1]، وسيف الدّين بن المرزبان[2].

صعد الملك المعظّم عيسى إلى الحصن أعقاب فشل الحصار، ووزّع الأموال، وخلعَ الخُلَع، وطيّب خواطر النّاس، وشكرهم على جهودهم في الحفاظ على الحصن[3]، وكتب كتاباً لوالده الملك العادل جاء في أوّله بيتان من الشّعر يقول فيهما:

قُلْ للخَليفَةِ لا زَالَتْ عَزَائِمُهُ لَهَا عَلَى الكُفرِ إبْرَاقٌ وإرْعَادُ

إنّ الفِرنجَةَ بأرضِ الطّورِ قَدْ نَزَلُوا لَا تَغْفَلَنّ، فَحِصْنُ الطّورِ بَغْدَادُ[4]

بعد فشل الصليبيين في غاراتهم على حصن الطّور، أخذوا يخططون لعملٍ عسكريٍ جديد يستردّون به كرامتهم المهدورة[5]، فاتّجهوا إلى بلدة مرج عيون[6]، وقلعة شقيف أرنون[7]. وأثناء تواجدهم في هذه المناطق صمّم ديونيس[8](Dionise)

(1) محمد بن أبي القاسم بن محمد أبو عبدالله الهكّاري الأمير بدر الدّين، كان من المجاهدين، وله مواقف مشهورة في قتال الصليبيين، وهو من أكابر أمراء الملك المعظّم، وكان يستشيره، ويصدر عن رأيه، ويثق به لصلاحه وتديّنه، كما كان سمحاً جواداً، وقد نُقلَ جثمانه بعد استشهاده إلى القدس ودفن فيها. سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 585.

(2) هو سيف الدين بن المرزبان من أبطال المسلمين الذين استشهدوا على حصار الطور، وكان وكان من الصالحين الأجواد. النويري، نهاية الأرب، ج29، ص79.

(3) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 585؛ الداواداري، كنز الدرر، ج7، ص192.

(4) أبو شامة، الذيل، ص103؛ النويري، نهاية الأرب، ج29، ص89.

(5) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص594؛ أبو شامة، الذيل، ص103؛ الداواداري، كنز كنز الدرر، ج7، ص 200.

(6) مرج عيون: مرج واسع يقع بين نهر اليرموك وقلعة شقيف أرنون. الأصفهاني، الفتح القسي، القسي، ص 285؛ ابن شداد، النوادر السلطانية، ص97؛ الحموي، معجم، ج4، ص488.

(7) شقيف أرنون: قلعة حصينة جداً في كهف داخل جبل بالقرب من بانياس من أرض دمشق. دمشق. الحموي، معجم، ج3، ص 309.

ديونيس[1](Dionise) ابن أخت ملك هنغاريا على مهاجمة جبل صيدا[2]، وقد نهاه صاحب صيدا الصليبي، وقال له: هؤلاء رماة والبلد وعرٌ[3]، لكنّه لم يقبل النصيحة، فقام ومعه خمسمائة من الفرسان الصليبيين واتّجهوا إلى الميادنة[4]. فأخلاها أهلها[5]، ونزل الصليبيون وترجلوا عن خيولهم ليستريحوا[6]، ولكن أهل الميادنة لم يتركوهم ينعمون بتلك الرّاحة، فنزلوا عليهم من الجبال، وفاجأوهم واستولوا على خيولهم، وأعملوا فيهم الأسر والقتل[7].

كان ديونيس من بين القتلى[8]، ولاذ الباقون بالفرار بعد أن تمكّنوا من أسر رجل رجل من المسلمين يدعى الجاموس[9]، وقد أشار عليهم هذا الأسير بأنه يعرف طريقاً طريقاً مختصراً وسهلاً إلى صيدا[10]، فوعدوه بالمال[11]، ولكنه سلك بهم طريقاً وعراً، وتمكّن المسلمون من أن ينزلوا بالفارين القتل والأسر أيضاً[12]، فشعر الباقون أن الجاموس قد غرّر بهم فقتلوه[13]، ويذكر سبط ابن الجوزي أن أهل جزيرة الميادنة قد

---

(1) ديونيس(Dionise) : ابن أخت أندرو ملك هنغاريا، وكان يتبع إليه قرابة الخمسمائة فارس من نخبة فرسان الصليبيين، وقد قتل في الهجوم على جزيرة الميادنة. عمران، الحملة الصليبية الخامسة، ص 174.

(2) أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط(الموسوعة الشامية)، ج33، ص112.

(3) المصدر نفسه، ج33، ص112.

(4) الميادنة: جزيرة بالقرب من قرية مشغرا، وتقع مشغرا على سفح جبل لبنان. الحموي، معجم، معجم، ج3، ص540.

(5) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 583.

(6) أبو شامة، الذيل، ص 103.

(7) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 583؛ أبو شامة، الذيل، ص 103.

(8) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 585.

(9) أبو شامة، الذيل، ص 103.

(10) المصدر نفسه، ص103.

(11) المصدر نفسه، ص103.

(12) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 583؛ أبو شامة، الذيل، ص 103.

(13) أبو شامة، الذيل، ص 103.

تمكّنوا من إبادة الصليبيين عن آخرهم، عدا ثلاثة منهم وصلوا إلى صيدا، وسيق الأسرى إلى دمشق[1]، ويضيف سبط ابن الجوزي أنّه كان يوماً عظيماً ومشهودا[2].
ومشهودا[2].

ولم يقم الصليبيون بعد ذلك بأي عملٍ عسكري ضد المسلمين حتّى قدوم الحملة الخامسة إلى دمياط[3]. حيث كان الشتاء قارصاً وتسبب البرد في هلاك عدد كبير منهم، وهبّت عليهم رياح اقتلعت خيامهم وبعثرت امتعتهم[4]، وقد أوجدت هذه الحوادث شعوراً لدى الصليبيين بأنّ الله قد تخلّى عنهم[5]. وبخاصة بعد إعلان الملك الملك أندرو في أوائل شوال من سنة 614هـ/ 1218م، عن استعداده بالعودة إلى بلاده[6]. وكان قد قام بزيارة إلى حصن الأكراد وحصن المرقب[7]، وأسبغ هداياه على على الإسبتارية تكريماً لهم لدفاعهم عن الحصنين في وجه المسلمين، ثم عاد إلى

---

(1) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 583؛ أبو شامة، الذيل، ص 103.

(2) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 585.

(3) أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط(الموسوعة الشامية)، ج 33، ص55؛ ويندوفر، ويندوفر، ورود التاريخ،(الموسوعة الشامية)، ج39، ص 765.

(4) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 585؛ أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط(الموسوعة الشامية)، ج 33، ص55؛ ويندوفر، ورود التاريخ،(الموسوعة الشامية)، ج39، ص 765.

(5) أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط(الموسوعة الشامية)، ج 33، ص55؛ ويندوفر، ويندوفر، ورود التاريخ،(الموسوعة الشامية)، ج39، ص 765.

(6) أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط(الموسوعة الشامية)، ج 33، ص57.

(7) حصن المرقب: قلعة على قمة جبل يشرف على بانياس وعلى بحر الشام، وهو من قلاع الإسبتارية الحصينة التي تحرسها الأبراج، وفي اسفلها صخور ضخمة، وكانت هندستها خليطاً من هندسة الحصون الواقعة جنوبي فرنسا والهندسة البيزنطية، وقد استولى عليها الصليبيون حوالي عام 1117-1118م. أبو الفدا، تقويم البلدان، ص 255؛ جوزيف، نسيم، العدوان الصليبي على بلاد الشام" هزيمة لويس التاسع في الأراضي المقدّسة"، ط3، الاسكندرية، دار الكتب الجامعية، 1971، ص 118. وسيشار إليه فيما بعد، جوزيف نسيم، العدوان الصليبي على بلاد الشام.

عكّا[1]، وعبر منها إلى بلاده[2]، منهياً الحملة الهنغارية دون أن يحقق عملاً ذا أهميّة بالنسبة للموقف في الشام[3]، وقد ألحق أندرو الضرر بالصليبيين بعودته إلى بلاده[4]، سيّما وأنّ عدداً من جنوده قد رافقه[5]، وكان الموقف يحتّم عليهم البقاء في في الشّام للانضمام إلى القوّات الصليبية القادمة لمهاجمة دمياط[6]، أو البقاء بالشام بالشام للدفاع عن الممتلكات الصليبية أثناء تواجد اخوانهم في مصر[7]، ويذكر أوليفر أن رحيل أندرو تسبب في فشل الحملة الصليبية الخامسة بأكملها[8]. ويصف ويندوفر (ت:1237م) من غادر مع الملك أندروا بالخيانة والخذلان لجيش الصليبيين[9].

اتجه الملك جان دي برين إلى تحصين مدينة قيسارية، وبناء قلعة ضخمة في عتليت، جنوبي يافا وفوق جبل الكرمل[10]، وهي قلعة حصينة ومنيعة تقع على مرتفع[11] عالٍ، وقد بناها فرسان الدّاوية والإسبتارية وتعرف باسم قلعة الحجاج[1]،

---

(1) ثيوديرك، وصف ثيوديرك للأراضي المقدّسة، منشور في الموسوعة الشاميّة، تأليف وتحقيق وترجمة سهيل زكّار، دمشق، 1419هـ/ 1998م، ج34، ص 311، وسيشار إليه فيما بعد، ثيوديرك، وصف ثيوديرك للأراضي المقدّسة.

(2) أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط(الموسوعة الشامية)، ج 33، ص57.

(3) ويندوفر، ورود التاريخ، (الموسوعة الشامية)، ج39، ص 770؛ عاشور، الحركة الصليبية، الصليبية، ج2، ص68.

(4) أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط(الموسوعة الشامية)، ج 33، ص57.

(5) المصدر نفسه، ج34، ص57.

(6) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 583؛ أبو شامة، الذيل، ص 103؛ ويندوفر، ورود التاريخ، (الموسوعة الشامية)، ج39، ص 770.

(7) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص261.

(8) أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط(الموسوعة الشامية)، ج 33، ص57.

(9) ويندوفر، ورود التاريخ،(الموسوعة الشامية)، ج39، ص 770.

(10) جبل الكرمل: جبل مشرف على حيفا بسواحل الشّام، وكان قد أُقيم عليه مسجدٌ في الإسلام يعرف باسم مسجد سعد الدولة. الحموي، معجم، ج4، ص317.

(11) ثيوديرك، وصف ثيوديرك للأراضي المقدّسة، ج34، ص 340.

وظلوا مرابطين فيها ينتظرون قدوم باقي القوات الصليبية الآتية من أوروبا[2]، ويتدبّرون أمر الهجوم على دمياط، تمهيداً لغزو مصر كلّها[3]. وقد حدّد القادة الصليبيون قلعة الحجّاج نقطةً لتجمّع القوات الصليبية، وربما أختيرت القلعة لقربها من عكّا الميناء الصليبي الرئيس بالشام، وللتمويه أيضاً على المسلمين وإخفاء تحرّكات الحملة.

لقد كان للمعظّم عيسى نشاطٌ حربي فاعل في مقاومة الصليبيين، وقد سبق هذا النشاط اجتياح الصليبيين لدمياط في الحملة الصليبية الخامسة، وقد تمثّل ذلك النشاط الحربي للمعظّم عيسى في مقاومته للصليبيين، خاصةً في عكّا ومناطق السّاحل، وقد تَبِعَ ذلك النشاط مشاركة المعظّم عيسى في مقاومة الحملة الصليبية الخامسة، تلك المشاركة التي حسمت الموقف لصالح المسلمين فيما بعد.

استدعى العادل ولده الملك المعظّم عيسى، وطلب منه أن يهدم حصن الطّور، باعتباره أصبح يشكّل خطراً على دمشق، إذا ما استولى عليه الصليبيون، وأمره بنقل ما فيه من العدد والسلاح والذخائر، لاستعمالها في قتال الصليبيين في دمياط[4].

رفض الملك المعظّم عيسى بدايةً هدم الحصن، وخرج من عند والده غاضباً، لكنّه استجاب بعد ذلك مقابل تعويض يأخذه في مصر[5]، فنقلَ ما كان في الحصن

---

(1) قلعة الحجاج: قلعة حصينة أقامها فرسان الدّاوية والاسبتارية والتيتون، وتقع في مدينة قيساريّة إلى الجنوب من يافا فوق جبل الكرمل، وقد أقيمت هذه القلعة للوقوف في وجه هجمات المسلمين. الحموي، معجم، ج4، ص321؛ عمران، الحملة الصليبية الخامسة، ص177.

(2) كانت هذه القوات تتألف في مجموعها من الهنغاريين والاسكندنافيين والنمساويين إضافة للقوات الهولنديّة والألمانيّة والقبرصيّة. انظر أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط (الموسوعة الشامية)، ج 33، ص57.

(3) المصدر نفسه،(الموسوعة الشامية)، ج33، ص58.

(4) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 593.

(5) أبو شامة، الذيل، ص109؛ النويري، نهاية الأرب، ج29، ص81.

من العدد والذخائر إلى القدس وعجلون والكرك ودمشق، وذلك في سنة 615هـ/ 1218م[1].

6.4 الملك المعظّم يساعد الملك الكامل في قتال الصليبيين ويهاجم قيسارية

كان الصليبيون قد نزلوا على دمياط في شهر ربيع الأول من سنة 615هـ/ 1218م[2]، والملك العادل مقيم بمرج الصفر، فبعث بعساكره إلى مصر لنجدة ولده الملك الكامل[3]، وبعث الملك المعظّم عيسى بعساكر الشّام إلى السّاحل لمقاتلة الصليبيين وإشغالهم عن مهاجمة دمياط[4].

ولمّا وصلت أنباء وصول الصليبيين لدمياط، تشجّع من كان منهم في عكّا وخرجوا لمقاتلة المسلمين القريبين من عكّا[5]، وكان عددهم مائة وعشرين فارساً من الدّاوية[6]، فحاصرتهم قوّات الملك المعظّم عيسى، البالغ تعدادهُا ثلاثة آلاف من المقاتلة الدّماشقة[7] بقيادته في منطقة القيمون، وانتصروا عليهم، فقتلوا أعداداً منهم وأسروا آخرين، ودخلوا بهم إلى القدس وأعلامهم منكّسة[8].

ثمّ خرج الملك المعظّم عيسى بطلبِ من أخيه الملك الكامل إلى نابلس، ومن هناك بعث إلى سبط ابن الجوزي في دمشق، يطلب منه تشجيع الناس على

---

(1) ابن تغري بردي، النجوم، ج6، ص222.

(2) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 592؛ أبو شامة، الذيل، ص108؛ الداواداري، كنز الدرر، ج7، ص195؛ ويندوفر، ورود التاريخ، (الموسوعة الشامية)، ج39، ص 760. للمزيد من المعلومات حول موقع دمياط انظر الخارطة رقم (1) في قائمة الملاحق.

(3) أبو شامة، الذيل، ص108؛ الداواداري، كنز الدرر، ج7، ص195.

(4) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 592.

(5) ويندوفر، ورود التاريخ، (الموسوعة الشامية)، ج39، ص 760

(6) أبو شامة، الذيل، ص 198.

(7) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 593.

(8) المصدر نفسه، ج8، ق2، ص 593؛ أبو شامة، الذيل، ص 198؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص86.

الجهاد[1]، وأن يبعث له العساكر الذين كانوا يعملون بالأملاك السلطانية، والتي تقدّر بأربعمائة ضيعة وقرية[2]، واتفق معه على أن يكون اللقاء في نابلس[3].

ويقول سبط ابن الجوزي في ذلك:" فجلست بجامع دمشق، وقرأت كتابه عليهم، فأجابوا بالسمع والطاعة، وتجهزوا وحلّ ركاب المعظّم بالساحل"[4]. ويضيف سبط أنّه خرج ومن معه إلى المعظّم عيسى، وكان نازلاً على قيساريّة[5]، وذلك 617هـ/ 1220م[6]. ولكي يصرف المعظّم عيسى أنظار الصليبيين عن مصر، هاجم قيساريّة في محرّم من سنة 617هـ/ آذار 1220م[7]، فحاصرها وضرب حصونها ليلاً ونهاراً[8]، وتسبب في إصابتها إصابات بالغة[9]، ودام الحصار مدّة أربعة أيام والمدينة تقاوم ضربات المسلمين، حتى أدرك الصليبيون عدم امكانية صمودهم أمام هجمات المعظّم عيسى، فأخلوا المدينة ليلاً[10]، واستطاع المسلمون اختراق الأسوار في اليوم التالي لخروج الصليبيين، فدخلوها ولم يجدوا فيها أحداً[11].

---

(1) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص604.

(2) المصدر نفسه، ج8، ق2، ص604.

(3) المصدر نفسه، مرآة، ج8، ق2، ص604. للمزيد من المعلومات حول أماكن تمركز القوات الصليبية والقوات الإسلامية انظر الخارطة رقم(2) والخارطة رقم (3) في قائمة الملاحق.

(4) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص604.

(5) المصدر نفسه، مرآة، ج8، ق2، ص604.

(6) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص86.

(7) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص604.

(8) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص86؛ أبو الفدا، مختصر، ج6، م2، ص22.

(9) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص604.

(10) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص604.

(11) المصدر نفسه، ج8، ق2، ص604.

خرج المعظّم لهدم قلعة قيساريّة يرافقهُ عدد كبيرٌ من آلات الحصار[1]، ثمّ أمر أمر بتدمير القلعة وتخريبها[2]، ولم يكن لدى الصليبيين وقتئذٍ بالشام من القوّة ما يمكّنهم الدخول في معركة كبيرة ضد المسلمين، مما ساعد المسلمين على دخول المدينة وهدمها[3]. ثمّ توجّه المعظّم عيسى بعد ذلك إلى عثليث[4]، التي تحصّن بها بها فرسان الدّاوية فهاجمها، غير أن تخزين المؤن والمياه فيها جعلها تقاوم الحصار الذي فرضه المعظّم عيسى عليها، فلم يتمكّن من تحقيق غرضه فتركها وانصرف عنها[5].

7.4 دور المعظّم عيسى في مقاومة الحملة الصليبية الخامسة

كتب البابا هونوريوس الثالث[6] في العشرين من صفر عام 615هـ/ الثامن عشر من أيار عام 1218م، إلى جميع رجال الدين، وإلى ملك بيت المقدس والأمراء الصليبيين، يخبرهم بأنّه عيّن الكاردينال البرتغالي الأصل بلاجيوس[7](Pelagus)

(1) المصدر نفسه، ج8،ق2،ص594؛ أبو شامة، الذيل، ص 198؛ عاشور، الحركة الصليبية، الصليبية، ج2، ص928.

(2) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص604.

(3) الداواداري، كنز الدرر، ج7، ص 200.

(4) عثليث: اسم حصن بسواحل الشام ويعرف بالحصن الأحمر، كان قد فتحه الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة 583هـ/ 1187م. الحموي، معجم، ج4، ص85.

(5) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص594؛ أبو شامة، الذيل، ص 198؛ عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص928.

(6) هونوريوس الثالث (HonoriusIII): تولّى الكرسي البابوي خلال الفترة (1216-1227م)، خلفاً للبابا أنوسنت الثالث، وقد لعب دوراً مؤثراً في أحداث الحملة الصليبية الخامسة، كما كان من أشد المتحمسين لإرسالها، والتشجيع على الاشتراك فيها، حيث كان يتلقّى التقارير الميدانية، والرسائل التي وصفت الأحداث على أرض الواقع. عمران، الحملة الصليبية الخامسة، ص30

(7) بلاجيوسPelagus : كاردينال برتغالي الأصل، كان أسقفاً اختاره البابا هونوريوس الثالث ليكون مندوباً عنه، وممثلاً له في الحملة الصليبية الخامسة، وقد وصل إلى دمياط في

أسقف البانو، مندوباً عنه في الحملة الصليبية الخامسة [1]، وطلب من الجميع إطاعة أوامره[2]، وهكذا استعدّت القوات الصليبية من كافة الوجوه منتظرةً إشارة البدء بالتحرّك إلى هدفها دمياط[3].

صدرت الأوامر للقوات الصليبية بأكملها سواءً البحريّة منها أم البريّة، وذلك في 26 صفر 615هـ/24أيار 1218م للتحرّك تجاه دمياط[4]، مستغلّين حركة الرّياح الشماليّة في مثل هذا الوقت من السّنة لتحريك سفنهم عبر البحر إلى دمياط[5]. وقد وصلت هذه الطلائع في 30 صفر 615هـ/ 27 أيار 1218م قبالة مدينة دمياط[6].

ويذكر أوليفر أن الملك العادل كان يعلم بأمر رحيل الحملة، لكنّه لم يعتقد أن تكون وجهتها مصر [7]. ولذلك لم يتخذ اجراءات لمواجهة الموقف[8]، مما مكّن الصليبيين من النزول إلى البر دون عائق يُذكر[9]. ويذكر المقريزي أن عدد القوات الصليبية التي أتت إلى دمياط بلغت أربعين ألفاً من المشاة، ومائة وسبعين ألفاً من

ايلول من عام 1218م على رأس امدادات كبيرة للقوات الصليبية المرابطة هناك. عمران، الحملة الصليبية الخامسة، ص34.

(1) أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط(الموسوعة الشامية)، ج 33، ص61.

(2) ويندوفر، ورود التاريخ،(الموسوعة الشامية)، ج39، ص 759

(3) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص213. للمزيد من المعلومات حول أماكن تمركز المعسكر الصليبي انظر الخارطة رقم(2) في قائمة الملاحق.

(4) أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط(الموسوعة الشامية)، ج 33، ص62. للمزيد من المعلومات حول موقع دمياط انظر الخارطة رقم (1) في قائمة الملاحق.

(5) الباريسي، التاريخ الكبير، (الموسوعة الشامية)، ج40، ص 1881.

(6) ويندوفر، ورود التاريخ،(الموسوعة الشامية)، ج39، ص759. حول موقع دمياط انظر الخارطة رقم (1).

(7) أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط(الموسوعة الشامية)، ج 33، ص62.

(8) المصدر نفسه، (الموسوعة الشامية) ج33، ص67.

(9) المصدر نفسه، (الموسوعة الشامية) ج33، ص67.

الفرسان[1]. وقيل مائتي ألف جندي[2]. ويبدو أن مثل هذه الأعداد مبالغٌ فيها لدرجة لدرجة كبيرة، يجعل جزيرة دمياط لا تتسع لمثل هذا العدد، إضافة لتعذّر إيجاد وسائط نقل تستطيع نقل هذا العدد. ولعلّ الأرجح أن هذه القوّات لم تتعدّ الأربعين ألفاً.

وفيما يتعلّق بموقف أهل دمياط تجاه الحملة، فقد كان يتّسم بالدفاع عن بلادهم دون الهجوم[3]، حيث فوجئ السكان بتواجد الصليبيين مرابطين أمامهم في جزيرة دمياط، يتحفزون للهجوم عليهم[4]، فاستعدّوا للدفاع عن مدينتهم، كما قاموا بتخزين المؤن كالقمح والدقيق والخبز ونحوها[5]، إضافةً لمخاطبة الملك الكامل(615-635هـ/ 1218- 1238)، الموجود بالقاهرة نائباً عن والده الملك العادل -المقيم وقتئذٍ بمرج الصفر في الشام- وأخبروه عن طريق الحمام الزّاجل بتواجد الصليبيين في جزيرة دمياط[6]. فخرج الكامل مسرعاً نحو دمياط، وأرسل وفوده وفوده إلى المسلمين للتجمّع في العادليّة[7]. وسيّر الإسطول الإسلامي وجعله يستقرّ في شارمساح[8].

---

(1) المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي(ت845هـ/1441م)، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، 4أجزاء، القاهرة، مطبعة النيل، 1324-1326هـ، ج1، ص328، وسيشار إليه فيما بعد، المقريزي، الخطط.

(2) حول خط سير القوات الصليبية والاسلامية انظر الخارطة (2) و(3) في قائمة الملاحق.

(3) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص260.

(4) المصدر نفسه، ج3، ص260.

(5) أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط(الموسوعة الشامية)، ج 33، ص72.

(6) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص214؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص 262.

(7) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص214؛ سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص584.

(8) شارمساح: قرية كبيرة أقرب إلى حجم المدينة، وهي من كور الدقهلية، بينها وبين دمياط خمسة فراسخ(39 كم)، ومساحتها تتراوح بين 129- 135 فدّان. الحموي، معجم، ج3، ص32؛ وانظر ابن دقماق: صارم الدين ابراهيم بن محمد بن ايدمر العلائي(809هـ/ 1406م)، الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ج4و5 في مجلد واحد، مطبعة بولاق، 1309-1310هـ،ج 5، ص73، وسيشار إليه فيما بعد، ابن دقماق، الانتصار.

أخذ الملك الكامل يدير العمليّات العسكريّة ضد الصليبيين من العادلّية[1]، وقد حَرِصَ الكامل على عدم تمكينهم من العبور للضفة الشرقيّة للنيل[2].أمّا العادل فعندما بلغه خبر نزول الصليبيين قبالة دمياط[3]، انتقل إلى عالقين[4]، وارسل عساكره إلى مصر، حيث أخذت عساكره تتوافد على مصر أولاً بأوّل[5]، حتى لم يبق يبق عنده من العساكر إلاّ القليل[6].

أمّا الملك المعظّم عيسى، فقد تقدّم إلى معاقل الصليبيين بالشام، بهدف إشغالهم عن دمياط[7]، ولم يقتصر دور الملك المعظّم عيسى بالضغط على الصليبيين وإشغالهم فحسب[8]، بل عمَدَ وبطلبٍ من أبيه العادل إلى تخريب وهدم حصن الطّور رغم أهميته البالغة[9].

وقد ساند الأشرف موسى أخاه المعظّم عيسى في مهاجمة الصليبيين[10]، فدخل بعساكره بلادهم ووصل إلى صافينا[11]" فخرّب ربضها ونهب رستاقها وهدم

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص211؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص260.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص211؛ المقريزي، السلوك، ج1، ص190.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص211؛ المقريزي، السلوك، ج1، ص190؛ سترنج، لي، فلسطين في العصر الإسلامي، ترجمة محمود عمايري، ط1،عمان، 1970، ص415؛ وسيشار إليه فيما بعد، سترنج، لي، فلسطين في العهد الإسلامي.

(4) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص592.

(5) أبو شامة، الذيل، ص108.

(6) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص261.

(7) ابن تغري بردي، النجوم، ج6، ص20.

(8) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص592؛ أبو شامة، الذيل، ص108.

(9) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص592؛ أبو شامة، الذيل، ص108؛ المقريزي، السلوك، ج1، ص190.

(10) الداواداري، كنز الدرر، ج7، ص 178.

(11) صافينا: من أشهر قلاع الفرسان الدّاويّة، وفيها برج يسميه الفرنج القصر الأبيض، وهو فوق جبل مرتفع، ويقع إلى الجنوب الشرقي من جزيرة ارواد. ابن الشحنة: أبو الفضل محمد بن الشحنة الحلبي(ت890هـ/ 1485م)، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، بيروت،

حصنها"[1]، ثمّ توجّه نحو حصن الأكراد، ونهبه وحاصر القلعة حتى كاد يستولي عليها، وظلّ مرابطاً للصليبيين في بحيرة قدس(الحولة)[2]. واتخذ الملك المعظّم عيسى طريقاً غير طريق الملك الأشرف[3]، حيث جعل وجهته دمياط [4]، وكان يهدف إلى حصر الصليبيين بين قوتين إسلاميتين[5]، فسابق الصليبيين إلى دمياط، ليلقاهم وجهاً لوجه[6]، فتحقق له ما أراد، وصار الصليبيون بفضل مهارته العسكريّة بين فكّي كماشة، من القوات الإسلامية التي أحاطت بهم من الشمال والجنوب[7].

غير أنّ ويندوفر يذكر أنّ الملك العادل لمّا علم بنزول الصليبيين على دمياط، أحضر ابنه الملك المعظّم، وأبلغه خوفه على الدّيار المصريّة من الصليبيين، وأبلغه أن الحل الوحيد لإخراج القوات الصليبية من مصر التنازل لهم عن الفتوحات الصلاحيّة[8]، وأضاف أنّه يمكن التضحيّة بالجزء لإنقاذ مصر [9]، أمّا المصادر العربية فلم تتعرض لمثل هذه النصيحة التي أسداها العادل لابنه المعظّم[10]، ويمكن استبعاد هذه الرواية لأن العادل شريك صلاح الدّين في الجهاد ضد الصليبيين، فضلاً عن أنّ المصادر الإسلامية المعاصرة والمتأخرة أسهبت في ذكر استعداداته

= مطبعة الآباء اليسوعيين، 1906م، ص367. وسيشار إليه فيما بعد ابن الشحنة، الدر المنتخب؛ وانظر جوزيف نسيم، العدوان الصليبي على بلاد الشام، ص235.

(1) الداواداري، كنز الدرر، ج7، ص 178.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب،ج3، ص266.

(3) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص592؛ باركر، ارنست، الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، القاهرة، 1379هـ/ 1960م، ص140، وسيشار إليه فيما بعد. باركر، الحروب الصليبية.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص217.

(5) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص592؛ باركر، الحروب الصليبية، ص 141.

(6) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص271.

(7) ابن تغري بردي، النجوم، ج6، ص222؛ باركر، الحروب الصليبية، ص141.

(8) ويندوفر، ورود التاريخ،(الموسوعة الشامية)، ج39، ص 772.

(9) المصدر نفسه،(الموسوعة الشامية)، ج39، ص773.

(10) عمران، الحملة الصليبية الخامسة، ص196.

لمواجهة الأعداء ودفعهم عن البلاد، فمن غير الممكن أن يفكر العادل بكل سهولة في التنازل لهم عن البلاد التي استردّها منهم، بعد تضحيات وجهاد[1]. اضافة إلى أن هذه الأملاك تخص الملك المعظّم عيسى، مما يجعل أمر قبوله بهذه النصيحة والتنازل عن أملاكه مستبعداً.

والواقع ان المناوشات العسكريّة بين الطرفين لم تنقطع منذ أن وطئت أقدام الصليبيين جزيرة دمياط[2]، وقد استخدمت القوات الصليبية المنجنيقات[3] بهدف السيطرة على برج السلسلة[4].

---

(1) حول استعدادات الملك العادل لمواجهة اعدائه. انظر ابن الأثير: الكامل، ج12، ص 207- 216؛ سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص583-594؛ أبو شامة، الذيل، ص97-112؛ ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص81-96. للمزيد من المعلومات حول أماكن تمركز المعسكر الإسلامي ومواقع تواجد الجيش الاسلامي انظر الخارطة رقم (3) في قائمة الملاحق.

(2) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 592. للمزيد من المعلومات حول موقع دمياط انظر الخارطة رقم (1) في قائمة الملاحق.

(3) المنجنيقات: جمع منجنيق وهي كلمة فارسية، والمنجنيق عبارة عن آلة من الخشب لها دفتان قائمتان بينهما سهم طويل رأسه طويل وذيله خفيف، وفيه تجعل كفة المنجنيق التي توضع فيها الحجر، ويجذب حتى ترتفع أسافله على أعاليه، ثم يُرسل فيرتفع ذيله الذي فيه الكفة، فيخرج الحجر منه، فما أصاب شيئاً إلا اهلكه، ويلحق بالمنجنيق اللوب والحبال، ومن أنواعه التركي، والفارسي، والعربي. القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص136؛ ابن الفرات، تاريخه، ج2، م4، ص5. للمزيد من المعلومات حول مواقع تمركز المسكر الصليبي انظر الخارطة رقم (2) في قائمة الملاحق.

(4) برج السلسلة: من أقوى الأبراج وأكثرها منعة في مياه دمياط، ظل صامداً أمام غارات الصليبيين فترة طويلة، وشكّل عائقاً أمام تقدمها، حتى خسروا الكثير من جنودهم في محاولاتهم اقتحامه، وكان صاحب فكرة اقتحامه المؤرخ أوليفر أوف بادربون، حيث اقترح فكرة جديدة في الفنون العسكريّة، تقوم على إقامة صواري على سفن مشدودة لبعضها، والتسلق على تلك الصواري لتجاوز برج السلسلة والقفز عليه، وقد نجحت تلك الفكرة في اقتحام البرج. أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط(الموسوعة الشامية)، ج33، ص79.

استعان الصليبيون بسفن الستائر [1] لحمايتها من رماح المسلمين[2]، وشنوا هجوماً على دمياط في يوم الجمعة 26 ربيع الأول 615هـ/ 22 كانون ثاني 1218م[3]، غير أن جميع محاولاتهم باءت بالفشل أمام صمود دفاع المسلمين عن مدينتهم وقوتهم[4]. ولم يتمكّن الصليبيون من إسقاط برج السلسلة إلا بعد أربعة أشهرٍ من القتال[5]. ذلك السقوط الذي وقع على العادل كالصاعقة فدقّ بيده على صدره أسفاً وحزناً ومرض لساعته مرض الموت[6].

وجدير بالذكر أن المعسكر الصليبي قد تعرض لكوارث بعد ذلك تمثلت بعواصف شديدة تبعها أمطارٌ غزيرة[7]، إضافة لمداهمة الحمى والأمراض الجلديّة، والأوبئة التي تفشت داخل المعسكر[8]. كما احتدم الصراع بين المندوب البابوي بلاجيوس، والملك الصليبي جان دي برين قائد الحملة الصليبية الخامسة[9].

واجه الملك الكامل الأخطار الصليبية واحداً تلو الآخر، غير أنّ الخطر الحقيقي الذي هدّده بعد وفاة الملك العادل جاء من جانب أحد قادته[10]، عماد الدين

---

(1) الستائر: وهي آلات الوقاية من الطوارئ، وما في معناها مما يستر به على الأسوار والفن التي يقع فيها القتال. القلقشندي، صبح الأعشى، ج2، ص138؛ وانظر المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص102.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص212.

(3) أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط(الموسوعة الشامية)، ج33، ص81؛ الباريسي، التاريخ الكبير،(الموسوعة الشامية)، ج40، ص1869؛ ويندوفر، ورود التاريخ،(الموسوعة الشامية)، ج39، ص 756.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص212؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص 189.

(5) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص212؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص259-261؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج6، ص170؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص190.

(6) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 593؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص 190.

(7) أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط(الموسوعة الشامية)، ج33، ص59.

(8) المصدر نفسه، ج34، ص60.

(9) المصدر نفسه، ج34، ص 60.

(10) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص184؛ الداواداري، كنز الدرر،ج7، ص107.

ابن المشطوب طمعاً في السلطة، يسانده لفيف من الأمراء الأكراد حيث اتفق الجميع على خلع الكامل، وتنصيب أخيه الملك الفائز إبراهيم مكانه[1]، وقد تسربت أخبار تلك المؤامرة إلى الملك الكامل وهو مرابط للصليبيين في معسكره بالعادلية[2].

جاءت تلك المؤامرة في وقت عصيب وظرف دقيق، جعل الملك الكامل يترك العادلّية[3]، وترتّب على ذلك أن العساكر المرابطة للصليبيين تركت خيامها واسلحتها واسلحتها وتجهيزاتها واقتفت أثر الملك الكامل[4]. حتى باتت العادلّية –خط الدفاع الأول ضد الصليبيين– ليلة الثلاثاء 18 ذي القعدة 615هـ/ 5 شباط 1219م، خالية من العساكر بعد أن قاومت الصليبيين أكثر من ثمانية شهور[5]، وأصبح الطريق مفتوحاً أمام الصليبيين. فعبر الملك جان دي برين للضفة الشرقية من النيل، وكان ما غنمه " عظيماً يُعجز العادّين"[6]. وهكذا أصبح موقف الجبهة الإسلامية في في غاية السوء، بعد امتلاك الصليبيين للعادلّية، وإحكامهم الحصار على دمياط[7]،

---

(1) ابن الأثير، الكامل،ج10،ص376؛ سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2،ص 602؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص648. ابن العميد، أخبار الأيوبيين.

(2) ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص11؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص79؛ الصفدي، الصفدي، الوافي، ج7، ص226. للمزيد من المعلومات حول أماكن تمركز القوات الاسلامية انظر الخارطة رقم (3) في قائمة الملاحق.

(3) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص602؛ أبو شامة، الذيل، ص116؛ ابن واصل، مفرج الكروب،ج4، ص17؛الدواداري، كنز الدرر،ج7،ص198.

(4) ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص11؛ النويري، نهاية الأرب،ج29، ص58؛ المقريزي، السلوك، ج1، ص134.

(5) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص325؛ ابن العديم، زبدة الحلب،ج2، ص643؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص17؛ الداواداري، كنز الدرر،ج7، ص198؛ ابن الفرات، تاريخه، م5، ج1، ص249؛ ابن خلدون، تاريخ، م5، ص399؛ المقريزي، السلوك، ج1، ص 314.

(6) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص325؛ ابن العديم، زبدة الحلب،ج2، ص648. للمزيد من المعلومات حول مواقع تمركز القوات الصليبية انظر الخارطة(2) في قائمة الملاحق.

(7) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص602؛ أبو شامة، الذيل، ص116.

بالإضافة إلى الخلل الذي انتاب المعسكر الإسلامي بعد مؤامرة ابن المشطوب[1]، وأدّى إلى انتشار الرعب في نفوس أهل مصر كلها[2]. فتحرّج موقف الملك الكامل[3]، وأخذ يفكر بترك البلاد للصليبيين[4]، وبذلك تهدّدت الجبهة الإسلامية بالانهيار التام[5].

وصل الملك المعظّم عيسى إلى أخيه الكامل بعد يومين من مؤامرة ابن المشطوب[6]، وعبور الصليبيين إلى العادليّة[7]، يوم19 ذي القعدة 615هـ/ 6 شباط 1219م. وأنهى أمر ابن المشطوب وأتباعه[8]. وقد ترتب على مؤامرة ابن المشطوب امتلاك الصليبيين للعادليّة، والاستيلاء على برج دمياط، وانهيار مقاومة الجبهة الإسلامية هناك.

8.4 الملك المعظّم عيسى يُخرّب بيت المقدس

---

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص17؛ الداواداري، كنز الدرر،ج7، ص198.

(2) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص602؛ ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص11؛ النويري، نهاية الأرب،ج29، ص58.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص325؛ أبو شامة، الذيل، ص116.

(4) أبو شامة، الذيل، ص116؛ ابن واصل، مفرج الكروب،ج4، ص17؛الدواداري، كنز الدرر،ج7، ص198.

(5) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص325؛ سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص602؛ أبو شامة، الذيل، ص116؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص80.

(6) ابن الأثير، الكامل،ج10، ص377؛ ابن واصل، مفرج الكروب،ج4، ص17.

(7) الحموي، التاريخ المنصوري، ص77؛ابن العميد، اخبار الأيوبيين، ص12؛ الصفدي، الوافي، ج7، ص226؛ الداواداري، كنز الدرر،ج7، ص199.

(8) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص602؛ أبو شامة، الذيل، ص116؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص80؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص18.

وما إن تخلّص الملك الكامل من مؤامرة ابن المشطوب التي مزّقت وحدة القوات الإسلامية[1]، أخذ يستنجد بإخوته ويستحثّهم في سرعة الوصول لمصر لاستنقاذها من خطر الصليبيين[2]، فكاتبهم" الوحا الوحا العجل العجل أدركوا المسلمين"[3]، " وا وا إخوتاه واغوثاه وا إسلاماه أدركوا الإسلام، أعينوا أمة محمد عليه السلام"[4].

تولّى المعظّم عيسى أمر استنهاض ملوك البيت الأيوبي وأمرائهم في الجهاد ضد الصليبيين[5]، واتّخذ عدّة اجراءات عمليّة لقطع الطريق على الصليبيين في الوصول إلى أهدافهم[6]، فقام بإمداد مصر بما تحتاجه من الرجال، من خلال تجنيد عساكر دمشق لهذه الغاية[7]، دفعاً للخطر عن دمياط[8].

واعتماداً على ما ذكره أوليفر باعتباره من شهود العيان الصليبيين، فإنّ دمياط سقطت يوم الثلاثاء 25شعبان 616هـ/5 تشرين ثاني 1219م بيد الصليبيين[9]، فوقع ذلك السقوط كالصاعقة على المسلمين، فبكى كلٌّ من المعظّم والكامل بكاءً شديداً[10]، وقال الملك المعظّم عيسى:" لو كان الدعاء الآن يُسمع لسُمع دعاء أهل

---

(1) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص602؛ أبو شامة، الذيل، ص116؛ ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص11. حول مؤامرة ابن المشطوب انظر الفصل الثالث من الدراسة.

(2) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص80.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص35.

(4) الداواداري، كنز الدرر، ج7، ص191.

(5) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص19.

(6) ابن تغري بردي، النجوم، ج6، ص244.

(7) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص601؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج6، ص244

(8) أبو شامة، الذيل، ص115.

(9) أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط(الموسوعة الشامية)، ج33، ص59. وللمزيد من المعلومات حول خط سير القوات الصليبية من عكا إلى المنصورة انظر الخارطة رقم(5) في قائمة الملاحق.

(10) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص214؛ الداواداري، كنز الدرر، ج7، ص176؛ ابن تغري بردين النجوم، ج6، ص 238.

دمياط، فإنّ الله تعالى أخبرنا أنه يستجيب دعاءنا في عدّة مواضع من كتابه، وانّما أهل دمياط لمّا كَثر فسقهم وفجورهم سلّط الله عليهم من انتقم منهم"[1].

وبادر الملك الكامل والملك المعظّم بإرسال السفراء إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله(575-622هـ/ 1179-1225م)، في بغداد يحثّونه على دفع المسلمين لحمل السلاح للدفاع عن العروبة والإسلام[2]. وقد استعدّت الجبهة المصريّة بكافّة امكاناتها لمواجهة الزحف الصليبي[3]، فاتّحدت مع الجبهة الشّاميّة التي لم تكن أقلُّ نشاطاً واستعداداً لمواجهة ذلك الزّحف[4]، حيث جُمعت عساكر الشام لاستخلاص مصر من أيدي الغزاة ونصرة الملك الكامل[5].

ولقد قام الملك المعظّم عيسى بنشاط ملحوظ في ذلك الوقت، فكان "مصيافاً لأخيه الملك الكامل"[6]، كما كان من أحرص النّاس "على خلاص دمياط"[7]، حيث جمع العساكر[8]، وحثّ الملك الأشرف على مساعدته[9]، وقام المؤرّخ سبط ابن الجوزي بجهدٍ كبير في سبيل جمع العساكر الإسلاميّة، وتوحيد صفوفها تحت قيادة الملك

---

(1) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 603.

(2) كان من بين الذين أُرسلوا لطلب النجدات صدر الدين أبو الحسن محمد بن شيخ الشيوخ محمد بن حمويه، ولكنّ هذا الرسول لم يتمكّن من الوصول للخليفة الناصر، فقد مرض بين حرّان والموصل وتوفي هناك، وقد كان هذا الرسول هو الذي أخبر الملك العادل بسقوط برج دمياط. انظر ابن تغري بردي، النجوم، ج6، ص222.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص214.

(4) المصدر نفسه ، ج12، ص214.

(5) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص619.

(6) ابن تغري بردي، النجوم، ج6، ص240.

(7) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص214؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص2؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج6، ص240.

(8) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص621.

(9) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص216.

المعظّم عيسى[1]، وبدأت الاستعدادات في المسير نحو القاهرة لنجدة الكامل[2]، وقد استقبل الملك الكامل الوفود التي قدمت إليه، وسرّ سروراً عظيماً بقدومهما[3]، وأيقن بحصول النصر والظفر بالعدو[4]، وقد بلغت جموع عساكر الشام التي قادها المعظّم عيسى مع الوفود التي قدمت له والتحقت به حوالي أربعين ألفاً، وذلك بحسب رواية المقريزي[5]. ولعلّ هذه المعلومات تؤكد قيادة الملك المعظّم للقوات الشاميّة بعد بعد وصولها له في مصر.

لم تكن تحركات القوات في الشام بخافية على الصليبيين، فقد أبلغت الملكة أليس[6] (Alice) –الوصية على عرش قبرص– المندوب البابوي أن المعظّم والأشرف يقومان بجمع جيش كبير من القوات الإسلامية في الشام[7]، ولعلّ هذه الأخبار كانت من الأسباب التي تذرّع بها بلاجيوس للإسراع في الزحف نحو القاهرة،

---

(1) يذكر سبط ابن الجوزي أنّ الملك الأشرف سار معه وهو كارهٌ للمسير نحو مصر، وأنّه ظهر مقصّراً في حق أخيه الكامل. انظر سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 620، غير أنّ ابن الأثير يختلف مع سبط ابن الجوزي في ذلك حيث يروي أنّ بعض خواص الأشرف أشاروا عليه بإرسال العساكر إلى مصر، والعودة إلى بلاده، خوفاً من اختلاف يحدث بعده، لكنّ الملك الأشرف لم يقبل رأيهم وقال:" قد خرجت بنيّة الجهاد ولا بدّ من إتمام هذا العزم". انظر ابن الأثير، الكامل، ج12، ص214.

(2) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص621.

(3) المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص208.

(4) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص621؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص95.

(5) المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص208.

(6) أليس (Alice): هي زوجة الملك هيو ملك قبرص الذي توفي عام 1218م، وابنه هنري كونت شامباني، وهي أخت ماريا زوجة جان دي برين، وقد تولّت الوصاية على ابنها هنري الأول ملك قبرص. رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية،ج3، ص157.

(7) أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط(الموسوعة الشامية)، ج33، ص82؛ ويندوفر، ويندوفر، ورود التاريخ،(الموسوعة الشامية)، ج39، ص 761؛ وانظر الباريسي، التاريخ الكبير، (الموسوعة الشامية)، ج40، ص 1869.

وقد جاءت أوامر الملك المعظّم عيسى بتخريب أسوار بيت المقدس وأبراجها وحصونها[1]والعديد من الأماكن الاستراتيجية الأخرى، تلبيةً لتحقيق متطلبات خطّة عسكريّة تخدم البلاد الإسلامية بعمومها، وتحفظها من خطر الاجتياح الصليبي[2]، حيث كان الملك المعظّم عيسى يخشى وصول الصليبيين إلى بيت المقدس وامتلاكه، فيتعذُّر استنقاذه من أيديهم بعد ذلك، خاصة بعد أن بلغه أن طائفةً من الصليبيين عازمةً على الاستيلاء على بيت المقدس[3]. ولذلك أُتفق على خرابه، سيّما وأنّ الشام الشام كانت خالية من العساكر الإسلامية[4]، وأنّه إذا ما استولى الصليبيون على القدس أمكنهم ذلك من السيطرة على بقية الممتلكات الإسلامية وحُكم الشام كلها[5].

وعلى الرغم من رفض العزيز عثمان، والأمير عز الدين أيبك المعظّمي لطلب الملك الكامل منهم تخريب المدينة[6]،على أمل الدفاع عنها في وجه الصليبيين[7]. إلاّ أنّ المعظّم عيسى كتب إليهما قائلاً:" لو أخذوه (بيت المقدس) لقتلوا كلّ من فيه وحكموا بلاد الشام وبلاد الإسلام، فألجأت الضرورة إلى خرابه"[8]، فاقتنعا برأيه

---

(1) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص601؛ أبو شامة، الذيل، ص115

(2) عمران، الحملة الصليبية الخامسة، ص 252

(3) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص601؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج6، ص244

(4) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص19؛ عمران، الحملة الصليبية الخامسة، ص 252. للمزيد من المعلومات حول مواقع تمركز القوات الاسلامية انظر الخارطة رقم(2) في قائمة الملاحق.

(5) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص601. للمزيد من المعلومات حول مواقع تمركز القوات الصليبية انظر الخارطة رقم(3) في قائمة الملاحق.

(6) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص216؛ سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص601.

(7) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص216؛ سبط ابن الجوزي، ج8، ق2، ص601؛ الداواداري، كنز الدرر، ج7، ص 176.

(8) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص601؛ أبو شامة، الذيل، ص115؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج6، ص 244.

وشرعا في خراب سور المدينة في أوّل محرّم من عام 616هـ/ التاسع عشر من أذار 1219م[1].

ويصف سبط ابن الجوزي الضجّة التي سادت المدينة في ذلك اليوم، ويشبّهها بيوم القيامة[2]، إذ خرج جميع أهل مدينة القدس شيباً وشباباً رجالاً ونساءً، ومعهم أولادهم، واتجهوا إلى مسجد الصخرة والمسجد الأقصى، حيث قطعت النساء شعورهن ومزقن ثيابهن حتى امتلأ المسجدان بالشعور، ثم هرب الجميع تاركين أموالهم وذويهم، معتقدين أن الصليبيين في أثرهم[3].

وبعد تخريب أسوار مدينة بيت المقدس تمّ تخريب أبراجها[4]، حيث كانت تلك الأبراج حصينةً منيعةً في غاية المناعة، فكان كلّ برج من تلك الأبراج بمنزلة قلعة

---

(1) اختلفت المصادر العربية في تحديد التاريخ الذي تمّ فيه هدم أسوار المدينة، فيرى البعض أن ذلك تمّ في ذي القعدة من عام 616هـ/ كانون ثاني 1220،أي بعد سقوط مدينة دمياط. انظر ابن الأثير، الكامل، ج12، ص216، في حين يرى البعض الآخر أن ذلك كان أول المحرم أو السابع منه 617هـ/ 19أو 25 أذار 1221م. انظر أبو شامة، الذيل، ص11، أمّا ابن واصل فقد روى حادثة هدم المدينة ولكنه لم يذكر تاريخاً لذلك. انظر ابن واصل، مفرج الكروب،ج4، ص32، في حين تتفق بعض المصادر المتأخرة مع ما أورده سبط ابن الجوزي، مثل الأصفهاني، الفتح القسي،ج5، ص66؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج6، ص244، والرّاجح رواية سبط ابن الجوزي وما وافقها اعتماداً على صلة سبط ابن الجوزي بالملك المعظّم عيسى. انظر سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص601.

(2) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص601.

(3) المصدر نفسه ،ج8، ق2، ص601.

(4) الداواداري، كنز الدرر، ج7، ص 176؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص204؛ ثيوديرك، ثيوديرك، وصف ثيوديرك للأراضي المقدسة (الموسوعة الشامية)، ج34، ص314؛ وانظر الباريسي، التاريخ الكبير، (الموسوعة الشامية)، ج40، ص 1870.

قائمة بذاتها[1]. وقد تمّ تخريب المدينة كلّها عدا المسجد الأقصى وقبة الصخرة وكنيسة القيامة وبرج داوود[2].

وأصبحت المدينة بعد هذا الخراب مفتوحةً لا يمكنها الدّفاع عن نفسها، فنقل المعظّم ما كان فيها من الزردخاناة[3] وآلات القتال ونحوها[4]. وقد جاء هدم المدينة لأسباب عسكريّة استراتيجيّة، بغضّ النظر عن رأي العامة في ذلك، والذين نظروا إلى الأمر من منطلق ديني عاطفي، وما يؤكّد صواب النظرة العسكرية عند المعظّم عيسى تخريبه لقلاع وحصونٍ أخرى غير مدينة بيت المقدس، كحصن تورون أو تبنين وصفد وبانياس[5]، حيث خرّبها جميعاً بقصد عدم استيلاء الصليبيين عليها، وإذا ما تسلّموها كانت خراباً لا تستطيع الدفاع عن نفسها، فيسهل على المسلمين استردادها بعد ذلك.

9.4 المعظّم عيسى يرفض عروض صلح الملك الكامل مع الصليبيين

---

(1) ابن اللقلق، تاريخ انطاكية، م4، ج1، ص209؛ ثيوديرك، وصف ثيوديرك للأراضي المقدسة (الموسوعة الشامية)، ج34، ص314.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص32؛ ثيوديرك، وصف ثيوديرك للأراضي المقدسة (الموسوعة الشامية)، ج34، ص314.

(3) الزردخاناة: كلمة فارسية مركّبة من " زرد" بمعنى سلسلة و" خانة" بمعنى مسكن او مكان، ومعناهما معاً خزانة السلاح. انظر ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، 257؛ ابن الفرات، تاريخه، م4، ج2، ص17.

(4) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص601؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص12؛ الداواداري، كنز الدرر، ج7، ص 176.

(5) اليونيني: قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد (ت: 726 هـ/1324م)، ذيل مرآة الزمان، ط2،4 اجزاء، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة،1992م، ج3، ص71، وسيشار إليه فيما بعد، اليونيني، ذيل مرآة الزمان.

بلغت مدّة نزول الصليبيين على دمياط حتى خروجهم منها ثلاث سنوات وأربعة شهور وتسعة عشر يوماً[1]، وهي الفترة التي قضتها القوات الصليبية على الشواطئ الغربية والشرقية لدمياط، خلال الفترة الواقعة بين 3 ربيع الأول615هـ إلى 19 رجب 618هـ/ 3 أيار 1218م إلى 8 أيلول1221م[2]، وكانت مدّة استيلائهم منها على دمياط هي سنة وعشرة شهور وأربعة وعشرون يوماً. حيث خرجوا منها يوم الأربعاء 19 رجب 618هـ /8 أيلول 1221م [3].

وقد كان الملك الكامل قد كرّر عروض الصلح على الصليبيين أكثر من مرة، وتمثّلت تلك العروض بتبادل السفارات والمفاوضات، بهدف الصلح بين الطرفين أثناء محاولات الاستيلاء على دمياط[4]، حيث كان الملك الكامل يخشى نجاح القوات الصليبية في كسر قواته المرابطة في المنصورة، والوصول للقاهرة[5]، لذا تقدّم بعرض

---

(1) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص169. للمزيد من المعلومات حول موقع دمياط انظر الخارطة رقم(1) في قائمة الملاحق.

(2) ابن العديم، زبدة الحلب، ج3، ص190؛ اليافعي، مرآة الجنان، ج4، ص40. للمزيد من المعلومات حول خط سير القوات الصليبية باتجاه دمياط انظر ملحق الخارطة رقم (5).

(3) يُذكر أن الملك الكامل نجح في حصار القوات الصليبية، من خلال وضع قواته خلف مؤخرة الأسطول الصليبي، فقطع بذلك خط الرجعة على القوات الصليبية وحطّم قوتهم البحرية، كما حاصرهم برّاً مستغلاً فيضان النيل، فأمر العساكر الإسلامية بتفجير السدود على النيل، فسدّت جميع الطرق أمام القوات الصليبية بعد أن غمرت المياه معظم الأراضي، كما سيطرت القوات الاسلامية على المنفذ الوحيد المؤدي لدمياط، وعبثاً حاولت القوات الصليبية النجاة فكان مصيرها الهزيمة التي تزامنت مع آلام الجوع والمرض والفيضان، وسهام المسلمين التي انهمرت عليهم، ففقدوا معداتهم ومؤنهم، وطافت امتعتهم على سطح الماء. انظر ابن الأثير، الكامل، ج12، ص327؛ سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص628.

(4) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص166؛ عمران، الحملة الصليبية الخامسة، ص322.

(5) سبط ابن الجوزي، مرآة،ج8، ق2، ص 628؛ وانظر القزويني: زكريا بن محمد بن محمود (ت:682هـ/1283م)، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت،ص130. وسيشار إليه فيما بعد، القزويني، آثار البلاد.

بعرض أخير للصليبيين بقصد الصلح، وتختلف المصادر في تحديد توقيت الصلح، فتذكر المصادر العربية أن الملك الكامل تقدّم بالصلح أثناء الاشتباكات مع القوات الصليبية، دون أن تحدد تاريخاً للصلح[1]، أما المصادر الأجنبية فقد حدّدته بشهر ربيع ثاني 618هـ/ تموز 1221م[2]، أما أوليفر فقد تحدث عن ذلك الصلح بإيجاز شديد وأورد ذكره في 27 جمادى الثاني 618/ 18 آب 1221م[3]، والرّاجح أن الملك الكامل عرض الصلح بعد استيلاء الصليبيين على شارمساح أي في 24 تموز 618هـ.

ولم يختلف عرض الصلح في جوهره عن المرّات السابقة، فقد تنازل الملك الكامل للصليبيين عن الفتوحات الصلاحية، عدا الكرك والشوبك، مقابل جلائهم عن دمياط[4]، لكنهم رفضوا وطلبوا خمسمائة ألف دينار، عوضاً عن تخريب المدينة المقدّسة لإعادة تعميرها[5]، ولم يتم الاتفاق بين الطرفين لتعنّت الصليبيين. فاضطر المسلمون إلى قتالهم ومصابرتهم[6].

ولم يكن الملك المعظّم عيسى راضياً عن الصلح الذي تقدّم به أخوه الملك الكامل، ورأى فيه تعدّياً على ممتلكاته، سيّما وأن الملك الكامل أراد أن يصل لحلٍّ على حساب تلك الممتلكات[7].

توافدت السفارات الصليبية على الملك الكامل أعقاب هزيمتهم في دمياط، طالبين الصلح، وتذكر المصادر العربية أن الصليبيين طلبوا " الأمان ليسلّموا دمياط بغير عوض"[8]، ويذكر البعض الآخر أنهم أرسلوا إلى الكامل يطلبون الصلح والرهائن،

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص314؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص95.

(2) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج2، ص166.

(3) أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط(الموسوعة الشامية)، ج33، ص84.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص215.

(5) المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص207.

(6) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص314؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص95.

(7) سبط ابن الجوزي، مرآة،ج8، ق2، ص 628.

(8) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص216.

ويسلمون دمياط[1]، ويضيف النويري "ويؤمنهم على أنفسهم وأموالهم"[2]، ويذكر الداوادراي أن عرض الصلح شمل تسليم مدينة تنيس للمسلمين[3]. وأنّه تم تسليمها مع دمياط، وفي ضوء العرض الذي تقدّم به الصليبيون استشار الملك الكامل أهل بيته وإخوته، فأشار بعضهم بعدم إعطاء الأمان للصليبيين[4]، وطلبوا منه أن يأسرهم يأسرهم جميعاً، ليتمكّن من استرداد دمياط، وباقي الإمارات الصليبية في الشام، مثل عكا وغيرها[5]. وكان من أنصار هذا الرأي كل من الملك المعظّم عيسى والملك الأشرف[6]، لكن الملك الكامل عقد صلحاً مع الصليبيين في 7 رجب 618هـ/19 آب 1221م، لمدّة ثمانية أعوام[7]، جاء في أهم بنوده أن لا تنقص مدة الصلح إلا بمجيء ملك أو إمبراطور إلى الشرق، وأن يطلق كلّ فريق ما لديه من أسرى الفريق الآخر[8]. وأن يعيد الملك الكامل صليب الصلبوت للصليبيين، والسماح للقوات الصليبية داخل دمياط وخارجها بالرحيل بأمان ومعها كل ممتلكاتها[9]. وضماناً لتنفيذ لتنفيذ ما تمّ الاتفاق عليه طلب الملك الكامل من الصليبيين تقديم الرهائن[10].وعددهم

---

(1) سبط ابن الجوزي، مرآة،ج8، ق2، ص 628؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج6، ص242.

(2) النويري، نهاية الأرب، ج27، ص32.

(3) الداواداري، كنز الدرر، ج7، ص258.

(4) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص97.

(5) المصدر نفسه،ج4، ص97؛ ابن الوردي، تتمة المختصر، ج2، ص146؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص208.

(6) المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص208.

(7) ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص134.

(8) المصدر نفسه ، ص134؛ ابن العبري، تاريخ الزمان، ص237.

(9) النويري، نهاية الأرب، ج29، ص97؛ ويندوفر، ورود التاريخ،(الموسوعة الشامية)، ج39، ج39، ص 771.

(10) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص98؛ أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط، (الموسوعة الشامية)، ج33، ص 90.

أربع وعشرون حتى يتم تسليم دمياط[1]، وكان من بين الرهائن الملك جان دي برين والمندوب بلاجيوس[2].

لقد تمّم الملك الكامل الصلح رغم معارضة أخويه الأشرف والمعظّم[3]، ويشير المقريزي قائلاً:" فاقتضى رأي الملك الكامل إجابتهم، واقتضى رأي غيره من إخوته مناهضتهم، واجتثاث أصلهم البتة"[4].

عبّر الملك المعظّم عيسى عن عدم رضاه عن ذلك الصلح بقوله:" لا نؤمنهم ونأخذهم ونتسلّم ما بقي بأيديهم من الساحل مثل عكّا وغيرها"[5]، وقد يكون موقف المعظّم هذا هو ما عبّر عنه سبط ابن الجوزي حيث يروي قائلاً:" أن الصليبيين لو أقاموا يومين لأخذ المسلمون برقابهم"[6]، أمّا الذهبي فيذكر:" فلو طوّلَ الكامل روحه يومين لأسَرَهم"[7].

ولم يقتصر عدم الرضا بقبول الصلح على المعظّم والأشرف وغيرهم من القادة فحسب، بل تعدّاهم إلى الرأي العام[8]، على أن المؤرخين حاولوا تعليل دوافع الكامل للصلح، فيرى أبو شامة أن الدافع هو حرص الكامل على سرعة خلاص دمياط[9]، ويكاد يقترب من هذا التعليل المؤرخ ابن الشحنة(ت 815هـ/1413م) حيث يقول مصوّراً طلب الصليبيين للصلح، ودافع الكامل إلى اجابتهم:"..... وانقطعت الميرة عنهم فهلكوا جوعاً(أي الصليبيين)، وطلبوا الصلح الذي كانوا سألوه، وأن ينزلوا عن

---

(1) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص623.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص98؛ أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط، (الموسوعة الشامية)، ج33، ص 90.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص327؛ سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص623.

(4) المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص 208.

(5) المصدر نفسه ، ج1، ق1، ص 208.

(6) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص623.

(7) الذهبي، دول الإسلام،ج2، ص 123.

(8) أبو شامة، الذيل، ص 114.

(9) أبو شامة، الذيل، ص 114.

جميع ما بذله المسلمون لهم، وعن دمياط، ويعقدوا الصلح، وكان السلطان الكامل قد ضجر له ثلاث سنوات يقاتلهم"[1].

إن الملك المعظّم عيسى كان يرى عدم عقد الهدنة مع الصليبيين، نظراً لما اتصفوا به من البربرية، وعدم الإنسانية في حروبهم، علاوة على عدم وفائهم بالعهود في السلام[2]. كما أنّه رأى أنّ الصليبيين أتوا إلى مصر للاستيلاء عليها[3]، وطمعاً وطمعاً في السيطرة من خلالها على العالم الإسلامي بأسره[4]، وربما يرجع مناداة المعظّم بهذا الرأي، أنّه كان يرى في عودة الصليبيين إلى الشام بكامل معدّاتهم، مصدر خطر على ممتلكاته هناك، ولذلك آثر القضاء عليهم وهم في محنتهم، حتى لا تقوم لهم بعد ذلك قائمة[5].

لقد كان الملك المعظّم عيسى نفسه يدرك قيمة ما قدّمه في دمياط من جهدٍ، انتصاراً للإسلام، حتّى أنّه كان يقول في مرضه:" لي عند الله في أمر دمياط ما أرجو أن يرحمني به"[6]. وهكذا انتهت الحملة الصليبية الخامسة، دون أي نتيجة إيجابية بالنسبة للصليبيين، ولعلّ الأهم في تلك الحملة أنّها وحّدت الأخوة الثلاثة أولاد الملك العادل، الكامل، والأشرف، والمعظّم.

وتعدّدت أسباب فشل الحملة الصليبية الخامسة، فكان منها ما يتعلق بالجانب الصليبي والأوروبي، ومنها ما يتعلق بالجانب الإسلامي، غير أنّ السبب الأهم في

---

(1) ابن الشحنه:(ت815هـ–1413م) محب الدين محمد بن محمد بن محمود، روضة المناظر المناظر في أخبار الأوائل والأواخر في حوادث سنة 618هـ"– على هامش كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي–، ط1، القاهرة، المطبعة الأزهرية المصرية،1303هـ/1885م، ص68، وسيشار إليه فيما بعد، ابن الشحنه، روضة.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص97؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص208.

(3) ابن العديم، زبدة الحلب، ج3، ص193؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص97؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص208.

(4) اليافعي، مرآة الجنان، ج4، ص39.

(5) ابن الأثير، الكامل،ج12، ص 275.

(6) المصدر نفسه ،ج12، ص 275.

فشل تلك الحملة، الهزيمة العسكريّة التي لحقت بالقوات الصليبية على يد الملك الكامل وأخيه الملك المعظّم عيسى.

وجاء دور المعظّم عيسى في دفع خطر ابن المشطوب وإزالته من المعسكر الإسلامي، كما نجح في إعادة التوازن للجبهة الإسلاميّة، من خلال تنظيم القوات الإسلامية، حيث تولّى الجبهة الشامية، وضغط على أملاك الصليبيين في الشام، فهدم القلاع الإسلامية خشية الاستيلاء عليها، وبذل جهوداً عظيمةً في جمع الإمدادات، وإرسالها إلى أخيه الملك الكامل، ولم يتوان لحظةً عن إنجاد أخيه وإنقاذ دمياط، مستغلاً عامل الوقت الذي أهمله الصليبيون، وإنزال الإمدادات في الأماكن المناسبة لها، ولا يمكن إغفال دور الخطط البحريّة والبريّة للملك المعظّم عيسى مع أخيه الملك الكامل، تلك الخطط التي نجحت في تطويق أعدائهم في البر والبحر[1].

وهكذا فشلت الحملة الصليبية الخامسة في تحقيق أهدافها التي خرجت من أجلها، ولكنّها نجحت في توحيد ملوك البيت الأيوبي، الذين تعاونوا ضد عدوهم المشترك، وقد تجسّدت تلك الوحدة في تكاتف الجبهتين الشامية والمصرية جيشاً وشعباً.

10.4 المعظّم عيسى في مواجهة تحالف الملك الكامل وفردريك الثاني

ساءت العلاقات بين الملك الكامل وأخيه الملك المعظّم عيسى، واتصل المعظّم بجلال الدين الخوارزمي، ووطّد علاقته به ليستعين به إذا هاجمه أخوه الملك الكامل[2]، وسعى الملك الكامل من جانبه بعقد صلات الود والصداقة مع الامبراطور فردريك الثاني، وأرسل إليه السفارة الأولى يطلب منه الحضور إلى الشام، ليسلّمه القدس[3]، فكان ذلك بدايةً لسلسلة من السفارات بين الملك الكامل والامبراطور

---

(1) أبو شامة، الذيل، ص 211؛ حول سير القوات الصليبية باتجاه المنصورة انظر الخارطة رقم(5) في قائمة الملاحق.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص207؛ ابن العديم، زبدة الحلب،ج3، ص209.

(3) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص207؛ المقريزي، السلوك،ج1، ق1، ص222.

فردريك الثاني، أدّت في النهاية إلى قدوم الامبراطور فردريك الثاني للشرق على رأس الحملة الصليبية السادسة(1).

وعلى الرغم من عدم التحاق الامبراطور فردريك الثاني بالحملة الصليبية الخامسة، واقتصار دوره فيها على الدعوة لها، وإرسال الإمدادات، وجمع المحاربين لدعمها(2)، غير أنّ هناك ظروفاً دفعت بالإمبراطور فردريك الثاني للتّوجّه نحو الشرق، ولعلّ تلك الظروف تمثلت بمراسلاته مع الملك الكامل(3)، وزواجه من يولاند(4)(Yoland) وريثة مملكة بيت المقدس، ونداءات البابوية المتكررة له بضرورة الخروج بحملة نحو الشرق(5)، ووعوده التي قدّمها للبابوية في الخروج(6)، ونظرة البابويّة إلى دوره في فشل الحملة الصليبية الخامسة(7)، وقد زادت الضغوط على الامبراطور فردريك الثاني من البابوية، التي أصبح يُنظر اليها نظرة المتقاعس عن دعم ونصرة المشروع الصليبي.

---

(1) المقريزي، السلوك،ج1، ق1، ص229.

(2) فيليب دي نوفار، حروب فردريك الثاني ضد الايبلينيين في سورية وقبرص، منشور في (الموسوعة الشامية)، تأليف وتحقيق ونشر سهيل زكّار، ج34، دمشق،1419هـ/ 1998م، ص 32. وسيشار إليه فيما بعد، فيليب دي نوفار، حروب فردريك الثاني.

(3) المصدر نفسه ،(الموسوعة الشامية)،ج34، ص32.

(4) يولاند(Yoland) : أصبحت يولاند وريثة عرش بيت المقدس بعد موت والدتها، في حين كان والدها وصياً على عرشها دون أن يكون له إلا اللقب الفخري للملك، وقد تزوّج بها فردريك الثاني واصبح يدير شؤون بيت المقدس. وقد عقد ذلك الزواج الذي باركته البابوية عام 622هـ/ 1225م. فيليب دي نوفار، حروب فردريك الثاني،(الموسوعة الشامية)،ج34، ص32.

(5) المصدر نفسه ،(الموسوعة الشامية)،ج34، ص32؛ رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص293.

(6) أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط،(الموسوعة الشامية) ج33، ص 87.

(7) المصدر نفسه، ج33، ص 87.

وكـان للأحـوال السياسـية فـي الشـرق الإسـلامي والغـرب الأوروبـي دورٌ هـام فـي توجّه الامبراطور فردريك الثاني للشرق[1]، كما لعبت الظروف أيضاً دوراً هاماً وكبيراً فـي تصـاعد الخـلاف بـين البابـا والإمبراطـور، إلـى درجـة صـدور الحرمـان الكنسـي بحقّه[2]، ذلك الحرمان الذي جعل الإمبراطور يصمّم على الإبحار نحو الشرق فيما يُعرف بالحملة الصليبية السادسة، ضارباً بقرارات البابوية عرض الحائط[3].

وقد كان موقف الامبراطور فردريك الثاني من الحملة الصليبية الخامسة مُرضياً بالنسبة للملـك الكامـل[4]، الـذي شـعر بـأنّ تـأخّر الإمبراطـور بالحضـور لـيس معنـاه التقـاعس نهائيـاً عـن فكـرة القـدوم للشـرق، وبخاصــة بعـد ازديـاد الضـغوط البابويـة عليه[5]، وإنما رأى أن الإمبراطور فردريك الثاني سيأتي للشرق، ولذلك رأى أن يستغل يستغل العلاقة بينهما لصالحه، وضد أخيه الملك المعظّم عيسى، وحليفه جلال الدين الخوارزمي[6]. وقد تلاقت الظروف التي دفعت بالإمبراطور فردريك الثاني للقدوم نحو نحو الشرق مع حاجة الملك الكامل للتّحالف معه ضد أخيه الملك المعظّم عيسى[7].

عيسى[7].

---

(1) ويندوفر، ورود التاريخ،(الموسوعة الشامية)، ج39، ص 897.

(2) فيليب دي نوفار، حروب فردريك الثاني،(الموسوعة الشامية)،ج34، ص32.

(3) المصدر نفسه ،(الموسوعة الشامية)،ج34، ص33.

(4) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص206.

(5) أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط،(الموسوعة الشامية)، ج33، ص 91؛ ويندوفر، ورود التاريخ،(الموسوعة الشامية)، ج39، ص 896.

(6) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص206؛ أبو الفداء، مختصر، ج6، م2، ص36؛ فيليب فيليب دي نوفار، حروب فردريك الثاني،(الموسوعة الشامية)،ج34، ص32؛ ويندوفر، ورود التاريخ، (الموسوعة الشامية)، ج39، ص 896.

(7) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص19؛ فيليب دي نوفار، حروب فردريك الثاني، (الموسوعة الشامية)،ج34، ص32؛ عادل شحاتة، العلاقات السياسية بين الامبراطورية الرومانية المقدسة والشرق الاسلامي 547هـ-631هـ/1152م-1250م، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 1989م، ص246. وسيشار إليه فيما بعد عادل شحاتة، العلاقات السياسية.

وقد بدأت المراسلات بين الملك الكامل وفردريك الثاني بشأن تحالف المعظّم وجلال الدين الخوارزمي في خريف سنة 624هـ/ 1226م، وذلك عندما أرسل الملك الكامل إلى الامبراطور فردريك الثاني رسوله الأمير فخر الدين يوسف بن صدر الدين شيخ الشيوخ[1]. وقد استقبله الامبراطور فردريك الثاني في صقلية[2]، وهناك شرح له الرسول قضية الكامل وعلاقته مع المعظّم عيسى، وطلب منه المساعدة[3]، وكان من أهم العروض التي قدّمها الكامل للإمبراطور فردريك الثاني في حال موافقته على المساعدة، أن يعطيَه بيت المقدس، وبعض فتوحات صلاح الدين[4]، باستثناء الشوبك والكرك، وقد كان الملك الكامل يرمي من وراء ذلك إلى هدفين:

الأول: أن يشغل الملك المعظّم بقدوم الإمبراطور فردريك الثاني للشرق، حتى يتفرغ الأول لمواجهته، وينسى أخويه الكامل والأشرف، ويرجع عن تحالفه مع جلال الدين الخوارزمي[5].

والثاني: وإن وعده للإمبراطور فردريك الثاني ببيت المقدس لن يخسره شيئاً من مُلكه، لأن بيت المقدس كان حينئذٍ من أملاك المعظّم عيسى وتحت سيطرته[6].

---

(1) فخر الدين يوسف: هو فخر الدّين ابن شيخ الشيوخ يوسف بن محمد بن عمر بن علي بن محمد بن حمويه بن محمد بن حموية الأمير فخر الدين أبو الفضل بن صدر الدين شيخ الشيوخ الحموي الجويني كان أميراً جليلًا كبيراً عالي الهمة فاضلاً متأدباً سمحاً جواداً ممتدحاً خليقاً بالملك لما فيه من الأوصاف الجميلة وكان فيه كرم زائد وحسن تدبير وكان مطاعاً محبوباً إلى الخاص والعام تعلوه الهيبة والوقار، توفي سنة 647هـ/ 1249م.الصفدي، الوافي،ج29، ص145؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج 13، ص190.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب،ج4، ص206.

(3) النويري، نهاية الأرب، ج29، ص140؛ المقريزي، السلوك، ج 1، ق1، ص222.

(4) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 643؛ ابن العميد، اخبار الأيوبيين، ص136؛ أبو أبو الفدا، مختصر، ج6، م2، ص36؛ فيليب دي نوفار، حروب فردريك الثاني، (الموسوعة الشامية)ج34، ص35.

(5) ابن الوردي، تتمة المختصر، ص220.

(6) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص19؛ فيليب دي نوفار، حروب فردريك الثاني، (الموسوعة الشامية)ج34، ص35؛ عادل شحاتة، العلاقات السياسية، ص248.

رحّب الإمبراطور فردريك الثاني بعرض الكامل، وبالرغم من أن المجال كان مفتوحاً أمام الإمبراطور، إلا أنه أراد أن يعرف مواقف الملوك الأيوبيين في الشرق، وبخاصة الأطراف المعنية في هذا النزاع[1]، فبعث من طرفه برسولين مع الأمير فخر الدين إلى الملك الكامل[2]، وبعث معهما بالهدايا النفيسة، ولما وصلا رحّب بهما الكامل ترحيباً كبيراً، واجتمع السفيران بالكامل في بلاطه وأخبراه موافقة الإمبراطور على عرضه[3]. وقد رحّب الملك الكامل بهذه السفارة، وخرج بنفسه لمقابلة السفارة خارج القاهرة[4]، وأكرمها إكراماً زائداً، وأنزلها في دار الوزير" صفي الدين بن شكر"، كما أعربت السفارة عن أملها في كسب صداقة الملك، وخرجت من مصر ومعها موافقة الملك الكامل على مقترحاتها[5].

وكان على السفارة أن تقابل الملك المعظّم عيسى بدمشق[6]، فقصدته وعرضت عليه ما طرحه الملك الكامل بالاتفاق مع الإمبراطور فردريك الثاني، فما كان من الملك المعظّم عيسى إلا أن ردّ على كبير السفارة بقوله:" ما أنا مثل الغير، وما له عندي سوى السيف"[7]. وقد حسم هذا الرد القضية، فعرف المبعوثان أنْ لا مجال للتّفاوض مع المعظّم عيسى بشأن ذلك، ثم غادرا إلى صقلية[8].

أما رد الملك المعظّم عيسى على ذلك التحالف، فقد تمثّل في طلب المساعدة من خوارزم شاه[9]، كما بعث لأخيه الملك الأشرف يستعطفه، ويطلب منه المساعدة ضد

---

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص 204.

(2) المقريزي، السلوك، ج 1، ق1، ص222.

(3) المصدر نفسه ، ج 1، ق1، ص222.

(4) المصدر نفسه ، ج 1، ق1، ص260.

(5) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 643.

(6) النويري، نهاية الأرب، ج29، ص139؛ الدواداري، كنز الدرر، ج7، ص248.

(7) النويري، نهاية الأرب، ج29، ص139؛ الدواداري، كنز الدرر، ج7، ص248.

(8) ابن العديم، زبدة الحلب، ج3، ص200؛ الدواداري، كنز الدرر، ج7، ص248؛ فيليب دي دي نوفار، حروب فردريك الثاني، (الموسوعة الشامية)ج34، ص35؛ عادل شحاتة، العلاقات السياسية، ص249.

(9) الدواداري، كنز الدرر، ج7، ص248.

ضد الصليبيين، ولكن الأشرف لم يجبه ورفض مساعدته تعنيفاً له على ما بدرَ منه[1].

أخذ المعظّم يحتاط لنفسه ضد أعدائه، وبخاصة الإمبراطور فردريك الثاني، فاهتمّ بجهازه الخاص بالتجسس، وأدخل فيه النساء[2]، إذ لعبت المرأة دوراً كبيراً في جمع المعلومات عن نيّات الامبراطور، فأرسل الإمبراطور فارساً ليقوم بعملية تمويه على حملته، حتى يُفاجئ الملك المعظّم عيسى بها، إلاّ أنه كانت هناك امرأة جميلة ببلاد الشام، استطاعت أن تتصل بالملك المعظّم الذي أعطاها ملابس ملوّنة وعنبراً وحريراً[3]، واجتمعت بالفارس– الذي أرسله الامبراطور– فأُعجب بها، وأخذ يسلّمها رسائل الامبراطور[4]، وبدورها ترسلها للملك المعظّم، فيطّلع عليها ثم يرسلها ثانيةً للإمبراطور[5]، ويؤكّد للفارس على لسان المرأة أنّه سيحارب الإمبراطور ولو جاء بجيش جرّار، وأن ذلك لن يكلّفه كثيراً، إذ يقول:" وسأحفظ الخطير بالحقير"[6]. كما اهتمّ المعظّم بالتجهيزات العسكرية لمواجهة حملة الامبراطور، فقام بتحصين طرابلس لتتمكّن من صد أي هجوم بحري من جانب الامبراطورية المقدّسة، أو من جانب مصر[7].

ومهما يكن من أمر الملك المعظّم، فإنّه رفض الأخذ بما جاءت به السفارة الامبراطورية[8]، وترتّب على ذلك مغادرة السفارة لبلاد الشام، ورجعت إلى الامبراطور الامبراطور فردريك الثاني، تخبره بأن الملك الكامل يشاطره الفكرة في القيام بحملة

---

(1) ابن العديم، زبدة الحلب، ج3، ص200؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص207.

(2) سبط ابن الجوزي، مرآة،ج8، ق2، ص 646–647.

(3) المصدر نفسه ، ج8، ق2ص 646–647.

(4) المصدر نفسه ،ج8، ق2، ص648.

(5) المصدر نفسه ،ج8، ق2، ص648؛ فيليب دي نوفار، حروب فردريك الثاني، (الموسوعة الشامية)،ج34، ص 36؛ عادل شحاتة، العلاقات السياسية، ص248.

(6) سبط ابن الجوزي، مرآة،ج8، ق2، ص648؛ ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص 136؛ المقريزي، السلوك، ج 1، ق2، ص260.

(7) سبط ابن الجوزي، مرآة،ج8، ق2، ص648.

(8) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص 208.

إلى ما وراء البحار[1]. وتذكر المصادر أن أعضاء تلك السفارة وصلوا للإمبراطور واخبروه بموت المعظم عيسى وذلك في ذي القعدة من سنة 624هـ/تشرين ثاني 1227م[2]. وبوفاته انتهت المشكلات والاضطرابات التي أحدَثها، أمّا علاقة الملك الكامل بفردريك الثاني فقد استمرت، وأدت تلك العلاقة إلى تسليم بيت المقدس في النهاية للصليبيين[3].

ما لبثت السفارات أن تجدّدت بين الملك الكامل والامبراطور فردريك الثاني، إذ أرسل الملك الكامل بسفارة جديدة للإمبراطور فردريك الثاني، حيث حملت معها الهدايا النفيسة من تحف الهند والعراق والشام ومصر والعجم[4]، كما اشتملت على سروج الذهب وجوهرة بعشرة آلاف دينار مصرية، وكان على رأس تلك السفارة جمال الدين بن منقذ الشيزري[5]. وفي أوائل 625هـ/ خريف1227م،أرسل الملك الكامل سفارة أخرى للإمبراطور فردريك الثاني برئاسة الأمير " فخر الدين بن شيخ الشيوخ"، وقد جاءت هذه السفارة في وقت تغيّرت فيه الظروف بوفاة الملك المعظّم عيسى، فتبدّل موقف الملك الكامل تجاه الإمبراطور فردريك الثاني[6]، ولم يعد بحاجة إلى مساعدته، ولذلك أرسل الإمبراطور فردريك الثاني بسفارة من رسولين إلى الملك الكامل، تحمل معها الهدايا النفيسة وتطالبه بإنجاز وعده بتسليم بيت المقدس[7]، غير غير أن الملك الكامل تنكّر لوعوده، وأعلن صراحة بأنه كان سيعطيه بيت المقدس ثمناً للمساعدة التي سيقدّمها له، أما وقد تبدّلت الظروف واستغنى عن المساعدة فلا

---

(1) أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط(الموسوعة الشامية)،ج33، ص93؛ فيليب دي نوفار، حروب فردريك الثاني، (الموسوعة الشامية)،ج34، ص 36.

(2) أبو شامة، الذيل، ص152؛ ابو الفدا، المختصر، ج6، م2، ص207.

(3) ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ص 136.

(4) المقريزي، السلوك، ج 1، ق2، ص260.

(5) جمال الدين بن منقذ الشيزري: أحد خواص الملك الكامل، تولّى للكامل سفارته للإمبراطور فردريك الثاني. المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص260.

(6) ابن الأثير، الكامل، ج10، ص377.

(7) المقريزي، السلوك، ج 1، ق2، ص354.

داعي لدفع ذلك الثمن. سيّما وأن التفريط ببيت المقدس يثير مشاعر المسلمين[1]. وقد طالت المفاوضات بين الطرفين ولم يجد الإمبراطور فردريك الثاني إلا سلاح الاستعطاف، واستخدام الوسائل الدبلوماسية لتحقيق هدفه، واستلام بيت المقدس[2].

إنّ توجه الملك الكامل نحو التحالف مع الامبراطور فردريك الثاني كان ردّاً على تصرفات أخيه الملك المعظّم عيسى وأعماله، خاصةً في أعقاب توطيد العلاقات بين المعظّم وجلال الدين الخوارزمي، حيث أدرك الملك الكامل أن ذلك التحالف يشكل خطراً جسيماً عليه وعلى الملك الأشرف، فكان لزاماً على الملك الكامل أن يضع حداً لما يقوم به المعظّم عيسى، غير أنّ خشيةَ الكامل من اجتياح جلال الدّين الخوارزمي للشّام جعله يتريّث في أمر أخيه المعظّم عيسى[3].

إن أشدّ ما كان يخشاه الملك الكامل أن تصبح بلاد الشام بيد جلال الدين الخوارزمي[4]، وبذلك تضيع الدولة الأيوبية، ولذلك آثَرَ الملك الكامل السكوت على تصرفات أخيه الملك المعظّم، بهدف التخلّص من خطر جلال الدين الخوارزمي، من خلال إيجاد حليفٍ أقوى من جلال الدين الخوارزمي وأخيه المعظّم، يساعده ويقف إلى جانبه ضدّهم، فكان اختيار الملك الكامل لإمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة فردريك الثاني حليفاً له [5].

إنّ تصرفات الملك المعظّم عيسى، وأسرِهِ لأخيه الملك الأشرف، وتحالفهِ مع جلال الدّين الخوارزمي، كانت دافعاً للملك الكامل للتحالف مع الامبراطور فردريك الثاني، ذلك التحالف الذي دفع ثمنه الجميع، حيث أدّى إلى ضياع القدس، وتسليمها

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج10، ص377؛ الصفدي، الوافي،ج29، ص145؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج 13، ص190.

(2) المقريزي، السلوك، ج 1، ق2، ص260؛ فيليب دي نوفار، حروب فردريك الثاني، (الموسوعة الشامية)،ج34، ص 36.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج10، ص377؛عادل شحاتة، العلاقات السياسية، ص274

(4) ابن العديم، زبدة الحلب، ج2، ص 648؛ عاشور، الحركة الصليبية،، ج2، ص954.

(5) المصدر نفسه ، ج2، ص 648؛ عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص 954.

للصليبيين دون إراقة قطرة دم واحدةٍ[1].

وأمام الأخطار المتوقعة من تحالف المعظّم عيسى مع جلال الدين الخوارزمي، لم يكن أمام الملك الكامل من خيارٍ آخر إلا الخيار العسكري، سيّما وأنّه حاول أن يثنيَ أخاه الملك المعظّم عن تصرفاته، لكنّه لم يفلح في ذلك. فأدرك الملك الكامل أنه لابد من التحالف مع الامبراطور فردريك الثاني، للوقوف في وجه أطماع جلال الدين الخوارزمي وتصرفات الملك المعظّم عيسى[2].

وقد ترتّب على ذلك ضياع بيت المقدس وتسليمه للامبراطور فردريك الثاني بموجب اتفاقية صلح يافا ربيع الأول من عام 626هـ/18شباط 1229م[3]، والذي نص على تسليم بيت المقدس وبيت لحم والناصرة وتبنين[4]، على أن يكون الحرم الشريف بما احتوى عليه للمسلمين، ولا يدخله الصليبيون إلا للزيارة[5]، وأن يعقد سلام بين الطرفين لمدة عشر سنوات، اعتباراً من 28 ربيع الأول626هـ/ 24 شباط 1229[6]. وأن يطلق الملك الكامل ما عنده من الأسرى الصليبيين[7]، وعدم وصول وصول امدادات صليبية إلى انطاكية وطرابلس[8].

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج10، ص377؛ ابن العميد، اخبار الأيوبيين، ص136؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص17؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ص27؛ ابن الفرات، تاريخه، م5، ج1، ص249.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص19؛ فيليب دي نوفار، حروب فردريك الثاني، (الموسوعة الشامية)،ج34، ص 36.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص315؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص234؛ وانظر أوليفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط،(الموسوعة الشامية)، ج33، ص 87؛ ويندوفر، ورود التاريخ،(الموسوعة الشامية)، ج39، ص 791.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص315.

(5) الحنبلي، شفاء، ص85؛ ابن الوردي، تتمة المختصر،ج2، ص268.

(6) ابن الأثير، الكامل، ج12، ص199؛ المقريزي، السلوك،ج1، ق1، ص 231.

(7) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 654.

(8) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص241.

وهكذا استطاع الامبراطور فردريك الثاني أن يستولي على بيت المقدس دون إراقة الدماء، رغم ضعف إمكاناته، وأن يحقق ما عجزت عنه الحملتان الصليبيتان الثالثة والخامسة، رغم ضخامة الإمكانيات التي حُشدت لهما(1).

وقد قوبلت معاهدة صلح يافا بالغضب في الشرق والغرب على السواء، فثار الصليبيون، ولم يؤمنوا بمسالمة المسلمين، ورأوا وجوب محاربتهم(2)، وثار المسلمون لتفريط الكامل في أملاكهم(3).

لقد كان للملك المعظّم عيسى دورٌ كبيرٌ في مواجهة الصليبيين، وخاصة الذين كانوا في ساحل فلسطين، وقد نجح المعظّم عيسى في التصدّي للحملة الصليبية الخامسة، فاستنهض ملوك البيت الأيوبي وامرائهم للوقوف في وجهها، واتخذ عدّة اجراءات لوقف المد الصليبي في المنطقة، فتصدّى لنشاط الداويّة والاسبتاريّة، وهاجم قيساريّة، وهدَم اسوار بيت المقدس وخرّب قلاعها، وعمل جاهداً على وحدة الجبهة الشامية مع المصريّة، ونجح في الحشد عسكرياً وشعبياً لدعم الجبهة المصريّة. كما وقف موقفاً حازماً تجاه عروض الصلح المتكررة التي قدّمها أخوه الملك الكامل فوقف موقف المعارض منها.

وقد أدرك الملك المعظّم عيسى أطماع البابوية في الشرق، فحاول جاهداً الوقوف ضد تقارب أخيه الملك الكامل مع الامبراطور فردريك الثاني، ذلك التقارب الذي أثمر بعد وفاة الملك المعظّم عيسى وغيابه عن الساحة السياسية.

---

(1) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 654؛ المقريزي، السلوك،ج1، ق1، ص 231.

(2) سبط ابن الجوزي، مرآة، ج8، ق2، ص 654.

(3) المصدر نفسه،ج8، ق2، ص 654.

الخاتمة:

توصلت الدراسة إلى عدد من النتائج، أبرزها:

1. إن شخصيّة الملك المعظّم عيسى الأيوبي تعد من أهم شخصيات الفترة الأيوبية الثانية التي امتدّت من وفاة صلاح الدين الأيوبي وحتّى وفاة الملك الكامل عام 636هـ/ 1239م، وقد تميّزت شخصيته بالثقافة الدينية والأدبية العاليتين، كما تفرّد في الدولة الأيوبية باتّباعه المذهب الحنفي خلافاً لملوك الدولة الأيوبية الذين كانوا شافعيّة.
2. إن الظروف التي طرأت على الدولة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي 589هـ/ 1193م، أظهرت شخصيّة الملك المعظّم عيسى الأيوبي على الساحة السياسية، خلال الصراع بين أبناء صلاح الدين ورثة العرش، وتدخل عمهم الملك العادل في خضم الصراع الذي انتهى في سلب الحكم منهم واستقراره في الأسرة العادليّة التي ينتمي إليها الملك المعظّم عيسى.
3. إن صفات المعظّم عيسى- كما قدّمتها المصادر- خليطٌ من المتناقضات، فتارةً تقدّمه على أنّه ورعٌ تقيٌ مجاهدٌ حافظٌ لكتاب الله على القراءات العشرة، وتارةً أخرى تقدّمه على أنّه شارب للخمر مشجعٌ على شربها، فارضٌ للضرائب منفقٌ لمال خزينة الدولة بشكل جعل مقرّبيه ينتقدونه على طريقة الإنفاق، بل وينتقدون تبريراته لسبب الإنفاق، ولعلّ مواقف المعظّم عيسى اعتمدت على ظروف الدولة وعلى الأحداث التي مرت بها فأعطى لنفسه الحق في تصرّفاته وتبريرها حتى ولو كانت على حساب الدّيْن بحسبِ قناعاتهِ هو وتقديرهِ للأمور.

4. لقد صَبغ مذهب الملك المعظّم عيسى ثقافته الدينية، فكان لشيوخه بالغ الأثر في اعتناقهِ المذهب الحنفي، سيّما وأنّ اولئك الشيوخ من الأحناف، ووجدَ في هذا

المذهب مَداخلَ يَستطيعُ معها إباحةَ بعض الأمور والقضايا التي ترفضها المذاهب الأخرى.

5. تولّى الملك المعظّم عيسى الأيوبي نيابة دمشق في عهد والده الملك العادل، حيث امتدّت نيابته من جنوب حمص إلى العريش في سيناء، وشملت شرق الأردن والقدس ونابلس وكثير من المدن الفلسطينية، وكانت صلاحياته محدودة في ظل وجود والده الملك العادل.
6. بدأ الملك المعظّم عيسى الأيوبي حكمه مستقلاً في مملكته في 8 جمادى الثانية من سنة 615هـ/ 1218م، وذلك في أعقاب وفاة والده الملك العادل، وكان – وعلى عادة ملوك بني أيوب– تابعاً للسلطان في مصر ولم يحاول الخروج على طاعة السلطان هناك حتى سنة 618هـ/ 1221م بعد ما ساءت علاقته مع أخيه الملك الكامل.
7. امتدت حدود مملكة المعظّم عيسى الأيوبي من حمص شمالاً إلى العريش جنوباً، وضمّت الكرك، وبلاد السّاحل وبلاد الغور وأرض فلسطين والقدس والشوبك، وصرخد، واتّخذ من دمشق عاصمةً لها.
8. اعتمد الملك المعظّم عيسى الأيوبي على عّدّة وسائل لحفظ أمن مملكته والاهتمام بها، فاعتمد على العيون والجواسيس والنساء، كما سخّر ولاء سكان مملكته من المسلمين والنصارى لهذه الغاية، إضافة إلى حذره من أعدائه وبطشه بهم وحزمه تجاه أي مشكلة قد تهدّد أمن مملكته.
9. تميّزت سياسة الملك المعظّم عيسى الداخلية باللين مع الأشخاص الذين كان على وفاقٍ معهم، وبالشدّة مع اولئك الذين لم يكن راضياً عنهم، وخاصّة ممن ورثهم عن والده الملك العادل، كما قامت سياسته على إيجاد رجال دولة يعتمد عليهم من صنيعه.
10. أقرّ الملك المعظّم عيسى الأيوبي في مملكته النظام الإداري الذي ورثه عن دولة السلطان صلاح الدين الأيوبي، وقد تمثّل بالوظائف العسكرية والدينية والديوانية وما يرتبط بها من وظائف خاصة بكل منها.

11. تنوع العمران وازدهاره في عهد الملك المعظّم عيسى الأيوبي، فقد شمل العمران العسكري والثقافي كبناء المدارس والقلاع والحصون والفنادق والقيساريات والأسوار والأبراج.

12. اقتضت الضرورة السياسية والعسكرية والحاجة المّاسة عند الملك المعظم عيسى إلى هدم المدن والقلاع والحصون.

13. مرّت العلاقة بين الملك المعظّم عيسى وملوك البيت الأيوبي بمرحلتين، امتدت المرحلة الأولى من سنة 615هـ/ 1218م ولغاية 618هـ/ 1221م، اتسمت فيها العلاقات بين الطرفين بالوفاق والوقوف إلى جانب بعضهم البعض في حل مشاكلهم، الداخلية والخارجية، ولعلّ أهم حدثٍ في هذه الفترة الحملة الصليبية الخامسة على دمياط، ذلك الحدث الذي أظهر تكاتف ملوك البيت الأيّوبي وتعاضدهم وتَميُّزِ مواقفهم في الوقوف ضد الخطر الصليبي الذي كان يهددهم جميعا.

أمّا المرحلة الثانية فقد امتدت من سنة 619هـ/1222م ولغاية 624هـ/ 1227م، وقد اتّسمت تلك المرحلة بالخلاف وتوتر العلاقات بين الملك المعظّم عيسى وبين إخوته من جانب، وملوك البيت الأيوبي من جانبٍ آخر.

14. استطاع الملك المعظّم عيسى الأيوبي أن يقضي على معظم الأمراء الصلاحيّة، ويخفيَهم عن الساحة السياسية مع نهاية العقد الأوّل من القرن السابع الهجري، سيّما وأنّ هؤلاء الأمراء كانوا هم المحرّكين الأساسيين للصراع بين أبناء صلاح الدين والملك العادل على السلطة، وقد لعب المعظّم عيسى دوراً كبيراً في تدعيم سلطة والده أثناء ذلك الصراع.

15. كان للملك المعظّم عيسى الفضل في إنهاءِ مؤامرة ابن المشطوب والقضاء عليها في مهدها، وتدعيم سلطة الملك الكامل وتثبيت أركان حكمه.

16. تمخّضَ عن الخلافات بين الملك المعظّم عيسى وملوك البيت الأيوبي وأمرائه قيام الأحلاف مع أمراء المناطق، ودخول لاعبين جدد على الساحة السياسية الأيوبية، أمثال جلال الدين الخوارزمي والامبراطور فردريك الثاني، وقد أدّت

تلك الخلافات وقيام الأحلاف إلى تصدّع البيت الأيوبي، وتسليم بيت المقدس للصليبيين دون عناء.

17. اتّسمت علاقة الملك المعظّم عيسى الأيوبي مع الخلافة العباسيّة في بغداد بالاحترام والود، ولم تتجاوز تبادل السفراء والرسائل بين الطرفين، فالمعظّم عيسى كان يؤمن بأن الخليفة العباسي هو إمام المسلمين، ولا يجوز الخروج عليه، رافضاً كافة العروض للوقوف ضد الخلافة العباسيّة.

18. لعب الملك المعظم عيسى الأيوبي دوراً هامّاً في مواجهة الغزو الصليبي وبخاصة الحملة الهنغارية والحملة الصليبية الخامسة، كما كان له دوره في مفاوضات الحملة الصليبية السادسة فضلا عن حملاته على معاقل الصليبيين في بلاد الشام.

19. قدّمت الدراسة صورة عن الحقائق التاريخية لفترة حكم الملك المعظم عيسى الأيوبي بهدف تغطية فترة الفراغ الحضاري الذي كان يُعتقد بوجوده من قبل، خاصة بعد انقسام البيت الايوبي في بلاد الشام لرسم صورة تاريخية تكون أقرب للواقع.

راجياً الله أن تسد هذه الدراسة المتواضعة جزءاً من الفراغ الذي تركته الدراسات الحديثة بصورة أشبه وأقرب للواقع.

المصادر والمراجع

اولا: المصادر

القرآن الكريم

ابن الأثير، أبو الحسن عز الدين الشيباني (ت:630هـ/1232م)، 1417هـ / 1997م، **الكامل في التاريخ**، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ط1،12جزء دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

ابن الأثير، أبو الحسن عز الدين الشيباني (ت:630هـ/ 1232م)، 1963م، **التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية**، تحقيق عبد القادر أحمد، دار الكتب الحديثة، القاهرة،.

الإدريسي، محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس (ت:560هـ/1164م)، 1989م **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، عالم الكتب، بيروت.

الأصفهاني، عماد الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد(ت: 59هـ/1201م) ،1987م،**البرق الشامي**، تحقيق فالح حسين، ط1، مؤسسة عبد الحميد شومان، الأردن.

ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة السعدي الخزرجي(ت:668هـ/1269م)، 1882م، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، 2جزء، المطبعة الوهبية، القاهرة.

الأنباري، أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد(ت:577هـ/1181م)، 1985م، **نزهة الألباء في طبقات الأدباء**، تحقيق ابراهيم السامرائي، ط3، مكتبة المنار، الأردن، الزرقاء.

ابن إياس، محمد بن أحمد(ت:930هـ/1523م)، 1983م، **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

البكري، أبو عبيد عبد الله بن الأندلسي (ت:487هـ /1094 م)، 1983م، **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع**، ط3،4اجزاء، عالم الكتب، بيروت.

ابن تغري بردي، يوسف بن تغري بردي بن عبد الله (ت:874هـ/1469م)، د.ت، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**،16جزء، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القومي، دار الكتب، مصر.

ابن جبير، أبو الحسين محمد بن أحمد الكناني الأندلسي(ت:674هـ/1275م)، 1955م، **رحلة ابن جبير**، تحقيق، حسين نصار، القاهرة، مكتبة مصر.

الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الرومي (ت:626هـ/ 1228م)، 1995م، **معجم البلدان**، ط2،7 أجزاء، دار صادر، بيروت.

الحموي، أبو الفضائل محمد بن علي بن نظيف الحموي(ت:639هـ/1241م)، 1981م، **التاريخ المنصوري، تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان**، تحقيق أبو العبد دودو، مطبعة الحجاز، دمشق.

الحنبلي، أحمد بن ابراهيم(ت:876هـ/1471م)، د.ت، **شفاء القلوب في مناقب بني أيوب**، تحقيق ناظم رشيد، د.ن، د.م.

الحنبلي، عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري (ت:1089هـ/1679م)، 1406هـ/ 1986م، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، تحقيق محمود الأرناؤوط، وخرّج أحاديثه، عبد القادر الأرناؤوط، ط1،11جزء، دار ابن كثير، دمشق، بيروت.

ابن حوقل، ابو القاسم بن حوقل النصيبي البغدادي(ت:367هـ/977م)، 1979م **صورة الأرض**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان.

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد، (ت:808هـ/1604م)، 1408هـ /1988م، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر المعروف بتاريخ ابن خلدون**، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط2، 8 أجزاء.

ابـن خلكـان، أبـو العبـاس شـمس الـدين أحمـد بـن محمـد (ت:681هـ /1282م)، 1994م، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ط7،7 أجزاء، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

الداواداري، أبي بكر بن عبدالله بن أيبك(ت:736هـ/1335م)، 1391هـ/ 1997م، **كنز الدرر وجامع الغرر**،9 أجزاء، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة.

ابن دقماق، صارم الدين ابراهيم بن محمد بن ايدمر العلائي(ت:809هـ/ 1406م)، 1309-1310هـ، **الانتصار لواسطة عقد الأمصار**، ج4 و5 في مجلد واحد، مطبعة بولاق.

الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت748هـ/1374م)، 1966م، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، حوادث ووفيات (581هـ/590هـ)، تحقيق عمر تدمري، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت.

الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان(ت748هـ/1374م)، د.ت، **كتاب دول الإسلام**، مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ط2.

الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت: 748هـ/1347م)، د.ت،**العبر في خبر من غبر**، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول،4أجزاء، دار الكتب العلمية، بيروت.

الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد (ت538هـ/1143م)، 1999م ،**الجبال والأمكنة والمياه**، تحقيق، أحمد عبد التواب عوض، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، القاهرة.

سبط ابن الجوزي، يوسف بن قزا وغلي(ت:654هـ/1256م)، 1951م، **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**، مطبعة دار المعارف العثمانية، حيدر أباد، الهند، ،ج8، ق2.

السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين (ت:911هـ/1505م)، 1387 هـ /1967م، **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**،تحقيق محمد أبو

الفضل إبراهيم،ط1، 2جزء، دار إحياء الكتب العربية،عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر.

أبو شامة، عبد الرحمن بن اسماعيل (ت:665هـ/1226م)، 1974م، **تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين**، تحقيق عزت العطار الحسيني، ط2، دار الجيل، بيروت.

أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل(ت:665هـ/ 1226م)، 1997م، **كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، تحقيق ابراهيم الزيبق، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت.

ابن شاهين، غرس الدين خليل بن شاهين (ت: 873 هـ/1468م)، 1893م، **زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك**، تحقيق بولس روايس، المطبعة الجمهورية، باريس.

ابن الشحنه،(ت:815هـ-1413م)، 1303هـ/1885م، محب الدين محمد بن محمد بن محمود، **روضة المناظر في أخبار الأوائل والأواخر في حوادث سنة 618هـ**"_ على هامش كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي-، ط1، القاهرة، المطبعة الأزهرية المصرية.

ابن الشحنة، أبو الفضل محمد بن الشحنة الحلبي(ت:890هـ/ 1485م)، 1906م، **الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب**، بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين.

ابن شداد، بهاء الدين يوسف بن رافع(ت:632هـ/1236م)، 1979م، **سيرة صلاح الدين، المسماة النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**، القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي.

ابن شداد، عز الدين أبو عبدالله محمد بن علي بن ابراهيم (ت:684هـ/1234م)، 1962م ،**الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة**، تاريخ لبنان والأردن وفلسطين، تحقيق سامي الدهان، 2جزء، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق.

ابن الشعار، كمال الدين أبو البركات المبارك بن الشعار الموصلي(ت: 654هـ/ 1257م)، 1992م، **قلائد الجمان في فرائد شعر هذا الزمان**، تحقيق نوري

حمودي القيسي ومحمد نايف الديلمي، ط1، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، العراق.

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت:717هـ/1317م)، 1420هـ/2000م، **الوافي بالوفيات**، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى،29جزء،دار إحياء التراث، بيروت.

ابن طولون، محمد بن طولون الصالحي(ت:953ه/1528م)، د.ت، **القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية**، تحقيق محمد دهمان، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق.

ابن العبري، جمال الدين(ت:685ه/ 1286م)، 1986م، **تاريخ الزمان**، ترجمة الأب اسحق أرملة، دار الشروق، بيروت.

ابن العديم، عمر بن أحمد(ت:660ه/ 1262م)، 1997م، **زبدة الحلب من تاريخ حلب**، تحقيق سهيل زكار، ط1، دار الكتاب العربي، دمشق.

العليمي، قاضي القضاة أبو اليمن القاضي مجير الدين (ت:928ه/1522م)، 1973م، **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، مكتبة المحتسب، عمان، الأردن، مطابع دار الجيل، بيروت، لبنان.

العماد الأصفهاني، أبو عبدالله محمد بن محمد الأصفهاني(ت:597ه/1200م)، 1965م، **الفتح القسي في الفتح القدسي**، تحقيق وشرح، محمد محمود صبح، القاهرة، الدار القومية.

العمري، شهاب الدين أحمد بن فضل الله(ت:749ه/1348م)، د. ت، **مسالك الأبصار وممالك الأمصار**، تحقيق أيمن فؤاد السيد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، جزء مصر والشام.

ابن العميد، جرجس بن العميد بن الياس ابن أبي الطيب النصراني(ت:672هـ / 1273م)، د.ت، **أخبار الأيوبيين**، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد.

الفاسي، محمد بن أحمد بن علي، تقي الدين، أبو الطيب المكي الحسني(ت:822ه/ 1419م)، 1421هـ/2000م، **شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام**، ط1، 2جزء، دار الكتب العلميّة.

أبـو الفـدا، الملـك المؤيـد عمـاد الـدين اسـماعيل بـن عمـر (ت:732هـ/1331م)، 1960م، **المختصـر فـي أخبـار البشـر**، مجلـدان، دار الكتـاب اللبنـاني، بيروت.

أبـو الفـدا، الملـك المؤيـد عمـاد الـدين إسـماعيل بـن علـي (ت732هـ/1331م)، 1846م، **تقويم البلدان**، طبع بمدينة درسدن المحروسة.

ابـن الفرات، ناصـر الـدين محمـد بـن عبـد الـرحيم(ت:807هـ/1405م)، 1970م، **تـاريخ ابـن الفـرات**، تحقيـق حسـن محمـد الشـماع، دار الطباعـة الحديثـة، البصرة، العراق.

الفيروزآبـادى، مجـد الـدين أبـو طـاهر محمـد بـن يعقـوب(ت:817هـ/1318م)، 1421هـ/ 2000م، **البلغة في تراجم أئمـة النحـو واللغـة**، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، ط1،جزء واحد.

القرشـي، عبد الرحيم بن علـي بن اسحق بن شبث(ت:625هـ/ 1229م)، 1913م، **معالم الكتابة ومغانم الإصابة**، تحقيق قسطنطين الباشا المخلص، بيروت، المطبعة الأدبية.

القزوينـي، زكريا بن محمد بن محمود (ت: 682هـ/ 1283 م)، د. ت، **آثـار الـبلاد وأخبار العباد**، دار صادر، بيروت.

القلقشـندي، احمـد بـن علـي بـن احمـد الفـزاري (ت:821هـ/1418م)، د.ت، **صـبح الأعشى في صناعة الإنشاء**،5 أجزاء، دار الكتب العلمية، بيروت.

الكتبي، محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاكر بن هارون بن شاكر صـلاح الـدين (ت:764هـ/1362م)، 1974م، **فـوات الوفيـات**، تحقيـق إحسان عباس، ط1،4أجزاء، دار صادر، بيروت.

ابـن كثير، أبو الفدا إسماعيل بن علي (ت: 774هـ/1372م)، 1407هـ/1986م، **البداية والنهاية**، 15 جزء، دار الفكر.

ابـن لقلـق، كيرلس الثالث (ت:1263/1216م)، 1974م، **تـاريخ بطاركـة الكنيسـة المصـرية**، 4 مجلـدات، نشـر انطـوان خـاطر، د.ازولـد نورمسـتر، القـاهرة، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية.

المقريـزي، تقــي الـدين أحمـد بـن علــي (ت:845هـ/1441م)، 1418هـ/ 1997م، **السـلوك لمعرفــة دول الملــوك**، تحقيـق، محمـد عبـد القـادر عطـا، ط1،8 أجزاء، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت.

المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت845هـ/1441م)، 1991م، **كتـاب المقفّـى الكبيــر**، تصـنيف محمـد اليعلاوي، ط1، دار الغـرب الإسـلامي، بيـروت، لبنان.

المقريــزي، تقــي الــدين أحمــد بــن علــي(ت845هـ/1441م)، 1324-1326هـ، **المـواعظ والاعتبـار فــي ذكـر الخطـط والآثـار**، 4 أجزاء، القـاهرة، مطبعـة النيل.

ابـن منظـور، محمـد بـن مكـرم بـن علـى، أبـو الفضـل، جمـال الـدين ابـن منظـور (ت:711هـ/1311م)، 1414هـ/1993م، **لســـان العــــرب**، دار صـــادر، بيروت، ط3، 15جزء.

النعيمي، عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي (ت:978هـ/ 1182م)، 1410هـ / 1990م، **الدارس فـي تـاريخ المـدارس**، تحقيق إبراهيم شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية.

النـويري، أحمد بن عبد الوهـاب بـن محمـد بـن عبـد الـدائم القرشـي التيمـي البكري، شـهاب الـدين (ت:733هـ/1332م)، 1423هـ، **نـهايــة الأرب فــي فنــون الأدب**، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط1، 33جزء.

ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم(ت:697هـ/1297م)، د.ت، **مفـرج الكـروب فــي أخبـار بنــي أيــوب**، تحقيـق حسـنين محمـد ربيـع، وسـعيد عبـد الفتـاح عاشور،5أجزاء، د.ن، د.م.

ابن الوردي، زين الدين عمر(ت:749هـ/1349م)، 1970م، **تـاريخ ابن الـوردي. تتمـة المختصر فـي أخبـار البشر**، تحقيق أحمد رفعت البدراوي،ط1، دار المعرفة العلمية، بيروت.

اليافعي، عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان (ت:768هـ/1366م)، 1997م، **مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان،** تحقيق خليل المنصور، ط1، 7 أجزاء، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

اليونيني، قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد (ت: 726 هـ/1324م)، 1992م، **ذيل مرآة الزمان،** ط2،4 اجزاء، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

ثانياً: المصادر الأجنبية المعرّبة

أوليفر أوف بادربون، 1998م، **الاستيلاء على دمياط،** منشور في الموسوعة الشامية، تأليف وتحقيق وترجمة سهيل زكار، دار الفكر، دمشق.

ثيوديرك،1419هـ/ 1998م، **وصف ثيوديرك للأراضي المقدّسة،** منشور في الموسوعة الشاميّة، تأليف وتحقيق وترجمة سهيل زكّار، نشره سعيد البيشاوي، دمشق، ج34.

الراهب، دانيال،1992م، **رحلة الحاج الروسي دانيال الراهب في الديار المقدس 1107/1106م،** تحقيق، سعيد البيشاوي وداود أبو هدبة، عمان.

روجر أوف ويندوفر(ت:1237م)، 1421هـ/2000م ، **ورود التاريخ،** منشور في الموسوعة الشاميّة، تأليف وتحقيق وترجمة سهيل زكّار، دمشق، ق2، ج39.

فيليب دي نوفار،1419هـ/ 1998م، **حروب فردريك الثاني ضد الايبلينيين في سورية وقبرص،** منشور في(الموسوعة الشامية)، تأليف وتحقيق ونشر سهيل زكّار، ج34، دمشق.

متّى الباريسي(1235-1273م)، 1422هـ/2001م ،**التاريخ الكبير،** منشور في الموسوعة الشامية، تأليف وتحقيق وترجمة، سهيل زكّار، دمشق، ق5، ج40.

ثالثاً: المراجع العربية

إبراهيم، مصطفى وآخرون، د.ت، **المعجم الوسيط**، مجمع اللغة العربية، القاهرة، دار الدعوة.

آدم متز،1941/1940م، **الحضارة العربية الإسلامية في القرن الرابع الهجري**، ترجمة عبدالهادي أبو ريدة، القاهرة، بيت المغرب.

باركر، ارنست،1379هـ/ 1960م، **الحروب الصليبية**، ترجمة السيد الباز العريني، القاهرة.

البيطار، أمينة،1981م، **تاريخ العصر الأيوبي**، دمشق، منشورات جامعة دمشق.

جونز،أ. هـ. م،1987م، **مدن بلاد الشام حين كانت ولاية رومانية**، ترجمة إحسان عباس، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان.

الحايك، منذر،2011م، **العصر الأيوبي قرن من الصراعات الداخلية**، تقديم سهيل زكار، دار صفحات للدراسات والنشر، سوريا، دمشق.

أبو حجر، أمنة ابراهيم،2003م، **موسوعة المدن العربية**، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان.

حسان حلّاق، وعبّاس صبّاغ،1999م، **المعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية ذات الأصول العربية والفارسية والتركية، المصطلحات الإدارية والعسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والعائلية**، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.

حلمي، أحمد محمد،1402هـ/1982م، **مصر والشام والصليبيون**، ط2، منشورات القاهرة.

خريسات، محمد عبد القادر،1992م، **تاريخ الأردن منذ الفتح الإسلامي حتى نهاية القرن الرابع الهجري**، منشورات لجنة تاريخ الأردن، عمان.

الدباغ، مصطفى مراد،1991م، **بلادنا فلسطين**،10 اجزاء، منشورات دار الهدى، حيفا.

الدسوقي، ابراهيم،1941/1940م، **المعجم الفارسي الكبير**، 3 أجزاء، بيت المغرب، القاهرة.

الذيب، منير،2011م، **معجم أسماء المدن والقرى في بلاد الشام الجنوبية**، سورية-الأردن، دارسة لغوية تاريخية إحصائية جغرافية، دار العراب للدراسات والنشر والترجمة، ودار نور للدراسات والنشر والترجمة، دمشق.

رشاد الإمام،1999م، **مدينة القدس في العصر الوسيط**، الدار التونسية للنشر، تونس،رنسيمان، ستيفن، **الحروب الصليبية**، ترجمة السيد الباز العريني، ط3، القاهرة.

الرويضي، محمود محمد،1423هـ/2002م، **إمارة الرها الصليبية(490هـ-546هـ/1097م-1151م)**، ط1،الأردن، عمان، وزارة الثقافة.

ريان، حامد،1983م، **الصراع السياسي بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية**، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة.

زكي، عبد الرحمن،1945م ، **معارك حاسمة في تاريخ مصر**، القاهرة، مطبعة النيل،.

الزميلي، وهبة،1984م ، **الفقه الإسلامي وأدلته**، دار الفكر، دمشق.

سترنج، لي،1970م، **فلسطين في العصر الإسلامي**، ترجمة محمود عمايري، ط1،عمان.

شحاتة، عادل،1989م، **العلاقات السياسية بين الامبراطورية الرومانية المقدسة والشرق الاسلامي 547هـ-631هـ/1152م-1250م**، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1.

صفوان، طه حسن،1431هـ/ 2010م، **تاريخ الأيوبيين والمماليك**، ط1، دار الفكر، الأردن، عمان.

ظهير، إحسان إلهي (ت:1407هـ /1987م)، 1415هـ /1995م، **الشيعة والتشيع فرق وتاريخ**، إدارة ترجمان السنة، لاهور، باكستان، ط10، جزء واحد.

عاشور، سعيد،1976م، **الحركة الصليبية**، ط3، منشورات مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

عمران، محمود سعيد،1985م، **الحملة الصليبية الخامسة، حملة جان دي برين على مصر 615-618هـ/1218-1221م**، القاهرة، دار المعارف.

غوانمة، يوسف حسن درويش،1400هـ/1980م، **إمارة الكرك الأيوبية**، بحث في العلاقات بين صلاح الدين وأرناط ودور الكرك في الصراع الصليبي في الأراضي المقدسة، الأردن، بلدية الكرك.

كرد علي محمد،1343- 1347هـ/ 1925- 1938م، **كتاب خطط الشام**، 6أجزاء، دمشق، المطبعة الحديثة.

لانكستر، هاردنج،1971م، **آثار الأردن**، تعريب سليمان الموسى، ط2، منشورات عمان.

مقبولة خليل،1991م، **مدينة القدس في العهد الأيوبي**، منشورات الجامعة الأردنية، عمان.

نسيم، جوزيف،1971م، **العدوان الصليبي على بلاد الشام" هزيمة لويس التاسع في الأراضي المقدّسة"**، ط3، الاسكندرية، دار الكتب الجامعية.

نسيم، جوزيف،1969م، **العدوان الصليبي على مصر" هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسكور**، ط1، الاسكندرية، دار الكتب الجامعية.

يوسف، أحمد حمد عبد،1982م، **القدس من العهد الراشدي وحتى نهاية الدولة الأيوبية**، دائرة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

رابعاً: الرسائل الجامعية

الخريسات، حنان أحمد محمود،2004م، **السياسة الأيوبية تجاه الصليبيين**،(589هـ-648هـ/1193م- 1250م)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة مؤتة.

أبو دمعة، أمين،1988م، **الحياة الاقتصادية في بلاد الشام في العصر الأيوبي**، رسالة جامعية غير منشورة، جامعة دمشق.

الصائغ، ذكرى،1409هـ/ 1980م، **عصر الملك الكامل الأيوبي**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الموصل.

غانم، هناء محمد عبد القادر،1995م، **الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل الأيوبي صاحب دمشق**، رسالة ماجستير غير منشورة ، الجامعة الأردنية.

القطـامين، عليـا،2008م، **سـبط ابـن الجـوزي مؤرخـاً للحـروب الصـليبية**، رسـالة ماجستير غير منشورة، جامعة مؤتة.

خامساً: المقالات

ايليسيف، نيكيتا، 1955/1954م، مساهمة في دراسة حكم الملك المعظّم عيسى، تعريب وتلخيص عدنان البني، بحث منشور في **مجلة الحوليات الأثرية السوريّة**.

الرويضـي، محمود محمد،1430هـ/2009م، عماد الدين أحمد بن المشطوب وأثر حركات عصيانهِ على سلاطين بني أيوب وملوكهم(590هـ- 619هـ/ 1193م-1222م)، بحث منشور، **المجلة الأردنية للتاريخ والآثار**، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن.

عبو، عادل نجم،1974م، المدرسة في العمارة الأيوبية في سوريا، بحث منشور في **الحوليات الأثرية العربية السورية**،م24.

محي الدين، هلال،2001م، الربط الإسلامي، بحث منشور، **مجلة المورد**، ج14، العدد الخامس.

سادساً: المراجع الاجنبية

Humphreys, R .Stephen. 1193- 1260, **From Saladin to Mongols**, The Ayyubids of Damascus.

Eracles, Lestoire de Eracles Emperur et La Conquette de la Terre doutremer, in Recuel Des Historiens des Croisades Histores Orientaux, Paris, 1859,vol,11.

Rober payne: 1986, Die Kreuzzuge Benziger Verlag Zurich Koln.

Gibb,H. 1969," **The Ayyubides" Ahistory of the crusades, Edited by Setton**,Vol,lI, the university of Wisconsin press, Milwau Ree.

الملحق (أ)

المخططات

مخطط ١

مخططات الأسر الأيوبية:

الأسرة الأيوبية

شادي

أسد الدين شيركوه

نجم الدين أيوب

الناصر صلاح الدين يوسف

العادل سيف الدين أبو بكر

سيف الإسلام طغتكين

تاج الملوك بوري

المعظم تورانشاه

الناصر أيوب

معز الدين إسماعيل

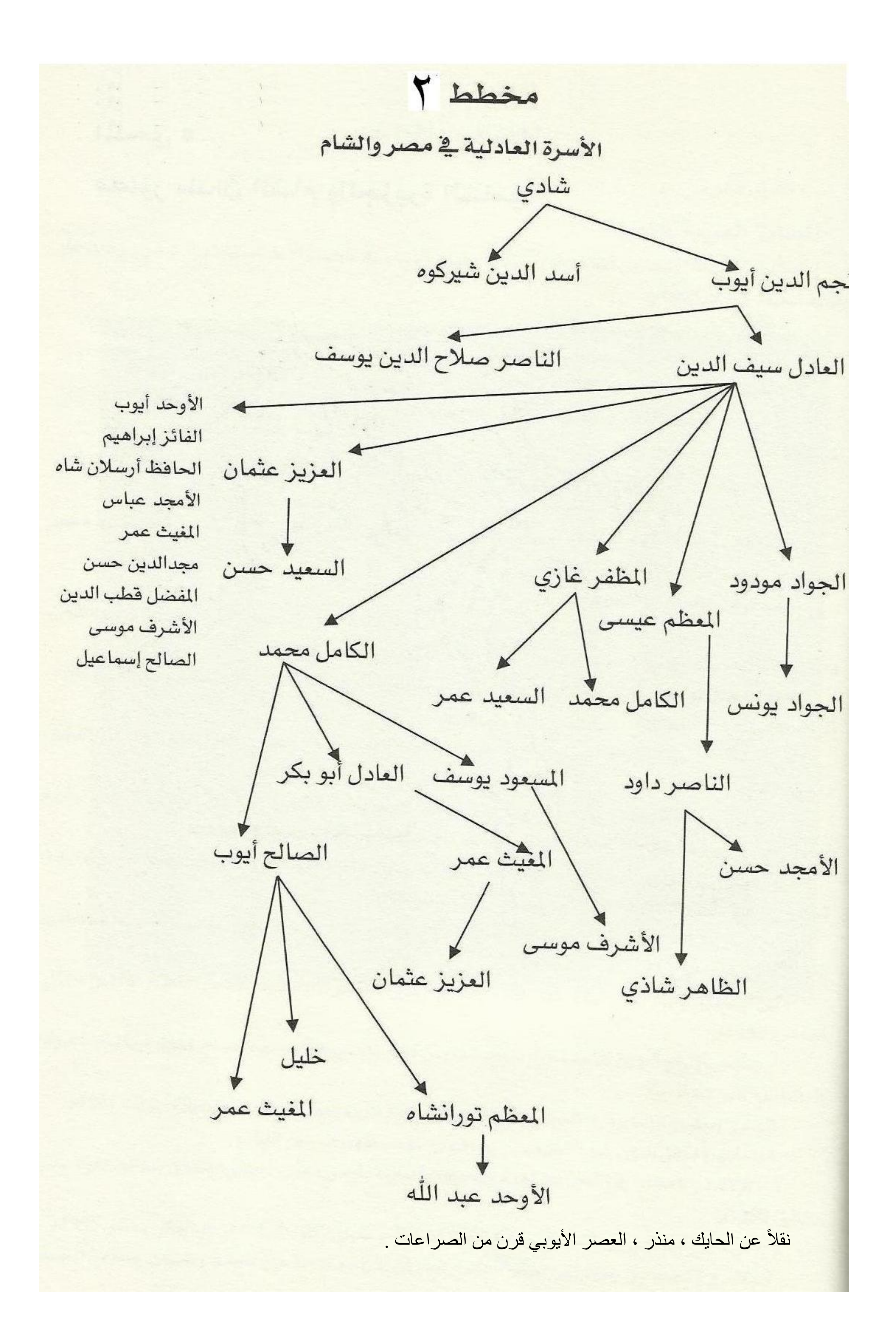
نور الدولة شاهنشاه

المظفر تقي الدين عمر

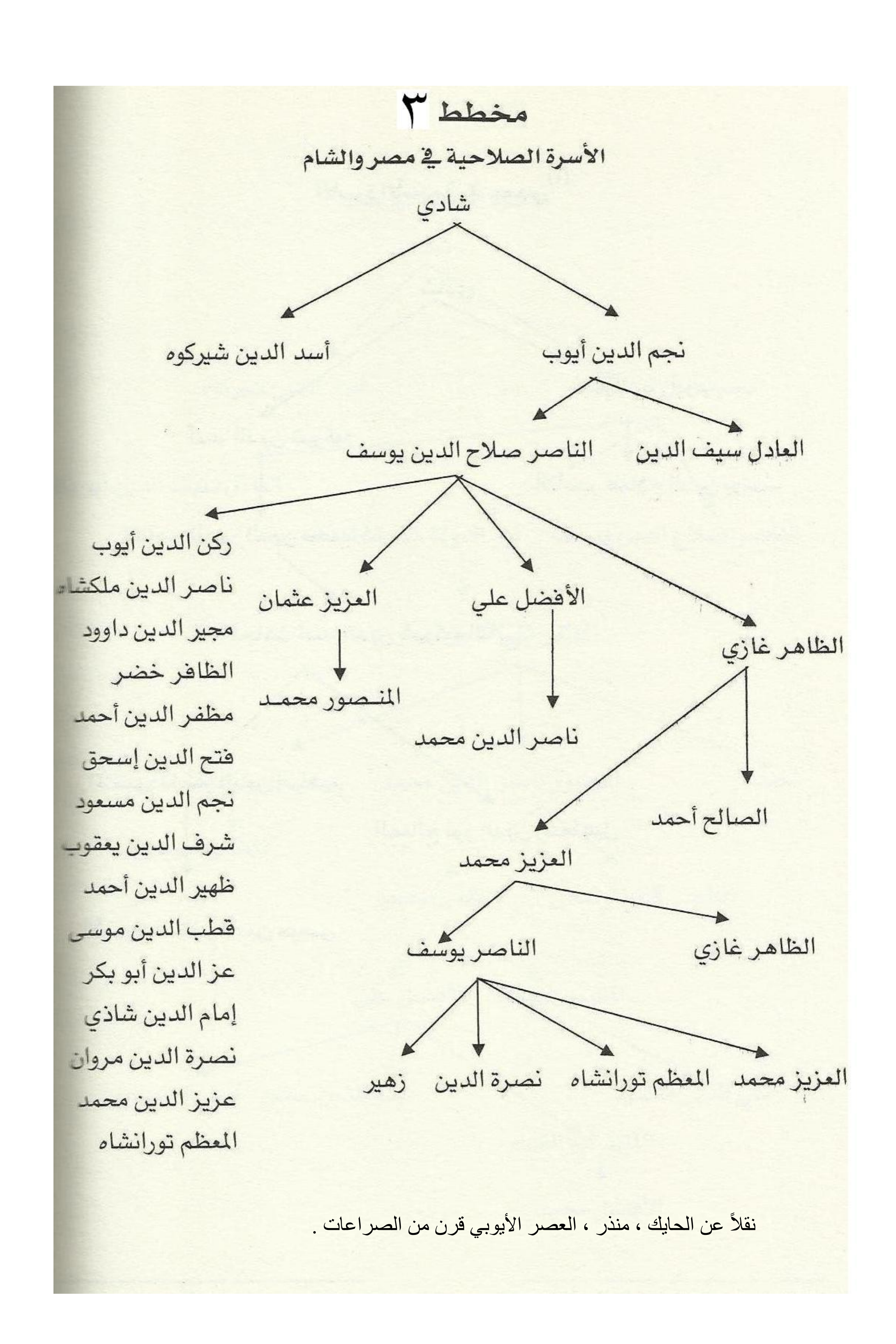
داوود فروخ شاه

الأمجد بهرام

نقلاً عن الحايك ، منذر ، العصر الأيوبي قرن من الصراعات .



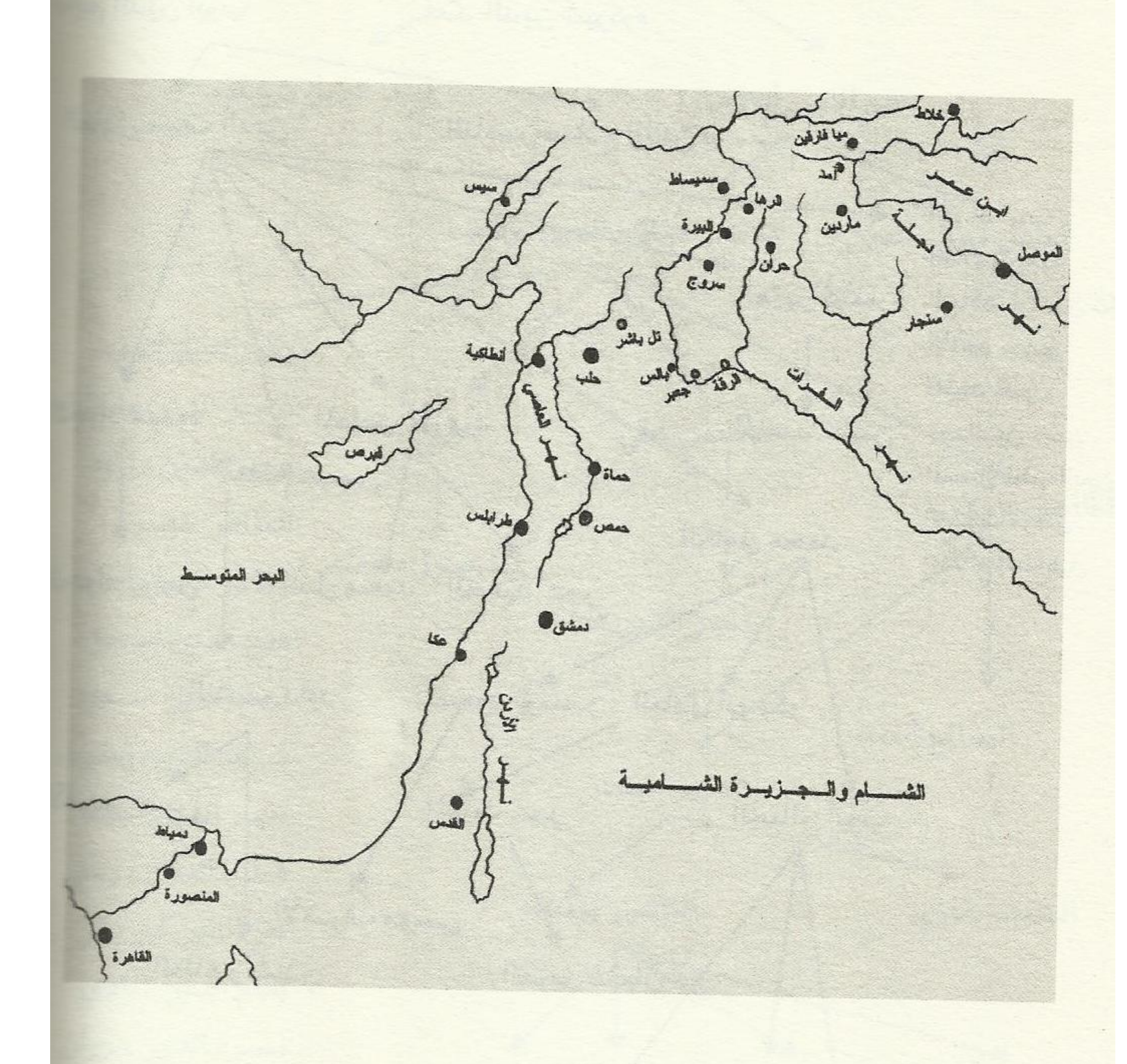
نقلاً عن الحايك ، منذر ، العصر الأيوبي قرن من الصراعات .



نقلاً عن الحايك ، منذر ، العصر الأيوبي قرن من الصراعات .

مخطط ٤

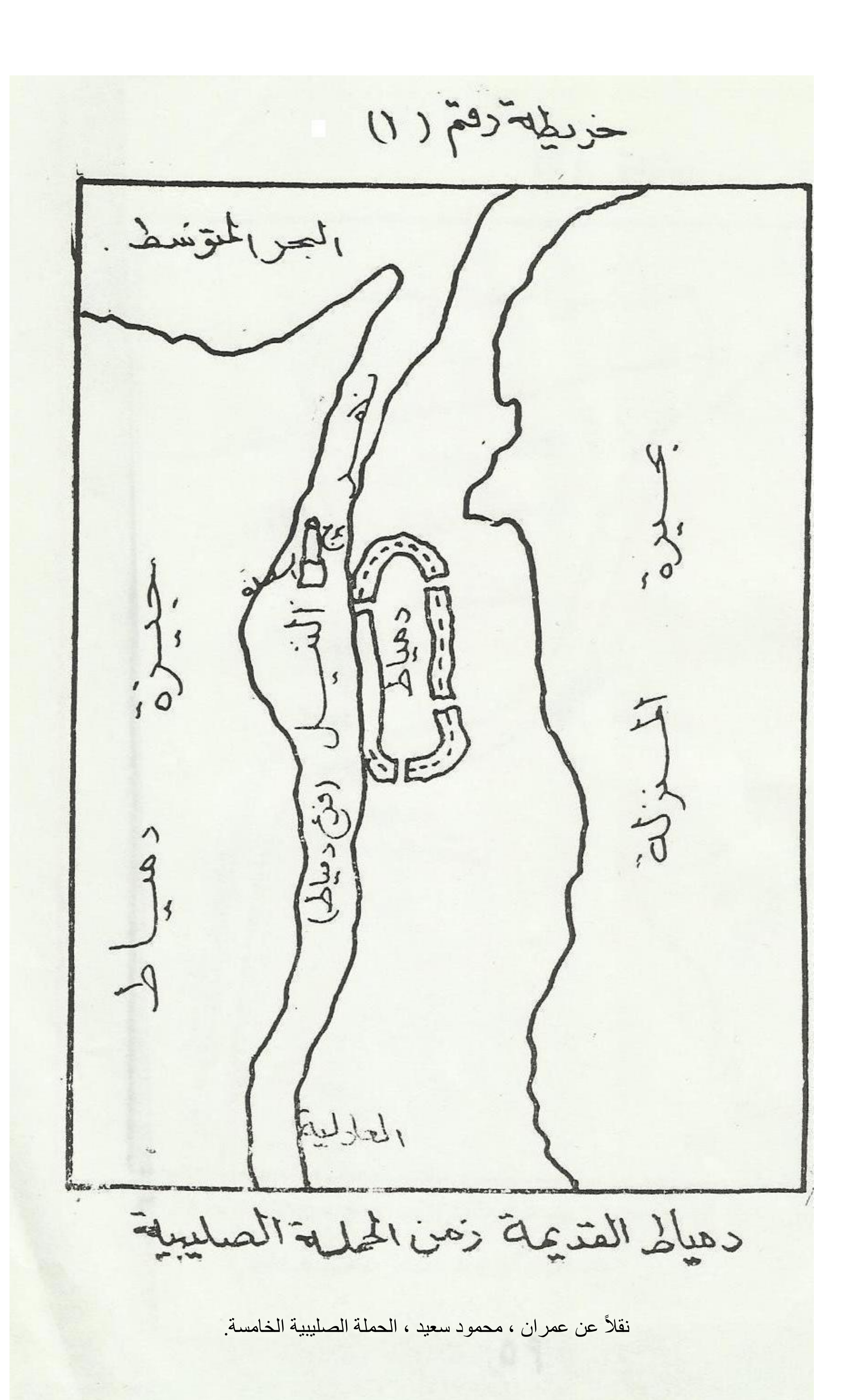
مصور بلدان الشام والجزيرة الشامية



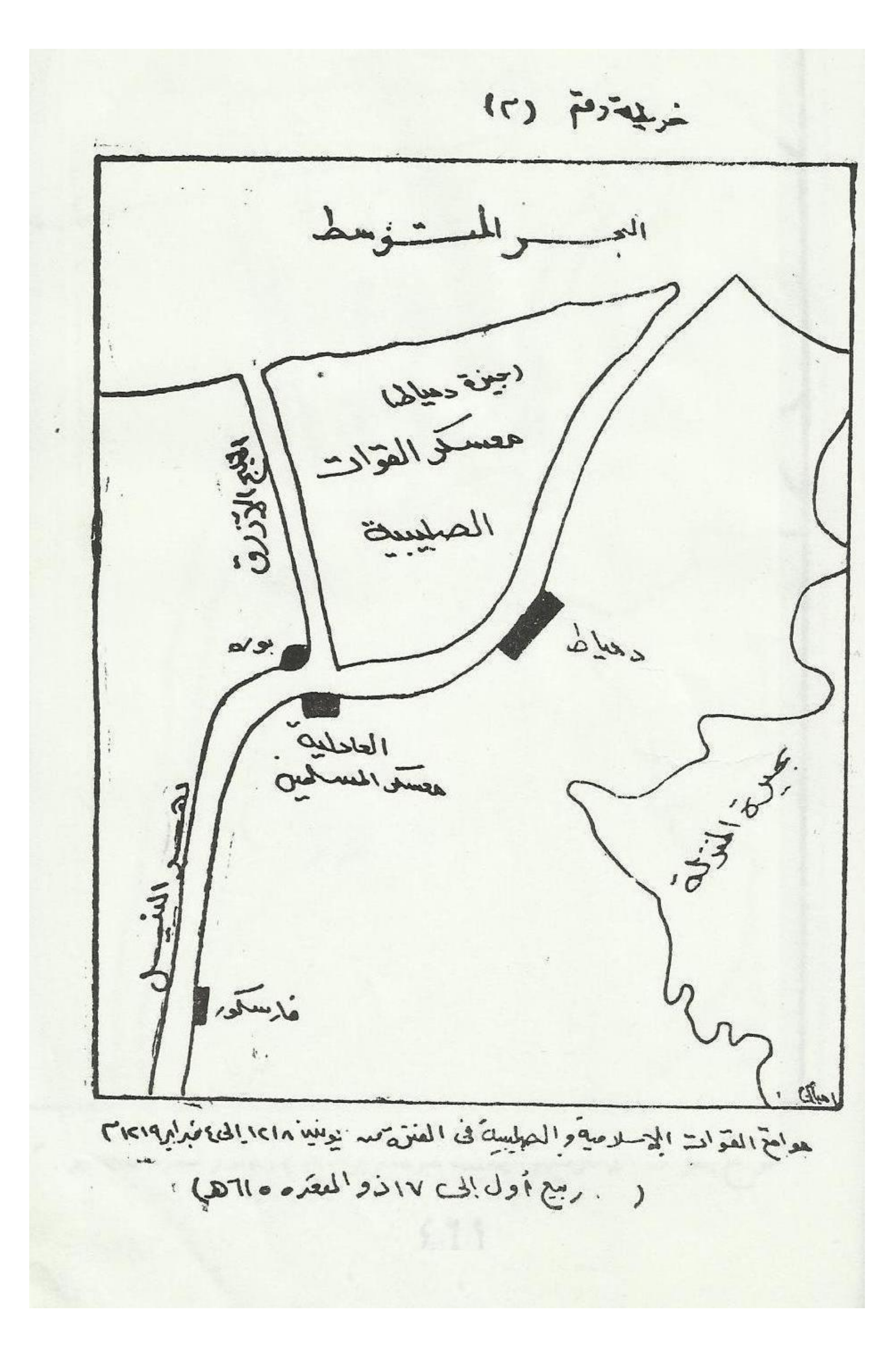
نقلاً عن عمران ، محمود سعيد ، الحملة الصليبية الخامسة.

الملحق (ب)

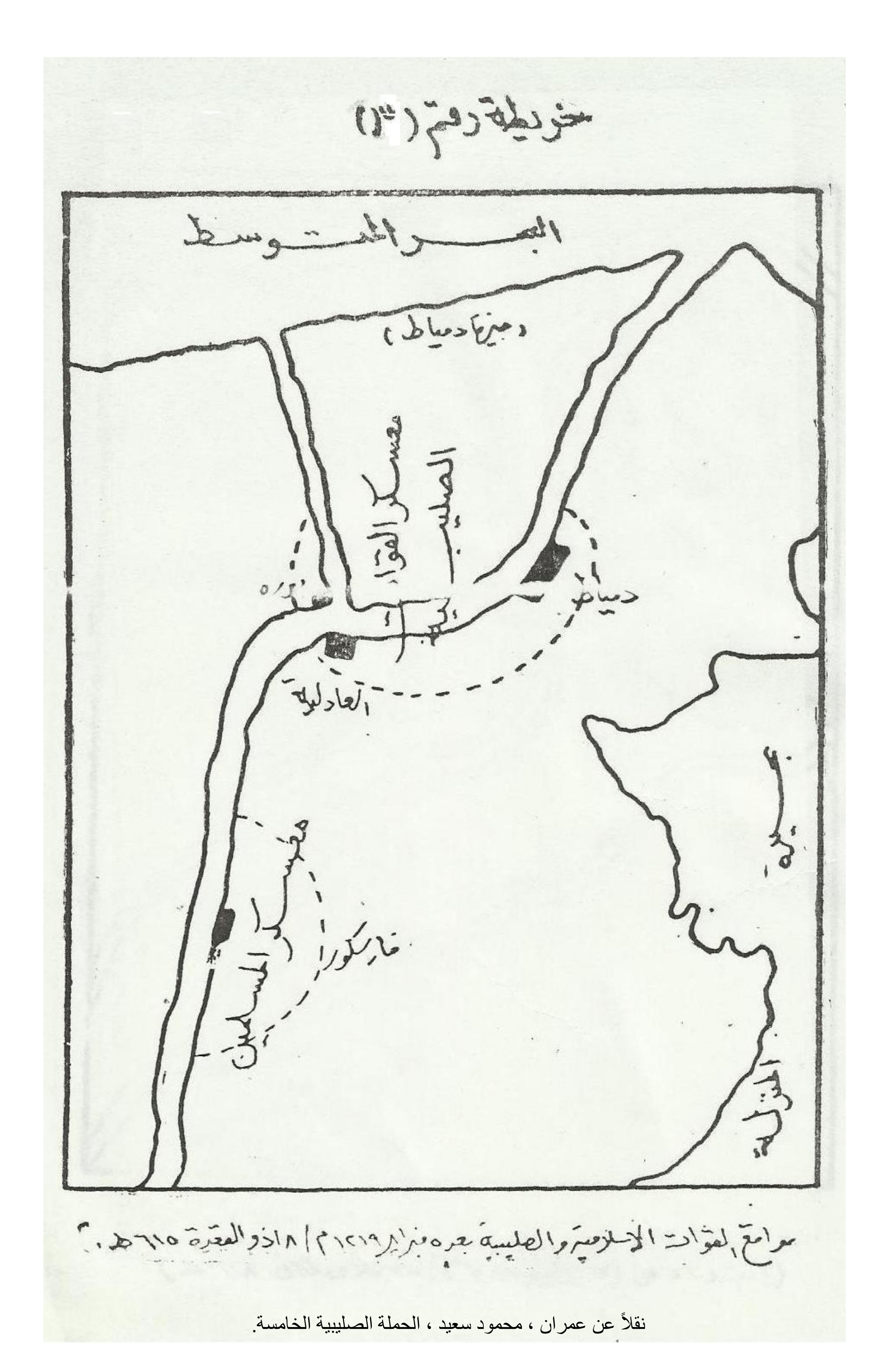
الخرائط



نقلاً عن عمران ، محمود سعيد ، الحملة الصليبية الخامسة.

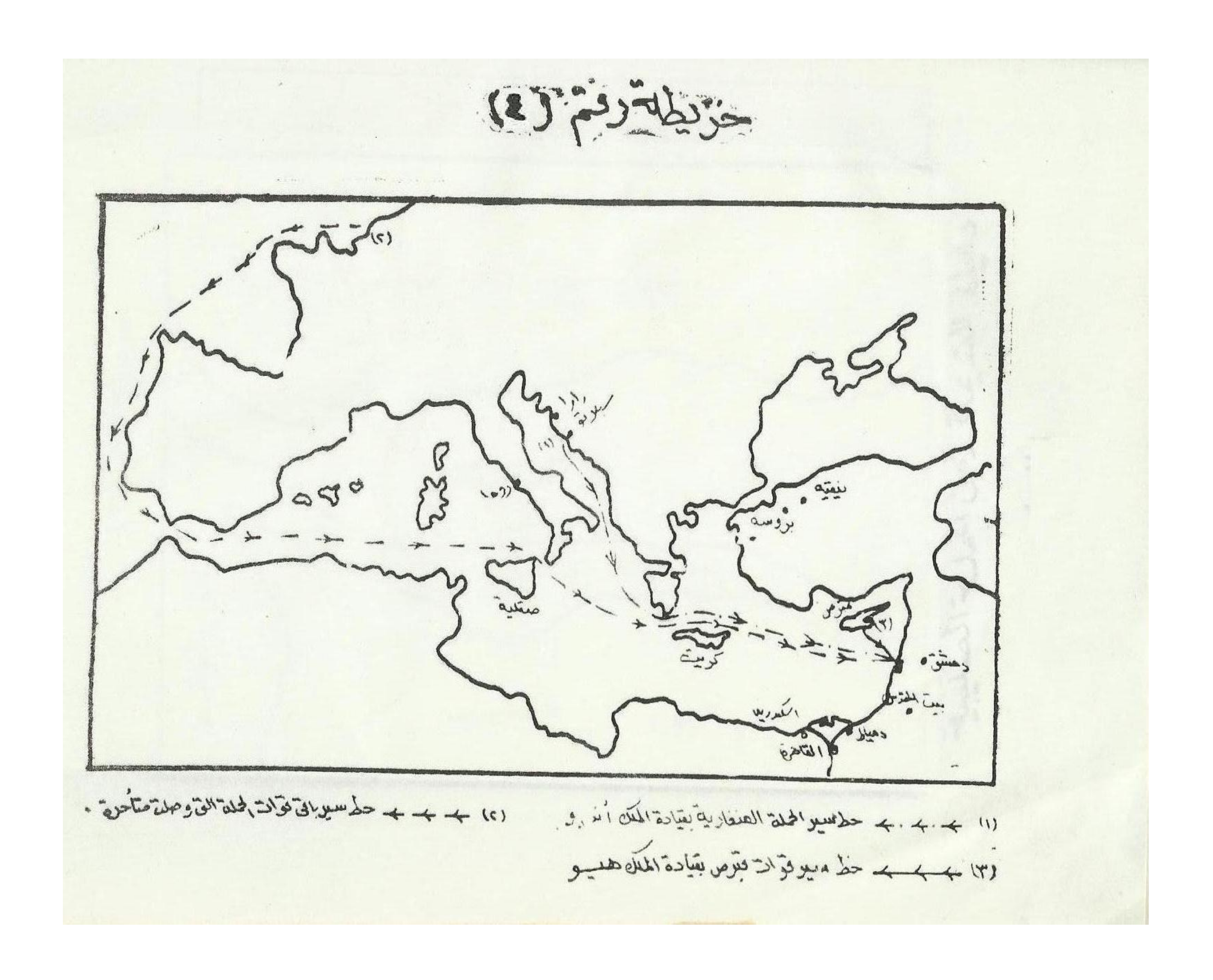


نقلاً عن عمران ، محمود سعيد ، الحملة الصليبية الخامسة.

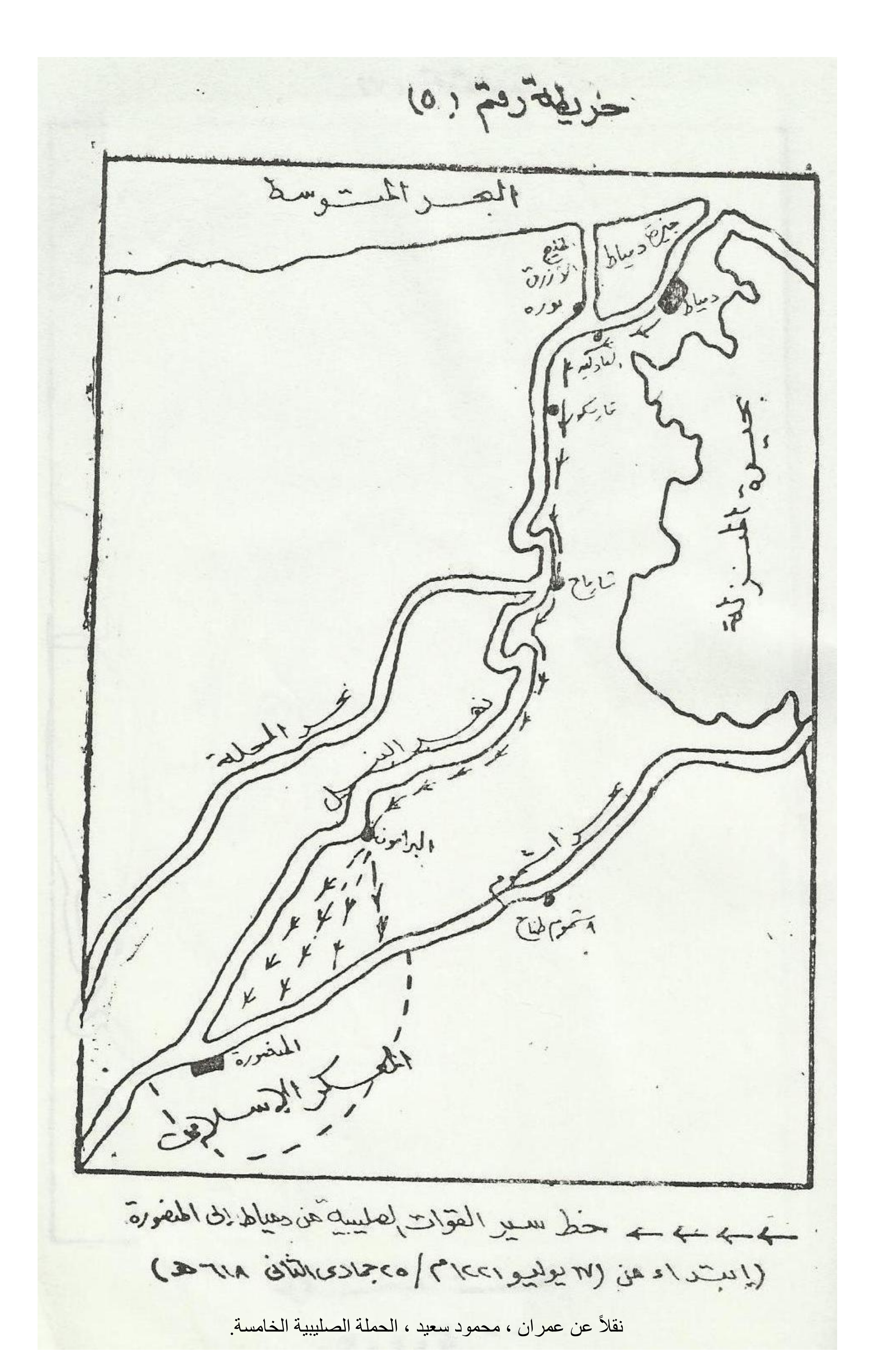


مواقع القوات الإسلامية والصليبية بعد فبراير ١٢١٩م / ٨ ذو القعدة ٦١٥هـ.

نقلاً عن عمران ، محمود سعيد ، الحملة الصليبية الخامسة.



نقلاً عن عمران ، محمود سعيد ، الحملة الصليبية الخامسة.



نقلاً عن عمران ، محمود سعيد ، الحملة الصليبية الخامسة.